

لمذهب أهل التصوف

تأليف

أبي بكر محمد بن إسحق الكلاباذي

المتوفى سنة ٣٨٠هـ

ضبطه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه

أحمد شمس الدين

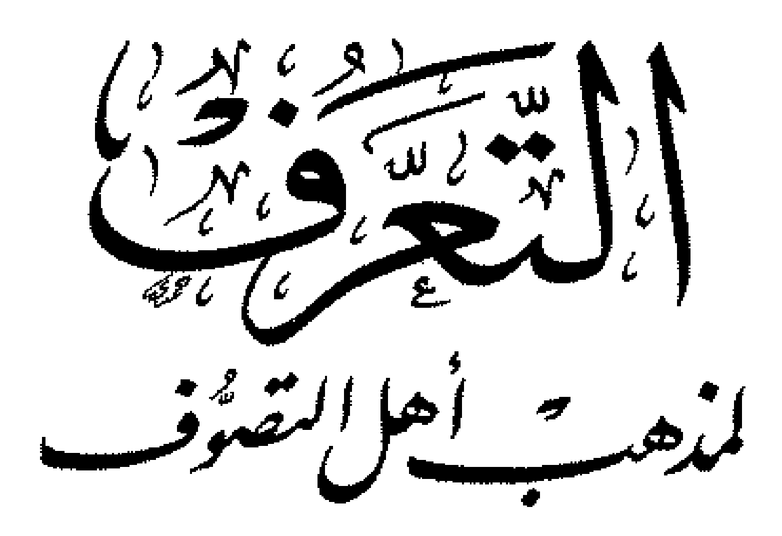
منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



لمذهب أهل التصوف

تأليف

أبي بكر محمد بن إسحق الكلاباذي

المتوفى سنة ٣٨٠هـ

ضبطه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه

أحمد شمس الدين

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/١٢١٢/ ٤٧٨١٣٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يعتبر كتاب «التعرّف لمذهب أهل التصوّف» من أقدم وأدقّ الكتب التي تناولت هذا العلم بمصطلحاته ورجاله، فقد وضعه العلامة تاج الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ في أوائل القرن الرابع للهجرة، وهو القرن الذي بلغ فيه التصوف ذروته وكماله العلمي والفنّي، سواء من حيث المنهج أو من حيث الرجال والأعلام، فجاء هذا الكتاب صورة صادقة ومرآة واضحة تعكس ما وصل إليه القوم في مواجيدهم ومجاهداتهم.

والمصنف بعد هذا لم يختفِ بذكر الأسماء وسرد الأقوال وحكايات الأحوال، بل اتّبع في كتابه أسلوباً بارعاً يتسم بالسرد والعرض ثم يدلي برأيه وحجته وهو العالم العارف الذائق، كما اتبع منهجاً علمياً دقيقاً قلّ أن التزمه مصنف قديماً أو حديثاً. يحدثنا الكلاباذي عن منهجه في هذا الكتاب، فيقول: «. . . فدعاني ذلك إلى أن رسمت في كتابي هذا وَصْفَ طريقتهم وبيان نحلتهم وسيرتهم من القول في التوحيد والصفات وسائر ما يتصل به مما وقعتْ فيه الشبهة عند من لم يعرف مذاهبهم ولم يخدم مشايخهم، وكشفت بلسان العلم ما أمكن كشفه، ووصفت بظاهر البيان ما صلح وصفه؛ ليفهمه من لم يفهم إشاراتهم ويدركه من لم يدرك عباراتهم وينتفي عنهم خرص المتخرصين وسوء تأويل الجاهلين، ويكون بياناً لمن أراد سلوك طريقه مفتقراً إلى الله تعالى في بلوغ تحقيقه، بعد أن تصفحت كتب الحذّاق فيه وتتبعت

حكايات المتحققين له بعد العشرة لهم والسؤال عنهم؛ وسميته بكتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، إخباراً عن الغرض بما فيه»[1].

ثم يقول في موضع آخر[2]: «هذا ما تحققناه وصح عندنا من مذاهب القوم من أقاويلهم في كتبهم ممن ذكرنا أساميهم ابتداءً، وما سمعناه من الثقات ممن عرف أصولهم وتحقق مذاهبهم، والذي فهمناه من رموزهم وإشاراتهم في ضمن كلامهم. وليس كل ذلك مسطوراً لهم على حسب ما حكيناه، وأكثر ما ذكرنا من العلل والاحتجاج فمن كلامنا عبارة عما حصلناه من كتبهم ورسائلهم. ومن تدبر كلامهم وفحص كتبهم علم صحة ما حكيناه. ولولا أنا كرهنا الإطالة والإكثار لكنا نذكر مكان ما حكيناه من كلامهم من كتبهم نصّاً ودلالة، إذ ليس كل ذلك مرسوماً في الكتب على التصريح».

وهكذا ينتصب أمامنا عالم في التصوف يتميز بصفتين قلّما تجتمعان في مصنف واحد، الصفة الأولى النظرية وهي صفة النقد من خارج، والصفة الثانية هي صفة الصوفي الذي دخل في القوم وعرف مواجيدهم وذاق أحوالهم ومقاماتهم. فكان هذا الكتاب الذي يعتبر فريداً في بابه.

وقد صدر هذا الكتاب في عدة طبعات، أولها وأنفسها ـ وهي الطبعة التي حققت عن المخطوطة الأصلية ـ طبعة المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود والمرحوم طه عبد الباقي سرور. ثم تتالت بعد ذلك عدة طبعات لم تزد شيئاً يذكر على الطبعة الأولى. ونظراً إلى أن تلك الطبعات السابقة لم تَخْلُ من التعليقات ما يشفي غليل المبتدئين، ارتأينا أن نصدر هذا الكتاب في طبعة جديدة حافلة بالتعليقات والتعريفات التي قد يحتاج إليها القارىء العادي سواء من حيث اللغة أو التعريف بالأعلام أو تفسير بعض الأقوال الغامضة التي قد يغيب معناها عن القارىء الغير المتمرّس.

نسأل الله تعالى التوفيق، والحمد له أولاً وآخراً.

أحمد شمس الدين

بيروت ـ في ٨ ربيع الثاني ١٤١٣ هـ
الموافق ٥ تشرين الأول ١٩٩٢ م

---

(١) انظر ص ٧ من هذا الكتاب.
(٢) ص ٩٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله المحتجب بكبريائه عن دَرْكِ العيون، المتعزّز بجلاله وجَبَرُوته عن لواحق الظُّنون، المتفرِّدِ بذاته عن شبه ذوات المخلوقين، المتنزهِ بصفاته عن صفات المُحْدَثين، القديمِ الذي لم يَزَلْ والباقي الذي لا يزال، المتعالي عن الأشباه والأضداد والأشكال، الدالِّ لخلقه على وحدانيته بأعْلامه وآياته، المتعرف إلى أوليائه بأسمائه ونعوته وصفاته، المقرِّب أسرارهم[1] منه والعاطفِ بقلوبهم عليه، المقبلِ عليهم بلطفه، الجاذب لهم إليه بعطفه. طهّر عن أدناس النفوس أسْرارَهُمْ، وَأَجَلَّ عن مُوافقة الرُّسُومِ أقْدَارَهُمْ؛ اصْطَفى مَنْ شاء منهم لرسالته، وانْتَخَبَ مَنْ أراد لوَحْيِهِ وسفارته؛ أنزل عليهم كُتُباً أمر فيها ونَهَى، وَوَعَدَ مَنْ أطَاعَ وَأَوْعَدَ مَنْ عَصَى؛ أَبَانَ فَضْلَهُمْ على جميع البشر، ورفع دَرَجَاتِهِمْ أن يَبْلُغَها قدرُ ذي خَطَر؛ خَتَمَهم بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأمر بالإيمان به والإسلام؛ فدِينُهُ خيرُ الأديان، وأُمَّته خير الأمم، لا نَسْخَ لشريعته ولا أُمّة بعد أُمَّته؛ جَعَلَ فيهم صَفْوَةً وأخياراً، ونجباء[2]

---

(١) الأسرار جمع سِرّ؛ قال الشريف الجرجاني: السر لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة (انظر التعريفات للجرجاني ص ١١٨ ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣ سنة ١٩٨٨)

(٢) النجيب لغةً: هو من الرجال الكريم الحسيب، والجمع أنجاب ونجباء ونُجُب (انظر لسان العرب: مادة نجب). والنجباء في اصطلاح الصوفية هم الأربعون وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق، وهي من حيث الجملة كل حادث لا تفي القوة البشرية بحمله، وذلك لاختصاصهم بوفور الشفقة والرحمة =

وأبراراً؛ سبقت لهم من الله الحسنى، وأَلْزَمَهُمْ كلمةَ التَّقْوَى، وعَزَفَ بنفوسهم عن الدنيا؛ صَدَقَتْ مجاهداتُهُمْ فنالوا عُلُومَ الدراسة، وخلَصَتْ عليها معاملاتُهم فمُنِحُوا عُلُومَ الوِراثَة، وَصفَتْ سَرائِرُهُمْ فأُكْرِموا بصدْقِ الفِرَاسَة[1]، ثَبَتَتْ أقدامُهُمْ، وَزَكَتْ أفهامُهُمْ، وأَنَارَتْ أعلامُهُمْ؛ فَهِمُوا عن الله، وساروا إلى الله، وأعرضوا عما سوى الله؛ خرقت الحُجُبَ أنوارُهُمْ، وجَالَتْ حول العرش أبصارُهُمْ؛ فهم أجسام روحانيون، وفي الأرضِ سماويّون، ومع الخلق رَبَّانِيّونَ، سُكُوتٌ نُظَّار، غُيَّبٌ حُضَّار، ملوكٌ تحت أَطْمار؛ أنزاعُ قبائل[2]، وأصحابُ فَضائل، وأنوار دلائل؛ آذانُهُم واعية، وأسرارُهم صافية، ونعوتُهُم خافية؛ صَفَوِيّة صُوفية، نوريه صفية؛ ودائعُ الله بين خليقته، وصَفْوَتُهُ[3] بين بَرِيَّتِهِ[4]؛ ووصاياه لنبيه، وخَبَاياهُ عند صَفِيِّه؛ هم في حياته أهلُ صُفَّتِهِ[5]، وبعد وَفاته خيار أُمَّته؛ لم يزل يدعو الأولُ الثاني، والسابقُ التالي بلسان فعله، أغناه ذلك عن قوله.

حَتَّى قَلَّ الرَّغَبُ[6] وفَتَرَ الطَّلَبُ؛ فصار الحالُ أجوبةً ومَسَائِلَ، وكُتُباً وَرَسَائِلَ؛ فالمعاني لأربابها قريبة، والصُّدُورُ لِفَهْمِها رَحيبة[7].

الفطرية، فلا يتصرفون إلا في حق الغير إذ لا مزية لهم في ترقياتهم إلا من هذا الباب (انظر التعريفات للجرجاني: ص ٢٣٩)

(١) الفراسة في اللغة: التثبت والنظر. وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب (انظر المرجع السابق: ص ١٦٦) وانظر أيضاً ص ١٦٩ من هذا الكتاب باب تنبيهه إياهم بالفراسات.

(٢) في اللسان (مادة نزع): نُزَّاع القبائل: غرباؤهم الذين يجاورون قبائل ليسوا منهم، الواحد نزيع ونازع. والنزائع والنُّزَّاع: الغرباء. وفي الحديث «طوبى للغرباء» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «النُّزَّاع من القبائل».

(٣) الصفوة في اصطلاح أهل الحقيقة هم المتصفون بالصفاء عن كدر الغيرية (انظر كتاب التعريفات: ص ١٣٤).

(٤) البرية: الخلق.

(٥) أهل الصفة: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن لهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلّل في مسجد المدينة يسكنونه.

(٦) الرَّغَبُ والرَّغْبُ والرُّغْبُ: الضراعة والمسألة. وفي التنزيل العزيز ﴿يدعوننا رغباً ورهباً﴾ سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

(٧) رحيبة: واسعة.

إلى أنْ ذَهَبَ المَعْنى وبقي الاسم، وَغَابَتِ الحقيقةُ وحَصَل الرسمُ؛ فصارَ التَّحْقِيقُ حِلْيَةً، والتَّصْدِيقُ زِينَةً، وادَّعَاهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ، وتَحَلَّى به مَنْ لَم يَصِفْهُ، وأَنْكَرَه بفِعْلِهِ مَنْ أَقَرَّ به بلسانه، وكَتَمَهُ بصِدْقه من أَظْهَرَهُ ببيانه، وأُدْخِلَ فيه ما ليس فيه، فجعل حَقُّهُ باطلاً، وسَمَّى عَالِمَهُ جَاهلاً، وانْفَرَدَ المتحقِّقُ فيه ضَنّاً به، وسكت الواصِفُ له غَيْرَةً عليه، فَنَفرتِ القلوبُ منه، وانْصَرَفَتِ النَّفْسُ عنه، فذَهَبَ العِلْمُ وأَهْلُهُ، والبيانُ وفعْلُه، فصار الجُهَّالُ علماءَ، والعلماءُ أذِلَّاءَ.

فدعاني ذلك إلى أنْ رَسَمْتُ في كتابي هذا وَصْفَ طَرِيقَتِهِمْ، وبَيَانَ نِحْلَتِهِمْ[1] وسِيرَتِهِمْ، مِنَ القَوْلِ في التوحيدِ والصِّفَاتِ، وسائرِ ما يتصل به ممَّا وَقَعَتْ فيه الشُّبْهَةُ عند مَنْ لم يَعْرِفْ مذاهبَهُمْ، ولم يَخْدم مَشايِخَهُمْ. وَكَشَفْتُ بلسان العلم ما أَمْكَنَ كَشْفُه. ووصَفْتُ بظاهر البيانِ ما صَلَحَ وَصْفُه، لِيَفْهَمَهُ مَنْ لَم يَفْهَمْ إشاراتِهِمْ، ويُدْرِكَهُ مَنْ لم يُدْرِكْ عباراتِهِمْ، وَيَنْتَفِي عَنْهُمْ خَرْصُ[2] المُتَخَرِّصِينَ، وسوءُ تأويلِ الجاهِلِينَ، ويكُونَ بياناً لمن أراد سُلُوكَ طَرِيقِه، مُفْتَقِراً إلى الله تعالى في بُلُوغِ تَحْقِيقِه، بعد أَنْ تَصَفَّحْتُ كُتُبَ الحُذَّاقِ فيه، وتَتَبَّعْتُ حِكَاياتِ المُتَحَقِّقِينَ له، بعد العِشْرَةِ لهم، والسُّؤالِ عنهم.

وَسَمَّيْتُهُ بكتاب «التَّعَرُّف لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّف» إخْبَاراً عن الغَرَضِ بما فيه.

وبالله أَسْتَعِينُ وعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ، وعلى نبيه أُصَلِّي، وبه أَتَوَسَّلُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله العَلِيِّ العظيم.

---

(١) في لسان العرب: النِّحْلة: الدين والتديّن، والنِّحلة: العطاء من غير عوض، والنحلة. الفريضة، والنحلة: الدعوى. والمعنى الأول هو المقصود هنا.

(٢) الخَرْص: الكذب، والخرّاص الكذّاب وفي التنزيل العزيز: ﴿قُتِلَ الخرّاصون﴾ سورة الذاريات، الآية: ١٠.

الباب الأول

قَوْلُهُمْ في الصُّوفِيَّةِ ولِمَ سُمِّيَت الصُّوفِيَّةُ صُوفِيَّةً(١)

قالت طائِفَةٌ: «إِنَّما سُمِّيَتِ الصُّوفِيَّةُ صُوفِيَّةً لِصَفَاءِ أَسْرَارِهَا، ونَقَاءِ آثارِها».

---

(١) قال الإمام السهروردي: روي عن سفيان أنه قال: «لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء» وهذا يدلُّ على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً. وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية، لأن في زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب الرسول ﷺ يسمون الرجل صحابياً لشرف صحبته رسول الله، وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة؛ وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سمي تابعياً، ثم لما تقادم زمان الرسالة وبَعُدَ عهد النبوة وانقطع الوحي السماوي وتوارى النور المصطفوي واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء وتفرَّد كل ذي رأي برأيه وكدَّر شربِ العلوم شوب الأهوية وتزعزعت أبنية المتقين واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكثف حجابها وكثرت العادات وتملكت أربابها وتزخرفت الدنيا وكثر خُطَّابها وتفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سَنِيَّة وصدق في العزيمة وقوة في الدين وزهدوا في الدنيا ومحبتها واغتنموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصُّفَّة تاركين للأسباب متبتلين إلى ربِّ الأرباب فأثمر لهم صالح الأعمال سَنِيَّ الأحوال وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم وصار لهم بعد اللسان لسان وبعد العرفان عرفان وبعد الإيمان إيمان كما قال حارثة: «أصبحتُ مؤمناً حقّاً» حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما يتعاهدها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها وإشارات يتعاهدونها، فحرَّروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معانٍ يعرفونها وتُعَرِّبُ عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسماً مستمراً وخبراً مستقرّاً في كل عصر وزمان، فظهر هذا الاسم بينهم وتسمَّوا به وسمّوا به. (انظر عوارف المعارف للسهروردي ـ ص ٨٥ ـ طبعة ملحقة بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ـ المجلد الخامس ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦)

وقال بِشْرُ بنُ الحارِث[1]: «الصُّوفيُّ مَنْ صَفَا قَلْبُهُ لله».

وقَالَ بَعْضُهُمْ: «الصُّوفيُّ مَنْ صَفَتْ لله مُعامَلَتُهُ، فَصَفَتْ له مِنَ الله عَزَّ وجلَّ كَرَامَتُهُ».

وقَالَ قَوْمٌ: «إنما سُمُّوا صُوفِيَّةً لأَنَّهُمْ في الصَّفِّ الأَوَّلِ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ جَلَّ وَعزَّ بارْتِفَاعِ هِمَمِهِمْ إليه، وإقْبالِهِمْ عَلَيْهِ، ووُقُوفِهِمْ بسَرَائِرِهمْ بَيْنَ يَدَيْهِ».

وقَالَ قَوْمٌ: «إنما سُمُّوا صُوفِيَّةً لقُرْبِ أَوْصَافِهِمْ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الصُّفَّةِ[2] الذينَ كَانُوا على عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ».

وقَالَ قَوْمٌ: «إنما سُمُّوا صُوفِيَّةً لِلُبْسِهِمُ الصُّوفَ»[3].

---

(١) بشر بن الحارث الحافي: يكنى أبا نصر. ولد في بغداد سنة خمسين ومائة (١٥٠ هـ) رحل بشر رضي الله عنه في طلب العلم إلى مكة والكوفة والبصرة، وسمع من خلق كثير، غير أنه لم يتصدَّ للرواية فلم يضبط عنه من الحديث إلا اليسير، وتوفي عشية الأربعاء لعشر بقين من ربيع الأول، وقيل لعشر خلون من المحرم، سنة سبع وعشرين ومائتين (٢٢٧ هـ) وقد بلغ من العمر خمساً وسبعين سنة، وقيل سبعاً وسبعين (انظر صفة الصفوة لأبي الفرج ابن الجوزي، ج ٢ ص ٢١٤ ـ ٢٢١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩. والطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٧ ص ٢٤٦؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠. والطبقات الكبرى للشعراني: ج ١ ص ٧٢، طبعة المكتبة الشعبية. وحلية الأولياء: ج ٨ ص ٣٣٦ ـ ٣٦٠، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨).

(٢) قال السهروردي في عوارف المعارف (ص ٨٤): هذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكنه صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفي الله كأصحاب الصُّفَّة، وكانوا نحواً من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والربط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم ويحث الناس على مؤاساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم.

(٣) هذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال «تصوّف» إذا لبس الصوف، كما يقال «تقمّص» إذا لبس القميص. أشار إلى ذلك الإمام السهروردي في عوارف المعارف (ص ٨٣) وأضاف: ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم في الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، لا يقيدهم وصف ولا يحبسهم نعت، وأبواب المزيد عليهم وحالاً عليهم مفتوحة، وبواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم، فلما تعذر تَقَيُّدُهم بحال تَقَيَّدَهم لتنوّع وجدانهم وتجنس مزيدهم نُسبوا إلى ظاهر اللبسة، وكان =

وأمَّا منْ نَسَبَهُمْ إلى الصُّفَّة والصُّوفِ فإنه عَبَّرَ عَنْ ظَاهِرِ أحْوالهم، وذَلكَ أنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ تَركُوا الدُّنْيَا، فَخَرَجُوا عَنِ الأوْطَانِ، وَهَجَرُوا الأَخْدانَ[1]، وَساحُوا في البِلادِ، وأَجَاعُوا الأكْبَادَ، وأَعْرَوُا الأجْسَادَ، لم يَأْخُذُوا مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ مَا لا يَجُوزُ تَرْكُهُ، مِنْ سَتْرِ عَوْرَةٍ وسَدِّ جَوْعَةٍ.

فَلِخُرُوجِهِمْ عَنِ الأوْطَانِ سُمُّوا غُرَبَاءَ، وَلِكَثْرَةِ أَسْفَارِهِمْ سُمُّوا سَيَّاحِينَ.

ومِنْ سِيَاحَتِهِمْ في البَرَارِي وإيوائِهِمْ إلى الكُهُوفِ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ سَمَّاهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الدِّيَارِ[2] «شَكْفَتِيَّة» والشَّكْفَتُ بلُغَتِهِمْ: الغَارُ والكَهْفُ.

وأَهْلُ الشَّامِ سَمَّوهم «جُوعيَّة» لأنهم إنما يَنَالُونَ مِنَ الطَّعامِ قَدْرَ مَا يُقيمُ الصُّلْبَ

= ذلك أبين في الإشارة إليهم وأدعى إلى حصر وصفهم؛ لأن لبس الصوف كان غالباً على المتقدمين من سلفهم، وأيضاً لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره. ولما كان الاعتزاء إلى القرب - وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يعزّ كشفه والإشارة إليه - وقعت الإشارة إلى زيّهم ستراً لحالهم وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة، فكان هذا أقرب إلى الأدب، والأدب في الظاهر والباطن والقول والفعل عماد أهل الصوفية؛ وفيه معنى آخر: وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن تقللهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم، حتى إن المبتدئ المريد الذي يؤثر طريقهم ويحب الدخول في أمرهم يوطّن نفسه على التقشف والتقلل، ويعلم أن المأكول أيضاً من جنس الملبوس، فيدخل في طريقهم على بصيرة وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدئ. والإشارة إلى شيء من حالهم في تسميتهم بهذا أنفع وأولى؛ وأيضاً غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم. وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى. فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع. ويقرب أن يقال: لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفي والتواري، كانوا كالخرقة الملقاة والصدفة المرمية التي لا يُرغب فيها ولا يُلتفت إليها، فيقال «صوفي» نسبة إلى الصوفة، كما يقال «كوفي» نسبة إلى الكوفة؛ وهذا ما ذكره بعض أهل العلم، والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق. ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهّاد والمتقشفين والعُبّاد.

(١) الأخدان والخدناء جمع خِدْن وخَدين، وهو الصديق والصاحب المحدِّث الذي يخادنك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن (لسان العرب: مادة خدن).

(٢) يريد أهل خراسان، فقد قال السهروردي في عوارف المعارف (ص ٨٥). كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن، ويسمونهم في خراسان شكفتية

لِلضَّرُورَةِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ أُكَلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ»[1].

وقال السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ[2] وَوَصَفَهُمْ فقال: «أَكْلُهُمْ أَكْلُ المَرْضَى، ونَوْمُهُمْ نَوْمُ الغَرْقَى، وكَلامُهُمْ كَلامُ الخَرْقَى»[3].

ومِنْ تَخَلِّيهم عَنِ الأَمْلاكِ سُمُّوا فُقَرَاءَ.

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: من الصُّوفِيُّ؟ قال: «الَّذي لا يَمْلِكُ ولا يُمْلَكُ»؛ يَعْني: لاَ يَسْتَرِقُّهُ الطَّمَعُ.

وقَالَ آخرُ: «هو الّذي لا يَمْلِكُ شيْئاً، وإنْ مَلَكَهُ بَذَلَهُ».

ومِنْ لِبْسِهِمْ وزِيِّهِمْ سُمُّوا صُوفِيَّةً، لأَنَّهُم لم يَلْبَسُوا لحُظُوظِ النَّفْسِ ما لاَنَ مَسُّهُ وحَسُنَ مَنْظَرُهُ، وإنما لَبِسُوا لِسَتْرِ الْعَوْرَةِ، فَتَجَزُّوا[4] بالخَشِنِ مِنَ الشَّعَرِ، والغَلِيظِ مِنَ الصُّوفِ.

ثم هذه كلُّها أحوالُ أَهْلِ الصُّفَّةِ الذين كانُوا على عَهْدِ رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا غرباءَ فقراءَ مُهاجرين، أُخْرِجوا من ديارهم وأموالهم. ووصَفَهم أبو هريرة[5]

---

(١) من حديث المقدام بن معديكرب الكندي، وتمامه: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه». أخرجه الترمذي في صحيحه (كتاب الزهد، باب ٤٧) واللفظ له، والإمام أحمد في مسنده: ج ٤ ص١٣٢.

(٢) هو أبو الحسن السَّرِيّ بن المغلس السقطي، خال أبي القاسم الجُنيد وأستاذه. توفي يوم الثلاثاء لستّ خلونَ من رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين، وقيل: سنة إحدى وخمسين ومائتين(صفة الصفوة: ج ٢ص ٢٤٢ ـ ٥١٢، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٧٤، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ١١٦ ـ ١٢٧).

(٣) الخرقى جمع أَخْرَق، وهو الجاهل الأحمق. وقد وصف كلامهم بأنهم ككلام الخرقى لأنه يَعْمى على مستمعيه فلا يفهمونه فيظنونه بلا معنى أو مغزى ككلام الحمقى.

(٤) كذا بالأصل، ولعل الصواب «فتجزّأوا» ففي لسان العرب (مادة جزأ): جَزَأَ بالشيء وتجزّأ: قنع واكتفى به.

(٥) صحابي جليل، كان اسمه عبد شمس فسمي في الإسلام عبد الله، وقيل: اسمه عبد نهم، وقيل: عبد غنم، وقيل: سُكَين، وقال الكلبي: اسمه عمير بن عامر الدوسي. قدم أبو هريرة سنة سبع والنبي ﷺ بخيبر، فسار إلى خيبر حتى قدم مع النبي ﷺ إلى المدينة، وصحبه أربع سنين. وتوفي سنة تسع وخمسين في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان له يوم توفي ثمان وسبعون سنة. (انظر الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٤ ص ٢٤٢ ـ ٢٥٤).

وفَضَالة بن عُبَيْد[1] فقالا: «يَخِرُّونَ مِنَ الجُوعِ حَتَّى تَحْسَبَهُمُ الأعْرَابُ مجَانِينَ. وكانَ لِبَاسُهُمُ الصُّوفَ، حَتَّى إنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَعْرَقُ فيه فيُوجَدُ مِنْهُ رَائِحَةُ الضَّأْنِ إذا أَصَابَهُ المَطَرُ».

هذا وَصْفُ بعضهم لهم، حتى قال عُيينة بنُ حِصْنٍ[2] للنبي ﷺ: «إنَّه لَيُؤذِيني رِيحُ هؤلاء أمَا يؤذِيكَ رِيحُهُمْ؟».

ثم الصوفُ لباسُ الأنبياء، وزِيُّ الأولياء.

وقال أبو موسى الأشْعَرِيُّ[3] عن النبي ﷺ: «إنه مَرَّ بالصَّخْرَةِ مِنَ الرَّوْحَاءِ[4] سَبْعُونَ نَبِيّاً حُفَاةً عَلَيْهِمُ العَبَاءُ يَؤُمُّونَ البَيْتَ العَتِيقَ»[5].

---

(١) فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري. شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى الشام فنزل دمشق وبنى بها داراً، وكان قاضياً بها في زمن معاوية بن أبي سفيان. مات بدمشق في خلافة معاوية بن أبي سفيان (المرجع السابق: ج ٧ ص ٢٨١، وحلية الأولياء: ج ٢ ص ١٧).

(٢) عيينة بن حصن، أو ابن حُصَين كما ذكره في تهذيب الأسماء واللغات، ويقال أيضاً عيينة بن بدر نُسب إلى جدّ جده. أسلم بعد الفتح، وقيل قبله، وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة والأعراب الجفاة. ارتدّ وتبع طليحة الأسدي وقاتل معه فأسرته الصحابة وحملوه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأسلم فأطلقه. (انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ج ٢ ص ٤٨ ـ نسخة مصورة في دار الكتب العلمية، بيروت)

(٣) اسمه عبد الله بن قيس قال ابن سعد: أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة، وأول مشاهده خيبر. ولّاه عمر بن الخطاب البصرة ثم عزله عنها فنزل الكوفة وابتنى بها داراً وله بها عقب. واستعمله عثمان بن عفان على الكوفة فقُتل عثمان وأبو موسى عليها، ثم قدم عليٌّ الكوفة فلم يزل أبو موسى معه، وهو أحد الحكمين. ومات بالكوفة سنة اثنتين وأربعين. وقال أبو بكر بن عبد الله بن أبي جهم: ليس أبو موسى من مهاجرة الحبشة، ومات سنة اثنتين وخمسين (انظر الطبقات الكبرى: ج ٦ ص ٩٤ و ٩٥).

(٤) في معجم البلدان: هي من عمل الفُرْع على نحو من أربعين يوماً، وفي كتاب مسلم بن الحجاج: على ستة وثلاثين يوماً، وفي كتاب ابن أبي شيبة: على ثلاثين يوماً (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي: ج ٣ ص ٨٧ ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠). وفي صحيح مسلم (كتاب الصلاة، حديث ١٥) عن جابر قال: سمعت النبي يقول: «إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون مكان الروحاء» قال سليمان فسألته عن الروحاء فقال: هي من المدينة ستة وثلاثون ميلاً.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٣ ص ٢٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري ومن حديث أنس بن مالك. وفي الحديثين زيادة «منهم نبي الله موسى».

وقال الحسنُ البصريّ(١) : «كان عيسى عليه السلام يَلْبِسُ الشَّعَرَ، ويَأكُلُ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَيَبيتُ حيثُ أَمْسَى».

وقال أبو موسى: «كان النبيُّ ﷺ يَلْبسُ الصُّوفَ، ويَرْكَبُ الحِمَارَ، ويأتي مَدْعَاةَ(٢) الضَّعِيفِ»(٣).

وقال الحسن البصري: «لقَد أَدْرَكْتُ سبعينَ بَدْرِيّاً ما كانَ لِبَاسُهُمْ إلاّ الصُّوف».

فلما كانت هذه الطائفةُ بِصِفَةِ أهلِ الصُّفَّة فيما ذكرْنا، ولبسهم وزيّهم زيّ أهلها، سُمُّوا صُفِّيَّةً وصوفية.

ومن نسبهم إلى الصُّفَة والصَّفّ الأوّل فإنه عَبَّر عن أسرارهم وبواطنهم، وذلك أنّ من تركَ الدنيا وزَهِدَ فيها وأعْرَضَ عنها، صَفَّى الله سِرَّهُ، ونوَّر قَلْبَهُ.

قال النبيّ ﷺ: «إذا دَخَلَ النُّورُ في القَلْبِ انْشَرَحَ وانْفَسَحَ»، قيل: وما علامةُ ذلك يا رسول الله؟ قال: «التَّجَافي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والإنَابَةُ إلى دَارِ الخُلُودِ، والاسْتِعْدَادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»(٤).

فأخبر النبيّ ﷺ أن من تجافَى عن الدنيا نَوَّرَ الله قلبه.

وقال حارثة حين سأله النبي ﷺ: «مَا حَقِيقَةُ إيمانِكَ؟» قال: عَزَفْتُ بنفسي عن

---

(١) الحسن بن أبي الحسن البصري، يكنى أبا سعيد. واسم أبي الحسن يسار، يقال إنه من سبي ميسان وقع إلى المدينة فاشترته الربيِّع بنت النضر عمة أنس بن مالك فأعتقته. ولد الحسن في خلافة عمر وحنّكه عمر بيده، وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ﷺ فربما غابت فتعطيه أم سلمة ثديها تعلّله به إلى أن تجيء أمه فيدرّ عليه ثديها فيشربه، فكانوا يقولون: فصاحته من بركة ذلك. توفي الحسن في سنة عشر ومائة (انظر طبقات ابن سعد: ج ٧ ص ١١٤ ـ ١٣٢، وطبقات الشعراني: ج ١ص ٢٩، وصفة الصفوة: ج ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٧، وحلية الأولياء: ج ٢ ص ١٣١ ـ ١٦١).

(٢) المَدْعاة والمِدْعاة: ما دعوتَ إليه من طعام وشراب (لسان العرب: مادة دعا).

(٣) وردت عدة أحاديث في لبس النبي ﷺ الصوف وركوبه الحمار وإجابته الدعوة.

(٤) أخرجه الغزالي في إحياء علوم الدين، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: إن صدر هذا الحديث رواه الحاكم في المستدرك. وأخرج الحديث الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، والسيوطي في الدر المنثور، وابن كثير في تفسيره، والقرطبي في تفسيره.

الدنيا، فأظمأْتُ نهاري، وأسْهرتُ ليْلي، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادَوْن.

فأخبر أنه لما عَزَفَ عن الدنيا نَوَّرَ الله قلبَهُ، فكان ما غاب عنه بمنزلة ما يشاهده. وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلى عَبْدٍ نَوَّرَ ٱللَّهُ قَلْبَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلى حَارِثَةَ»[1] فأخبر أنه منوَّر القلب.

وسُميت هذه الطائفة نُورِيَّة لهذه الأوصاف.

وهذا أيضاً من أوصاف أهل الصُّفَّة، قال اللّه تعالى: ﴿فيه رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا والله يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

والتطهّر بالظواهر عن الأنجاس، وبالبواطن عن الأهجاس[2].

وقال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله﴾ [النور: ٣٧]. ثم لصفاء أسرارهم تَصْدُقُ فراسَتُهُمْ[3].

قال أبو أُمامة الباهليُّ[4] رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «اتَّقُوا فَرَاسَةَ المؤْمِنِ فإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله»[5].

---

(١) الحديث أخرجه الغزالي في الإحياء، ولفظه: لما قال حارثة لرسول الله ﷺ أنا مؤمن حقاً، قال: «وما حقيقة إيمانك؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزاً، فقال: ﷺ «عرفت فالزم! عبد نُور الله قلبه بالإيمان». (انظر إحياء علوم الدين للغزالي: ج ٤ ص ٢٣٤، باب بيان فضيلة الزهد ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦) وقال الحافظ العراقي في تخرج أحاديث الإحياء: الحديث أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف.

(٢) الهَجْس: ما وقع في خَلَدِك، والهاجس: الخاطر.

(٣) الفراسة في اللغة: التثبت والنظر. وفي اصطلاح أهل الحقيقة: هي مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب (انظر التعريفات للجرجاني: ص ١٦٦).

(٤) أبو أمامة الباهلي واسمه الصُّدَيّ بن عجلان. من كبار الصحابة. توفي بالشام سنة ست وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان وهو ابن إحدى وستين سنة (طبقات ابن سعد: ج ٧ ص ٢٨٨، ٢٨٩. وصفة الصفوة: ج ١ ص ٣٧٢ و٣٧٣).

(٥) هذا الحديث رواه الترمذي في السنن، وأبو حنيفة في مسنده، وأبو نعيم في حلية الأولياء، والطبراني في =

وقال أبو بكر الصدّيق[1] رضي الله عنه: «أُلْقِي في رُوعِي[2] أن ذا بَطْن بنت خارجة»، فكان كما قال.

وقال النبيّ ﷺ: «إنَّ الحَقَّ لَيَنْطُقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»[3].

وقال أويس القَرَني[4] لهرم بن حيان[5] حين سلم عليه: «وعليكَ السلامُ يا هَرِمَ

= المعجم الكبير، وابن كثير في تفسيره، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين، وابن حجر في فتح الباري، والمتقي الهندي في كنز العمال، وابن حجر في لسان الميزان، والشوكاني في الفوائد المجموعة، وابن عراق في تنزيه الشريعة، والبخاري في التاريخ، والعجلوني في كشف الخفاء، والسيوطي في تفسير الدر المنثور، والعقيلي في الضعفاء.

(١) اسمه عبد الله بن أبي قحافة، واسم أبي قحافة عثمان، توفي أبو بكر رضي الله عنه مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة.

(٢) الروع (بضم الراء): القلب والعقل، ووقع ذلك في رُوعي: أي نفسي وخَلَدي وبالي (انظر اللسان: مادة روع).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وفي سنن الترمذي (كتاب المناقب، باب ١٨) من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» قال الترمذي: وفي الباب عن الفضل بن العباس وأبي ذر وأبي هريرة. وأخرجه بلفظ الترمذي ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج٣ ص ٢٠٥) من حديث أيوب بن موسى. وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ «إن الحق ينزل على لسان عمر وقلبه».

(٤) اختلف في اسمه فقيل: أويس بن عامر بن جَزْء بن مالك، كما ذكره ابن سعد في الطبقات. وفي صفة الصفوة: أويس بن عامر بن جرير، وقال علقمة بن مرثد: أويس بن أنيس، وقيل: أويس بن الخليس. وهو من الطبقة الأولى من التابعين ومن كبار زهادهم؛ ويروى أن النبي ﷺ ذكره لأصحابه وأوصى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد اختلف في وقت موته، فروى ابن الجوزي في صفة الصفوة عن عبد الله بن سالم قال: غزونا أذربيجان في زمن عمر بن الخطاب ومعنا أويس القرني، فلما رجعنا مرض علينا فحملناه فلم يستمسك فمات. وروي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى منادٍ يوم صفين: أفي القوم أويس القرني؟ فوجد في قتلى عليّ عليه السلام. قال ابن الجوزي: هذا هو الصحيح. (انظر صفة الصفوة لابن الجوزي: ج ٣ ص ٣٥، وطبقات ابن سعد: ج ٦ ص ٢٠٤ - ٢٠٧، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٢٧، وحلية الأولياء: ج ٢ ص ٧٩ - ٨٧).

(٥) هرم بن حيّان العبدي من الطبقة الأولى من التابعين، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. روى عنه الحسن البصري؛ وقال: مات هرم بن حيان في يوم صائف شديد الحر، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة تسير حتى قامت على قبره فلم تكن أطول منه ولا أقصر، فرشّته حتى رويّته ثم انصرفت. (انظر صفة الصفوة: ج ٣ ص ١٤١ و ١٤٢، وطبقات ابن سعد: ج ٧ ص ٩٤ - ٩٦، وطبقات الشعراني: =

آبْن حَيَّانَ» ولم يكن رآه قبل ذلك؛ ثم قال له: «عرَفَ رُوحي رُوحَكَ».

وقال أبو عبد الله الأنطاكي[1]: «إذا جالسْتُمْ أَهْلَ الصِّدْقِ فجالِسُوهُمْ بالصِّدْقِ فإنهم جواسيسُ القلوبِ يَدْخُلُونَ في أسرارِكُمْ ويخرُجُونَ مِنْ هِمَمِكُمْ».

ثم من كان بهذه الصفة من صفوة سرِّه وطهارة قلبه ونور صدره فهو في الصف الأول، لأن هذه أوصاف السابقين.

قال النبي ﷺ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بغَيْرِ حِسَابٍ» ثم وصفهم وقال: «الَّذِينَ لا يَرْقُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ[2]، ولا يَكْوُونَ ولا يَكْتَوُونَ[3]، وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[4].

فلصفاء أسرارهم، وشَرْح صدورهم، وضياء قلوبهم: صَحَّتْ معارفُهم بالله، فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقةً بالله عز وجل، وتوكُّلًا عليه، ورِضاً بقضائه.

فقد اجتمعت هذه الأوصافُ كلُّها ومعاني هذه الأسماء كلُّها في أسامي القوم وألقابهم، وصحَّت هذه العبارات وقَرُبَتْ هذه المآخذ.

وإن كانت هذه الألفاظ متغايرة[5] في الظاهر، فإن المعاني متفقة؛ لأنها إن أُخذت من الصفاء والصفوة كانت صَفْوية.

وإن أُضيفت إلى الصَّفّ أو الصُّفَّة كانت صَفِّية أو صُفِّية، ويجوز أن يكون تقديم

= ج ١ ص ٢٩، وحلية الأولياء: ج ٢ ص ١١٩ - ١١٢).

(١) هو أحمد بن عاصم الأنطاكي، يكنى أبا عبد الله ويقال أبا علي. من متقدمي مشايخ الثغور، وكان يقال له جاسوس القلوب. توفي سنة ٣٦٧ هـ. (انظر صفة الصفوة: ج ٤ ص ٢٣١ - ٢٣٣) وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٣ وحلية الأولياء: ج ٩ ص ٢٨٠ - ٢٩٧).

(٢) الاسترقاء: طلب الرقية.

(٣) الاكتواء: استعمال الكي في البدن، وهو إحراق الجلد بحديدة محماة.

(٤) أخرجه من حديث عمران بن حصين: البخاري في صحيحه (كتاب الطب باب ١٧) ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، حديث ٣٧١ و ٣٧٢) والإمام أحمد في مسنده (ج ١ ص ٤٠١)؛ ومن حديث ابن عباس: البخاري (كتاب الطب باب ٤٢، وكتاب الرقاق باب ٢١، و ٥٠) ومسلم (كتاب الإيمان، حديث ٣٧٤)؛ ومن حديث ابن مسعود: الإمام أحمد في المسند (ج ١ ص ٤٠٣ و ٤٥٤).

(٥) في الأصل «متغيرة» ولعلّ الصواب ما أثبتناه.

الواو على الفاء في لفظ الصوفية وزيادتها في لفظ الصَّفية والصُّفية إنما كانت من تَداوُلِ الألسن.

وإن جُعل مأخذه من الصوف، استقام اللفظ، وصحّت العبارة من حيث اللغة.

وجميع المعاني كلها من التخلّي عن الدنيا وعُزوف النفس عنها، وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها، وصفاء المعاملات، وصفوة الأسرار، وانشراح الصدور، وصفة السُّبَّاق[1].

وقال بندار بن الحسين[2]: «الصُّوفيّ من آخْتارَهُ الحقُّ لنَفْسِهِ فَصَافَاهُ، وعَنْ نَفْسِه بَرّأهُ، ولم يُرِدْهُ إلى تَعَمُّلٍ وتَكَلُّفٍ بدَعْوَى. وصُوفيّ على زِنَةِ عُوفيّ، أي عَافاهُ اللَّهُ فعُوفي؛ وكُوفيّ، أي كَافَاهُ الله فكُوفيَ؛ وجُوزي، أي جازاه الله، ففِعْلُ الله بِهِ ظَاهِرٌ في اسْمِهِ والله المتفرِّدُ به»[3].

وقال أبو علي الروذباري[4] وسئل عن الصوفي فقال: «مَنْ لَبِسَ الصُّوفَ عَلَى الصَّفَاءِ، وأَطْعَمَ الهَوَى ذَوْقَ الجَفَاءِ، وكانَتِ الدُّنْيَا مِنْهُ عَلَى القَفَا، وسَلَكَ مِنْهَاجَ

---

(١) قوله: «وجميع المعاني...» إلى قوله: «...... وصفة السباق» هو تعليق على الأقوال السابقة والأقوال اللاحقة، فكان من الأنسب لو جعلها بعد سرده لمختلف الأقوال في اشتقاق الصوفي.

(٢) كذا أيضاً في طبقات الشعراني، وفي حلية الأولياء: أبو الحسين بندار بن الحسن. قال أبو نعيم: كان يعلم الأصول مهذباً، وفي الحقائق مقرباً. كان له القلب العقول واللسان السؤول. وكان للمخلصين عضداً وللمريدين مسدداً. توفي سنة ٣٥٣ هـ، وهو شيرازي المولد سكن أرجان (انظر حلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٨٤، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ١٢١).

(٣) هذا الكلام قاله بندار عندما سئل عن الفرق بين المتصوفة والمتقرئة، وأضاف في وصف المتقرئ قال: «وأما المتقرئ فهو المتكلف بنفسه والمظهر لزهده مع كمون رغبته وترئية بشريته، واسمه مضمر في فعله لرؤيته نفسه ودعواه». وسئل أيضاً عن الفرق بين التقري والتصوف، فقال: «القارئ هو الحافظ لربه من صفات أوامره والصوفي الناظر إلى الحقّ فيما حفظ عليه من حاله» (انظر المرجع السابق: ج ١٠ ص ٣٨٥).

(٤) قال أبو نعيم: اسمه أحمد بن محمد بن مقسم. وفي صفة الصفوة: اسمه أحمد بن القاسم، هكذا ذكره السلمي وصححه، وقال أبو بكر الخطيب: اسمه محمد بن أحمد، وصحح ذلك. بغدادي انتقل إلى مصر وتوفي بها سنة ٣٢٢ وقيل سنة ٣٢٣ صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء والمسوحي وغيرهم، وأسند الحديث (انظر حلية الأولياء ح ١٠ ص ٣٥٦، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٩٣، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ١٠٦).

المُصْطَفَى».

وسئل سَهْلُ بن عبد الله التُّسْتُري[1]: من الصوفي؟ فقال: «مَنْ صَفَا مِنَ الكَدَرِ، وامتَلأَ مِنَ الفِكَرِ، وانْقَطَعَ إلى الله مِنَ البَشَرِ، واسْتَوَى عِنْدَهُ الذَّهَبُ والمَدَرُ[2]»[3].

وسئل أبو الحسن النوريّ[4]: ما التصوفُ؟ فقال: «تَرْكُ كُلِّ حَظٍّ للنَّفْسِ».

وسئل الجُنَيْدُ[5] عن التصوف، فقال: «تَصْفِيَةُ القَلْبِ عَنْ مُوافَقَةِ البَرِيَّةِ، ومُفَارَقَةُ الأَخْلاقِ الطَّبيعيَّةِ، وإِخْمَادُ الصِّفَاتِ البَشَرِيَّةِ، ومُجَانَبَةُ الدَّواعي النَّفْسَانِيَّةِ، ومُنَازَلَةُ الصِّفَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ، والتَّعَلُّقُ بالعُلُومِ الحَقِيقِيَّةِ، واسْتِعْمَالُ ما هُوَ أَوْلَى عَلَى الأَبَدِيَّةِ،

---

(١) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرِّياضات وعيوب الأفعال. تخرّج عن خاله محمد بن سوار ولقي أبا الفيض ذا النون المصري بالحرم. توفي سنة ٢٨٣، وقيل سنة ٢٧٣ (انظر حلية الأولياء: ج ١٠ ص ١٨٩ - ٢١٢، وصفة الصفوة: ج ٤ ص ٥٨، ٥٩، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٧٧. وانظر أيضاً ما قاله السلمي في الطبقات ـ عن حاشية صفة الصفوة).

(٢) المدر: قطع الطين اليابس، وقيل: الطين العلك الذي لا رمل فيه (انظر لسان العرب مادة مدر).

(٣) ينسب مثل هذا الكلام إلى أبي بكر الشبلي، سئل: من الصوفي؟ قال: «من صفا من الكدر وخلص من العكر وامتلأ من الفكر وتساوى عنده الذهب والمدر» (انظر حلية الأولياء: ج ١ ص ٢٣).

(٤) كذا ورد هنا، وصوابه «أبو الحسين النوري» وقد ذكره في الباب الثالث على الصواب «أبو الحسين». واسمه أحمد بن محمد بغدادي المولد والمنشأ خراساني الأصل من قرية بين هراة ومرو الروذ يقال لها بغشور ولذلك كان يعرف بابن البغوي. لقي أحمد بن أبي الحواري وصحب سرياً السقطي، وتوفي سنة ٢٩٥. (حلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٤٩، وصفة الصفوة ج ٢ ص ٢٨٣) وطبقات الشعراني ج ١ ص ٨٧).

(٥) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم الخزاز القواريري كان أبوه يبيع الزجاج وكان هو خزازاً، وأصله من نهاوند إلا أن مولده ومنشأه ببغداد. لقي خلقاً من العلماء، وكان في أول أمره يتفقه على مذهب أصحاب الحديث مثل أبي عبيد وأبي ثور، فأحكم الأصول. وصحب خاله السريّ السقطي والحارث بن أسد المحاسبي، فسلك مسلكهما في التحقيق بالعلم واستعماله. توفي الجنيد يوم السبت في شوال سنة ٢٩٨، وقيل سنة ٢٩٧، وغسله أبو محمد الحريري وصلى عليه ولده، وحزروا الجمع الذي صلى عليه فكانوا نحو ستين ألفاً. (حلية الأولياء. ج ١٠ ص ٢٥٥، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٧٠، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٤).

والنُّصْحُ لجميع الأمة، والوَفَاءُ لله على الحَقِيقَة، واتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ في الشَّرِيعَة»[1].

وقال يوسف بن الحسين[2]: «لكُلِّ أُمَّةٍ صَفْوَةٌ، وهم وَدِيعَةُ الله الَّذِين أَخْفَاهُمْ عَنْ خَلْقِهِ، فإنْ يَكُنْ مِنْهُمْ في هَذِهِ الأُمَّةِ، فهُمُ الصُّوفِيَّةُ».

قال رجل لسهل بن عبد الله التستري: مَنْ أَصْحَبُ من طوائف الناس؟

فقال: «عليك بالصُّوفِيَّة، فإنهم لا يَسْتَكْثِرُونَ، ولا يَسْتَنْكِرُونَ شَيْئاً، ولكُلِّ فِعْلٍ عندهم تأْوِيلٌ[3]، فهم يعذرونك على كلِّ حال».

وقال يوسف بن الحسين: سألت ذا النون من أصحبُ؟ فقال: «مَنْ لا يَمْلِكُ ولا يُنْكِرُ عليك حالاً مِنْ أحْوالك، ولا يَتَغَيَّرُ بتَغَيُّرِكَ وإنْ كَانَ عظيماً، فإنَّكَ أَحْوَجُ ما تكونُ إليه أَشَدُّ ما كُنْتَ تَغَيُّراً»[4].

وقال ذو النون[5]: رأيتُ امرأةً ببعْضِ سَواحِلِ الشَّامِ، فقلت لها: مِنْ أينَ

---

(١) هذه الصفات التي ذكرها الجنيد هي من صميم الدين. ونشير هنا إلى أن الجنيد لم يشطح كما شطح غيره من المتصوفة، فبقي في حدود القرآن والسنّة ولم يدَّعِ الكرامات والرؤية واللقاء وغيرها من الأمور التي ادّعاها البعض. ويؤكد ما قلنا أقوال الجنيد، فمنها قوله: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه». وقيل له: هل عاينت أو شاهدت؟ فقال: «لو عاينت تزندقت ولو شاهدت تحيرت، ولكن حيرة في تيه وتيه في حيرة». وذكر رجل المعرفة فقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البرّ والتقرب إلى الله، فقال الجنيد: «إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يزني ويسرق أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرّ ذرة إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوكد في معرفتي وأقوى في حالي». (انظر حلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٥٧ و ٢٧٤ و ٢٧٨).

(٢) أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي. صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي وأبا سعيد الخراز، وسمع من أحمد بن حنبل. وتوفي سنة ٣٠٤ (حلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٣٨، وصفة الصفوة: ج ٤ ص ٩٤، وطبقات الشعراني ج ١ ص ٩٠).

(٣) قوله «ولكل فعل عندهم تأويل» بيان لقوله «لايستنكرون شيئاً».

(٤) وسئل ذو النون عن الصوفي فقال: «من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق» (حلية الأولياء: ج ١ ص ٢٢).

(٥) هو أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري. أصله من النوبة، وكان من قرية من قرى صعيد مصر يقال:

أَقْبَلْتِ رَحِمَكِ الله؟ قالت: مِنْ عند قوم ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهم خَوْفاً وطَمَعاً﴾[1]، قلت: وأَيْنَ تُرِيدين؟ قالت: إلى ﴿رجال لا تلهيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2]. قلتُ: صِفِيهُمْ لي! فأنشأت تقول:

قَوْمٌ هُمُومُهمُ باللَّهِ قَدْ عَلِقَتْ ... فَمَا لَهُمْ هِمَمٌ تَسْمُو إلى أَحَدِ
فَمَطْلَبُ القَوْمِ مَوْلاهمُ وَسَيِّدُهُمْ ... يَا حُسْنَ مَطْلَبِهِم لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ
مَا إن تَنَازَعُهُمْ دُنْيَاً وَلا شَرَفٌ ... مِنَ المَطَاعِمِ وَاللَّذَّاتِ وَالوَلَدِ
وَلا لِلُبْسِ ثِيَابٍ فَائِقٍ أَنِقٍ ... وَلا لِرَوْحِ سُرُورٍ حَلَّ فِي بَلَدِ
إلا مُسَارَعَةً فِي إِثْرِ مَنْزِلَةٍ ... قَد قَارَبَ الخَطْوَ فِيها بَاعِدُ الأَبَدِ
فَهُمْ رَهَائِنُ غُدْرَانٍ وَأَوْدِيَةٍ ... وَفِي الشَّوامِخِ تَلْقَاهُمْ مَعَ العَدَدِ

الباب الثاني

في رِجَالِ الصُّوفية

ممن نَطَقَ بعلومهم وعَبَّرَ عن مَوَاجِيدِهم ونَشَرَ مَقَامَاتِهم وَوَصَفَ أَحْوَالَهُم قولاً وَفعلاً بعد الصحابة رِضوان الله عليهم

عليّ بن الحسين زين العابدين[3]، وابنه محمد بن علي الباقر[4]، وابنه جعفر

= لها إخميم، نزل مصر. ويقال اسمه الفيض، ويقال ثوبان، وذو النون لقب. أسند أحاديث كثيرة عن مالك والليث بن سعد وسفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وابن لهيعة وغيرهم وتوفي بالجيزة وحمل في مركب إلى الفسطاط خوفاً عليه من زحمة الناس على الجسر، ودفن في مقابر أهل المعافر، وذلك في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة من سنة ٢٤٦. هكذا ذكر وفاته ابن الجوزي، وذكر ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب أنه توفي سنة ٢٤٥. (انظر ترجمة ذي النون في صفة الصفوة: ج ٤ ص ٢٦١ ـ ٢٦٥، وفي حلية الأولياء: ج ٩ ص ٣٣١ ـ ٣٩٥، وج ١٠ ص ٣، ٤، وفي طبقات الشعراني: ج ١ ص ٧٠.

(١) ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ الآية ١٦ من سورة السجدة.

(٢) ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾ الآية ٣٧ من سورة النور.

(٣) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمه أم ولد اسمها غزالة. وهو علي الأصغر ابن الحسين، =

ابن محمد الصادق[١] رضي الله عنهم، بعد علي[٢]، والحسن[٣]، والحسين[٤] رضي الله عنهم، وأُوَيْس القَرَني[٥] وهرم بن حيّان[٦]، والحسن بن أبي الحسن البصري[٧] وأبو حازم سلمة بن دينار المديني[٨]، ومالك بن دينار[٩]، وعبد الواحد بن زيد[١٠]،

= وأما علي الأكبر ابن الحسين فقتل مع أبيه بكربلاء وليس له عقب. كان إماماً عابداً زاهداً ورعاً شديد الخوف من الله تعالى، وكان لا يترك قيام الليل في سفر ولا حضر. توفي بالمدينة سنة ٩٤، وقيل سنة ٩٢، ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان وخمسين سنة (انظر طبقات ابن سعد: ج ٥ ص ١٦٢ - ١٧٢، وحلية الأولياء: ج ٣ ص ١٣٣ - ١٤٥، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ٦٦ - ٧٢، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٣١).

(٤) أمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب. سمي الباقر لأنه بقر العلم أي شقّه فعرف حقيقته. توفي سنة ١١٧، وقيل سنة ١١٨، وقيل سنة ١١٤، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وقيل ثمان وخمسين، وأوصى أن يكفن في قميصه الذي كان يصلي فيه. (انظر طبقات ابن سعد: ج ٥ ص ٢٤٦ - ٢٤٩ وحلية الأولياء: ج ٣ ص ١٨٠ - ١٩٢، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ٧٧ - ٨٠ وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٣٢).

(١) يكنى أبا عبد الله، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق؛ قال أبو نعيم الأصفهاني: الإمام الناطق ذو الزمام السابق، أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، أقبل على العبادة والخضوع، وآثر العزلة والخشوع، ونهى عن الرئاسة والجموع. توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة ١٤٨. (انظر حلية الأولياء: ج٣ ص ١٩٢ - ٢٠٦، وصفة الصفوة: ج٢ ص ١١٤ - ١١٧، وطبقات الشعراني: ج١ ص ٣٢)

(٢) قُتل رضي الله عنه سنة ٤٠ للهجرة.

(٣) ولد رضي الله عنه سنة ثلاث من الهجرة، وتوفي سنة ٥٠، وقيل سنة ٤٩. ودفن بالبقيع.

(٤) ولد رضي الله عنه سنة أربع من الهجرة، وقتل يوم عاشوراء في محرم سنة ٦١.

(٥) انظر ترجمته صفحة ١٦ حاشية (٤).

(٦) انظر ترجمته صفحة ١٦ حاشية (٥).

(٧) انظر ترجمته صفحة ١٤ حاشية (١).

(٨) من كبار التابعين، كان عابداً زاهداً، وكان يقصّ بعد الفجر وبعد العصر في مسجد المدينة. أسند عن ابن عمر وسهل بن سعد وأنس بن مالك، وقيل إنه رأى أبا هريرة. توفي في خلافة أبي جعفر المنصور بعد سنة ١٤٠. انظر طبقات ابن سعد: ج ٥ ص ٤٢١، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ١٠٧ - ١١٣، وحلية الأولياء. ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٥٩).

(٩) يكنى أبا يحيى، مولى لامرأة من بني سامة بن لؤي. وكان ثقة قليل الحديث، وكان يكتب المصاحف. أسند عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين. وتوفي قبل الطاعون بيسير، وكان الطاعون سنة ١٣١. (انظر طبقات ابن سعد: ج ٧ ص ١٨٠، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٣٧، وصفة الصفوة ج ٣ ص ١٨٤ - ١٩٤، وحلية الأولياء: ج ٢ ص ٣٥٧ - ٣٨٨). =

وعتبة الغلام[1]، وإبراهيم بن أدهم[2]، والفُضَيْل بن عِياض[3]، وابنه عليّ بن الفُضَيل[4]، وداودُ الطائي[5]، وسفيانُ بن سعيد[6]، وسفيانُ بن عُيَيْنَة[7]، وأبو

= (١٠) من تابعي التابعين، أسند عن الحسن البصري وأسلم الكوفي. قال محمد بن عبد الله الخزاعي: صلى عبد الواحد بن زيد الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة. (انظر صفة الصفوة: ج ٣ ص ٢١٧ - ٢١٩، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٤٦).

(١) اسمه عتبة بن أبان بن صمعة، وإنما سمي الغلام لجده واجتهاده لصغر سنه. وقال أبو نعيم في حلية الأولياء: سأل رجل رباحاً القيسي فقال له: يا أبا المهاجر لأي شيء سمي عتبة الغلام؟ قال: كان نصفاً من الرجال، ولكنا كنا نسميه الغلام لأنه كان في العبادة غلام رهان.
كان عتبة من نسّاك أهل البصرة، وكان قد قوّت لنفسه سنين فِلْقةً يتعشى كل ليلة بفلقة ويتسحر بأخرى، وكان يصوم الدهر ويأتي السواحل والجبابين. استشهد في قتال الروم سنة ١٦١ هـ في قرية تسمى الحباب. (انظر صفة الصفوة: ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥٣، وطبقات الشعراني ج ١ ص ٤٧، وحلية الأولياء ج ٦ ص ٢٢٦ - ٢٣٨).

(٢) كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف وكان أبوه كثير المال والخدم، فخرج إبراهيم يوماً في الصيد مع الغلمان والخدم والجنائب والبزاة، فبينا هو على فرسه يركضه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؟ اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة! فنزل إبراهيم عن فرسه ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة.
روى إبراهيم عن جماعة من التابعين ومن تابعي التابعين. وتوفي بالجزيرة سنة ١٦٢ فحمل إلى صور فدفن هنالك (انظر صفة الصفوة: ج ٤ ص ١٣٤ - ١٣٨، وحلية الأولياء: ج ٧ ص٣٦٧ - ٣٩٥، و ج ٨ ص ٣ - ٥٨، وشذرات الذهب: ج ١ ص ٢٥٥. وطبقات الشعراني: ج١ ص ٦٨).

(٣) يكنى أبا علي. ولد بخراسان بكورة أبيورد وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع الحديث من منصور بن المعتمر وغيره، ثم تعبّد وانتقل إلى مكة فنزلها إلى أن مات بها في أول سنة ١٨٧ في خلافة هارون الرشيد. (انظر طبقات ابن سعد: ج ٦ ص ٤٣، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٦٨. وله ترجمة وافية في حلية الأولياء: ج ٨ ص ٨٤ - ١٣٩، وفي صفة الصفوة: ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٤)

(٤) مات في حياة أبيه، وأسند عن عبد العزيز بن أبي رواد وسفيان بن عيينة وغيرهما. عن محمد بن الحسن قال: كان علي بن الفضيل يصلي حتى يزحف إلى فراشه ثم يلتفت إلى أبيه فيقول: يا أبة سبقني العابدون. وعن سفيان بن عيينة قال: ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وابنه.

(٥) أبو سليمان داود بن نصير الطائي. سمع الحديث وفقه وعرف النحو وعلم أيام الناس وأمورهم ثم تعبّد فلم يكن يتكلم في ذلك شيء. توفي رضي الله سنة ١٦٥ أو سنة ١٦٦ في خلافة المهدي (انظر طبقات ابن سعد: ج ٦ ص ٣٤٦، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٧٦، وحلية الأولياء: ج ٧ ص ٣٣٥ - ٣٦٧، وصفة الصفوة: ج ٣ ص ٨٦ - ٩٦).

(٦) سفيان بن سعيد الثوري، لقّبه شعبة بأمير المؤمنين في الحديث، وأُخذ العلم عنه وهو ابن ثلاثين سنة. ولد سنة ٩٧ في خلافة سليمان بن عبد الملك، وتوفي بالبصرة وهو مستخف سنة ١٦١ في خلافة =

سليمان الداراني[1]، وابنه سليمان[2]، وأحمد بن الحواريّ الدمشقي[3]، وأبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري[4]، وأخوه ذو الكِفْل[5]، والسريّ بن المغلّس السقطي[6]، وبشرِ بن الحارث الحافي[7]، ومعروف الكَرْخي[8]، وأبو حنيفة

= المهدي (انظر طبقات ابن سعد: ج٦ ص ٣٥٠ - ٣٥٢، وحلية الأولياء: ج ٦ ص ٣٥٦ - ٣٩٣، وج٧ ص ٣ - ١٤٤، وصفة الصفوة: ج ٣ ص ٩٧ - ١٠٠، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٤٧).

(٧) كان ثقة ثبتاً كثير الحديث حجّة. ولد سنة ١٠٧، وكان أصله من أهل الكوفة، وكان أبوه من عمال خالد ابن عبد الله القسري، فلما عزل خالد عن العراق وولي يوسف بن عمر الثقفي طلب عمال خالد فهربوا منه فلحق عيينة بن أبي عمران بمكة فنزلها.

أدرك سفيان بن عيينة ستة وثمانين نفساً من أعلام التابعين، وأسند عن جمهورهم كعمرو بن دينار والزهري وابن المنكدر وأبي حازم والأعمش وأيوب. وحدّث عنه من كبار الأئمة: الثوري وشعبة والأعمش والأوزاعي. مات سفيان سنة ٩٨ ودفن بالحجون وهو ابن إحدى وتسعين سنة (انظر طبقات ابن سعد: ج ٦ ص ٤١، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٨، وحلية الأولياء: ج ٧ ص ٢٧٠ - ٣١٨، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٥٦).

(١) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبسي أو العنسي الداراني؛ وداريا قرية من قرى دمشق. قال أبو نعيم الأصبهاني: كان سبر الأحوال ليعتبر الأهوال فظهر من الأعلال لمداومته على الذؤوب والكلال. قال ابن الجوزي في صفة الصفوة: توفي أبو سليمان سنة ٢٠٥، وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سنة ٢١٥. (انظر صفة الصفوة: ج ٤ ص ١٨٩ - ١٩٧، وحلية الأولياء: ج ٩ ص ٢٥٤ - ٢٨٠، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٧٩).

(٢) لم أجد له ترجمة.

(٣) يكنى أبا الحسن، واسم أبي الحواريّ ميمون. سكن دمشق، وكان له ابن يقال له عبد الله من الزهاد، وأخ يقال له محمد يشبهه في الورع والزهد، وأبوه أبو الحواري من أهل الورع أيضاً، فبيتهم بيت الورع والزهد. توفي أحمد بن أبي الحواري سنة ٢٠٣ (انظر صفة الصفوة: ج ٤ ص ٢٠١، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٢. وله ترجمة في حلية الأولياء: ج ١٠ ص ٥ - ٣٣).

(٤) انظر ترجمته ص ٢٠ حاشية (٥).

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) انظر ترجمته ص ١٢ حاشية (٢).

(٧) انظر ترجمته ص ١٠ حاشية (١).

(٨) أبو محفوظ معروف بن الفيرزان الكرخي، ينسب إلى كَرْخ بغداد. كان من النصارى فأسلم؛ قال أخوه عيسى: كنت أنا وأخي معروف في الكتّاب وكنا نصارى وكان المعلم يعلم الصبيان «آب وابن» فيصيح أخي معروف: أحد أحد، فيضربه المعلم على ذلك ضرباً شديداً، حتى ضربه يوماً ضرباً عظيماً فهرب على وجهه فكانت أمي تبكي وتقول: لئن ردّ الله عليّ ابني معروفاً لأتبعنه على أي دين كان. فقدم عليها معروف بعد سنين كثيرة فقالت له: يا بني علي أي دين أنت؟ قال: على دين الإسلام، قالت: أشهد أن =

المرعشي[1]، ومحمد بن المبارك الصُّوري[2]، ويوسف بن أسباط[3] رحمهم الله.

ومن أهل خُراسانَ[4]، والجبل[5]: أبو يزيد طَيْفور بنُ عيسى البسطامي[6]، وأبو حفص الحداد النيسابوري[7]، وأحمد بن خضرويه البلخي[8]، وسهل بن عبد

= لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فأسلمت أمي وأسلمنا كلنا.
توفي معروف سنة ٢٠٠، وقبره ظاهر ببغداد يتبرك به. وكان إبراهيم الحربي يقول: قبر معروف الترياق المجرب. (انظر صفة الصفوة: ج ٢ ص ٢١٠ ـ ٢١٤، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٧٢؛ وله ترجمة في حلية الأولياء: ج ٨ ص ٣٦٠ ـ ٣٦٨).

(١) لم أجده بهذا الاسم، ولعله حذيفة بن قتادة المرعشي، متعبد زاهد، صحب الثوري. وتوفي سنة ٢٠٧ (انظر صفة الصفوة. ج ٤ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦، وحلية الأولياء: ج ٨ ص ٢٦٧ ـ ٢٧١، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٦٢).

(٢) ترجم له في حلية الأولياء (ج ٩ ص ٢٩٨ ـ ٣١٧) وأورد من أقواله: أعمال الصادقين لله بالقلوب، وأعمال المرائين بالجوارح للناس، فمن صدق فليقف موقف العمل لله لعلم الله به لا لعلم الناس لمكان عمله.

(٣) من قرية يقال لها شيح. توفي سنة ١٩٩. كان يقول: لأن تقطع يدي ورجلي أحبّ إليّ من أن آكل من دا المال شيئاً. (انظر حلية الأولياء: ج ٨ ص ٢٣٧ ـ ٢٥٣، وصفة الصفوة: ج ٤ ص ٢١٩ ـ ٢٢٢، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٦١).

(٤) بلاد واسعة تشتمل على أمهات من البلاد، منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون. (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي: ج ٢ ص ٤٠١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠).

(٥) الجبل أو الجبال: اسم علم للبلاد المعروفة باصطلاح العجم بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والريّ وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة. قال ياقوت: وتسمية العجم له بالعراق غلط لا أعرف سببه، وهو اصطلاح محدث لا يعرف في القديم (انظر المرجع السابق: ج ٢ ص ١١٥ و ١٢٠).

(٦) قال في صفة الصفوة: واسمه طيفور بن عيسى بن سروشان ـ (وفي شذرات الذهب: سروسان) وكان سروشان مجوسياً فأسلم. توفي أبو يزيد سنة ٢٦١ وله ثلاث وسبعون سنة. ومن أقواله: ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، إنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير. (انظر صفة الصفوة: ج ٤ ص ٩٨ ـ ١٠٢، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٣ ـ ٤٢، والطبقات الكبرى للشعراني: ج ١ ص ٧٦).

(٧) في صفة الصفوة: اسمه عمرو بن سلم، وقيل: عمرو بن سلمة. وفي حلية الأولياء: عمرو أو عمر بن سلمة. وسماه الشعراني في الطبقات: عمر بن سالم من قرية يقال لها كورذباذ بباب مدينة نيسابور على طريق بخارى. توفي أبو حفص سنة ٢٧٠، ويقال سنة ٢٦٧، ويقال سنة ٢٦٤، ويقال سنة ٢٦٥ ومن أقواله: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعدّه في ديوان =

الله التستري[1]، ويوسف بن الحسين الرازي[2]، وأبو بكر بن طاهر الأبهري[3]، وعلي بن سهل بن الأزهر الأصفهاني[4]، وعلي بن محمد البارزي[5]، وأبو بكر الكناني الدينوري[6]، وأبو محمد بن الحسن بن محمد الرحاني[7]، والعباس بن الفضل بن قتيبة بن منصور الدينوري[8]، وكهمس بن علي الهمداني[9]، والحسن بن علي بن يزدانيار[10]،رضي الله عنهم أجمعين.

= الرجال (انظر صفة الصفوة: ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٩، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٢٩ و ٢٣٠، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٢).

(٨) اسمه أحمد بن الخضر، ويعرف بابن خضرويه البلخي، ويكنى أبا حامد. من أكابر مشايخ خراسان صحب أبا تراب النخشبي وحاتماً الأصم ورحل إلى أبي يزيد البسطامي وزار أبا حفص الحداد، وهو من المشهورين بالفتوة. توفي سنة ٢٤٠. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٢، وصفة الصفوة: ج ٤ ص ١٤٣، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٤٢).

(١) انظر ترجمته ص ١٩، حاشية (١).

(٢) انظر ترجمته ص ٢٠، حاشية (٢).

(٣) أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري من كبار مشايخ الجبل. وهو من أقران الشبلي. صحب يوسف بن الحسين الرازي وأبا مظفر القرميسيني وغيرهما من المشايخ، وكان عالماً ورعاً. مات قريباً من سنة ٣٣٠. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ١١٢، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٥١).

(٤) من قدماء مشايخ أصفهان. كان من المترفين فتزهّد فكان يبقى الأيام الكثيرة لا يأكل. وكان يكاتب الجنيد ويراسله وكان من أقرانه، صحب ابن معلان ولقي أبا تراب النخشبي. وكان إذا بلغه عن أحد من المسلمين أن عليه ديناً يرسل يوفي عنه الدين بغير علم المديون فيأتي صاحب الدين فيقول للمديون قد وفى الله عنك. ولم يعلم الناس بذلك إلا بعد موته. توفي رضي الله عنه سنة ٣٠٧ (انظر صفة الصفوة: ج ٤ ص ٧٩، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٩٤، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٤٠٤).

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) هو أبو بكر بن داود الدينوري الرقي. أقام بالشام، وكان من أقران أبي علي الروذباري إلا أنه عمر زيادة على مائة سنة. وكان من أجّل مشايخ وقته وأحسنهم حالاً وأقدمهم صحبة للمشايخ .مات رضي الله عنه بعد الخمسين والثلاثمائة (انظر الطبقات الكبرى للشعراني: ج ١ ص ١١٩).

(٧) لم أجد له ترجمة.

(٨) لم أجد له ترجمة.

(٩) لم أجد له ترجمة.

(١٠) من أهل أرمينية، له طريقة في التصوف يختصّ بها، وكان ينكر على بعض المشايخ بالعراق أقاويلهم. وكان عالماً بعلوم الظاهر والمعارف والمعاملات. ومن كلامه: رضا الخلق عن الله تعالى رضاهم بما يفعل، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضا عنه (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ١١٤).

الباب الثالث

فِيمَنْ نَشَرَ عُلُومَ الإشَارَةِ كُتُباً ورَسَائِلَ

أبو القاسم الجُنَيْد بن محمد بن الجُنَيْد البغدادي[1]، وأبو الحسين أحمد بن محمد بن عبد الصمد النُّوري[2]، وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخزاز [3] ويقال له: لسان التصوف، وأبو محمد رُوَيم بن محمد[4]، وأبو العباس أحمد بن عطاء البغدادي[5]، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي[6]، وأبو يعقوب يوسف بن حمدان

---

(١) انظر ترجمته ص ١٩، حاشية (٥).

(٢) انظر ترجمته ص ١٩، حاشية (٤).

(٣) كذا أيضاً في حلية الأولياء «الخزاز» بالزاي وفي صفة الصفوة وطبقات الشعراني «الخرّاز» بالراء. من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري وسرياً السقطي وبشراً الحافي وغيرهم، وهو من أئمة القوم وأجلّة المشايخ، قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. قال ابن الجوزي: توفي سنة ٢٧٧، وقيل سنة ٢٨٦. وقال الشعراني: توفي سنة ٢٧٩ (انظر صفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٣، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٩٢، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٤٦ - ٢٤٩).

(٤) في حلية الأولياء: أبو الحسن رويم بن أحمد. وفي طبقات الشعراني: أبو محمد رويم بن أحمد. وفي صفة الصفوة: رويم بن أحمد، ويقال ابن محمد، أبو الحسن، ويقال أبو الحسين.
بغدادي الأصل من جملة مشايخ بغداد، وكان فقيهاً على مذهب داود الأصفهاني. توفي سنة ٣٠٣ في بغداد ودفن بالشونيزية. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٨، وصفة الصفوة: ج٢ ص ٢٨٥، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٩٦ - ٣٠٢).

(٥) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة والشعراني في الطبقات باسم: أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي. وذكره أبو نعيم في حلية الأولياء باسم: أحمد بن محمد بن عطاء.
كان من ظرّاف مشايخ الصوفية وعلمائهم، له لسان في فهم القرآن مختصّ به. صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني، وكان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه حتى قال: التصوف خلق وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء. قال الشعراني: مات سنة تسع أو إحدى عشرة وثلاثمائة. وقال ابن الجوزي: توفي في ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة (انظر طبقات الشعراني: ج١ ص ٩٥، وصفة الصفوة: ج٢ ص ٢٨٧، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٠٢ - ٣٠٥)

(٦) كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة، ولقي أبا عبد الله الناجي وأبا سعيد الخراز وغيرهما من المشايخ، وكان شيخ القوم في وقته وإمام الطائفة في الأصول والطريقة، وله كلام حسن. وروى الأحاديث عن محمد بن إسماعيل البخاري وغيره. قال الشعراني: مات سنة ٢٩١. وقال ابن الجوزي: توفي ببغداد سنة ٢٩٦، وقيل سنة ٢٩٧، وقيل سنة ٢٩١، ويقال مات بمكة، والأول أصح. (انظر طبقات الشعراني: ج١ ص ٨٩، وصفة الصفوة: ج٢ ص ٢٨٤، وحلية الأولياء: ج ١٠ص ٢٩١ - ٢٩٦)

السوسي[١]، وأبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أيوب النهرجوري[٢]، وأبو محمد الحسن بن محمد الجريري[٣]، وأبو عبد الله محمد بن علي الكتّاني[٤]، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص[٥]، وأبو علي الأوراجي[٦]، وأبو بكر محمد بن موسى الواسطي[٧]، وأبو عبد الله الهاشمي[٨]، وأبو عبد الله شيكل القرشي[٩]، وأبو علي الروذباري[١٠]، وأبو بكر القحطبي[١١]، وأبو بكر الشبلي وهو دُلَف بن جحدر[١٢]،

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي وأبا يعقوب السوسي وغيرهم من المشايخ، وأقام بالحرم مجاوراً سنين كثيرة. توفي سنة ٣٣٠. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ١١١، وحلية الأولياء ج ١٠ ص ٣٥٦).

(٣) ذكره ابن الجوزي باسم: أحمد بن محمد بن الحسين الحريري (بالحاء) وذكره الشعراني بالجيم: الجريري، وكذا أيضاً أبو نعيم في حلية الأولياء.
كان من أكابر أصحاب الجنيد. توفي سنة ٣١١. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٩٤، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٨٨، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٤٧).

(٤) ذكره ابن الجوزي وأبو نعيم والشعراني باسم أبي بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني، وكذا أيضاً أورده السلمي بكنية أبي بكر، وقال: ويقال أبو عبد الله وأبو بكر أصح.
أصله من بغداد، وصحب الجنيد والنوري وأبا سعيد الخراز، وأقام بمكة وجاور بها إلى أن مات سنة ٣٢٢. كذا ذكر الشعراني تاريخ وفاته. وقال ابن الجوزي: توفي بمكة سنة ٣٢٨، وقيل سنة ٣٢٢. (انظر صفة الصفوة: ج٢ ص ٢٩٤، وطبقات الشعراني: ج١ ص ١١٠، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٥٧)

(٥) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص. ذكره الشعراني باسم إبراهيم بن إسماعيل وقال: هو من أجلّ من سلك طريق التوكل، وكان أوحد المشايخ في وقته، وكان من أقران الجنيد والنوري، وله في الرياضات والسياحات مقام يطول شرحه. مات بجامع الريّ سنة ٢٩١. وقال ابن الجوزي: توفي سنة ٢٩١، ويقال سنة ٢٨٤، وتولّى أمره في غسله ودفنه يوسف بن الحسين الرازي. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٩٧، وصفة الصفوة: ج ٤ ص ٩٠ - ٩٤، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٢٥ - ٣٣١).

(٦) لم أجد له ترجمة.

(٧) أصله من فرغانة، ويعرف بابن الفرغاني. كان من قدماء أصحاب الجنيد والثوري، وكان من علماء مشايخ القوم، لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثل كلامه، وكان عالماً بأصول الدين والعلوم الظاهرة. دخل خراسان واستوطن كورة مرو ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٩٩، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٤٩).

(٨) لم أجد له ترجمة.

(٩) لم أجد له ترجمة.

(١٠) انظر ترجمته ص ١٨، حاشية (٤).

رضوان الله عليهم أجمعين.

الباب الرابع
فيمَنْ صَنَّفَ في المُعَامَلاتِ

أبو محمد عبد الله بن محمد[1]، وأبو عبد الله أحمد بن عاصم[2] الأنطاكيان وعبد الله بن حنف الأنطاكي[3]، والحارث بن أسد المحاسبي[4]، ويحيى بن معاذ الرازي[5]، وأبو بكر محمد بن عمر بن الفضل الورّاق الترمذي[6]، وأبو عثمان سعيد

= (١١) لم أجد له ترجمة.

(١٢) اختلف في اسمه، فقيل: دلف بن جعفر، وقيل: دلف بن جحدر، وقيل: جحدر بن دلف، وقيل: دلف بن جعبرة، وقيل: دلف بن جبعويه، وقيل اسمه جعفر بن يونس كما هو مكتوب على قبره. أصله خراساني من أهل سروسة من قرية يقال لها شبلية، ومولده بسرّ من رأى. صحب الجنيد ومن عاصره من المشايخ وصار أوحد أهل الوقت علماً وظرفاً. تفقه على مذهب الإمام مالك وكتب الحديث الكثير. عاش سبعاً وثمانين سنة ومات سنة ٣٣٤ ودفن ببغداد في مقبرة الخيزران. (انظر صفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٨، وطبقات الشعراني: ج١ ص ١٠٣، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٦٦ - ٣٧٥).

(١) ويقال له المرتعش. بغدادي المولد والمنشأ، صحب الجنيد وأقام ببغداد في مسجد الشونيزي، وكانوا يقولون: عجائب بغداد في التصوف ثلاثة: الشبلي في الإشارات، والمرتعش في المكاشفات، وجعفر الخلدي في الحكايات. توفي المرتعش في بغداد سنة ٣٢٨. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ١٠٥، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٩٨، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٥٥).

(٢) انظر ترجمته ص ١٧، حاشية (١).

(٣) ذكره الشعراني باسم عبدالله بن حنيف، وذكره أبو نعيم وابن الجوزي باسم عبدالله بن خُبيق. أصله من الكوفة ثم سكن أنطاكية واستفاد من يوسف بن أسباط. وطريقته في التصوف طريقة الثوري. ومن كلامه: اذا دنا الرجل القارىء من المعصية ناداه القرآن من صدره والله ما لهذا حملتني، فلو أن العاصي سمع ذلك الصوت لمات حياءً من الله تعالى. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٣، وصفة الصفوة: ج٤ ص ٢٣٤، وحلية الاولياء: ج ١٠ ص ١٦٨ - ١٨٩).

(٤) من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم الأصول وعلوم المعاملات. وهو أستاذ أكثر البغداديين، بصري الأصل. توفي ببغداد سنة ٢٤٣. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٧٥، وصفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٤٠، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٧٣ - ١١٠).

(٥) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر. كان أوحد وقته في زمانه، له لسان في الرجاء خصوصاً وكلام في المعرفة. أقام مرة ببلخ ثم عاد الى نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٨١، وصفة الصفوة: ج ٤ ص ٨٣ - ٩٠، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٥١ - ٧٠). =

ابن اسماعيل الرازي[1]، وأبو عبد الله محمد بن علي الترمذي[2]، وأبو عبد الله محمد ابن الفضل البلخي[3]، وأبو علي الجوزجاني[4]، وأبو القاسم بن إسحاق بن محمد الحكيم السمرقندي[5].

وهؤلاء هم الأعلامُ المذكورون المشهورون، المشهودُ لهم بالفضل، الذين جمعوا علوم المواريث إلى علوم الاكتساب[6].

=(٦) أصله من ترمذ وأقام ببلخ. لقي أحمد بن حضرويه وصحب محمد بن سعد الزاهد ومحمد بن عمر البلخي. له التصانيف المشهورة في أنواع الرياضات والآداب والمعاملات. ومن كلامه: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال الشك في المقدور، ولو قيل له ما حرفتك؟ لقال اكتساب الذل، ولو قيل له ما غايتك؟ لقال الحرمان. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٩١، وصفة الصفوة: ج ٤ ص ١٤٤، وحلية الاولياء: ج ١ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧).

(١) أصله من الريّ، صحب قديماً يحيى بن معاذ الرازي وشاه بن شجاع الكرماني، ثم رحل الى نيسابور قاصداً أبا حفص الحداد، فزوّجه ابنته وأخذ عنه طريقته. وكان رضي الله عنه أوحد المشايخ في سيرته، ومنه انتشرت طريقة التصوف في نيسابور. توفي بنيسابور سنة ٢٩٨. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ص ٨٦، وصفة الصفوة: ج ٤ص ٩٤ ـ ٩٦، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

(٢) الملقب الحكيم الترمذي. من كبار مشايخ خراسان، وله التصانيف المشهورة وكتب الحديث، وكان يقول: ما صنفت شيئاً ليُنسب إليّ لكن كنت اذا اشتد عليّ وقتي أتسلى بمصنفاتي. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص٩١، وصفة الصفوة: ج ٤ص ١٤٦، وحلية الاولياء: ج ١٠ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥).

(٣) أصله من بلخ ولكنه رحل الى سمرقند واستوطنها ومات بها سنة ٣١٩. وكان من كبار المشايخ بخراسان، صحب أحمد بن حضرويه البلخي وسمع الحديث من قتيبة بن سعيد ومن في طبقته. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ص ٨٨، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٢٣٢، وصفة الصفوة: ج ٤ص ١٤٤).

(٤) في حلية الأولياء «الجوزجاني» بالراء. وقال الشعراني: أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني: كان من أكابر مشايخ خراسان، له التصانيف المشهورة في علوم الأوقاف والرياضات والمجاهدات والمعارف. صحب محمد بن علي الترمذي ومحمد بن الفضل. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٩٠، وحلية الأولياء: ج ١٠ ص ٣٥٠).

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) علوم الاكتساب هي التي تحصل بواسطة التعلم والأخذ عن المشايخ. أما علوم المواريث فيريد بها العلوم الباطنة، وهي ما يسميها الغزالي بعلم المكاشفة؛ قال في إحياء علوم الدين (ج١ ص ٣١): وهو علم الصدّيقين والمقربين، أعني علم المكاشفة، فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة.

سمعوا الحديث، وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنَّفاتهم.

ولم نذكر المتأخرين وأهل العصر، وإن لم يكونوا دون من ذكرنا علماً، لأنّ الشهود[1] يُغْني عن الخبر عنهم.

وبالله التوفيق.

الباب الخامس

شَرْحُ قَوْلِهِمْ في التَّوْحِيدِ[2]

اجتمعت الصوفيةُ على أنّ الله واحدٌ، فَرْدٌ صمدٌ، قديمٌ عالمٌ، قادِرٌ حيٌّ، سميعٌ بصيرٌ، عَزيزٌ عظيمٌ، جَميلٌ كبيرٌ، جوادٌ رؤوفٌ، متكبِّرٌ جبّارٌ، باقٍ أوّلٌ، إله سيدٌ، مالك ربٌّ، رحمنٌ رحيمٌ، مريدٌ حكيمٌ، متكلِّمٌ، خالقٌ رزاقٌ، موصوفٌ بكل ما وَصَفَ به نَفْسَهُ من صفاته، مُسَمَّى بكلِّ ما سَمَّى به نفسه، لم يزلْ قديماً بأسمائه وصفاته، غَيْرَ مشبهٍ للخَلْق بوجه من الوجوه، لا تشبه ذاتُه الذواتِ، ولا صفته الصفاتِ، لا يجري عليه شيءٌ من سِمَاتِ[3] المخلوقين الدالّة على حَدَثِهم[4]، لم يزل سابقاً متقدماً للمُحْدثَات، موجوداً قبل كل شيء، لا قديمَ غيره، ولا إله سواه[5].

---

(١) يعني حضورهم بين الناس.

(٢) تكلم في هذا الباب وفي الباب الذي يليه عن مذهب المتصوفة في الأسماء والصفات. وفي الباب الحادي والستين من هذا الكتاب تكلم عن اقوالهم في التوحيد.

(٣) السمات: جمع سِمَة، وهي العلامة.

(٤) الحَدَث: الإبداء (انظر لسان العرب: مادة حدث).

(٥) ذكر الإمام الغزالي خمسة أشياء في أصول التوحيد لا بدّ لكل مكلف من اعتقادهن: أحدها: وجود الباريء تعالى ليبرأ به عن التعطيل. ثانيها: وحدانيته تعالى ليبرأ به عن الشرك. ثالثها: تنزيهه تعالى عن كونه جوهراً أو عرضاً وعن لوازم كل منهما ليبرأ به من التشبيه. رابعها: إبداعه تعالى بقدرته واختياره لكل ما سواه ليبرأ به عن القول بالعلة والمعلول. خامسها: تدبيره تعالى لجميع مبتدعاته ليبرأ به عن تدبير الطبائع والكواكب والملائكة. وقول «لا إله إلا الله» يدل على الخمسة.

ونقل البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» عن أبي عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي ما يشبه ما ذكره الغزالي فيما يجب اعتقاده والإقرار به في الباري سبحانه وتعالى.

ليس بجسم[1]، ولا شَبَحٍ [2]، ولا صورةٍ[3]، ولا شخصٍ ، ولا جَوْهرٍ[4]، ولا عَرَضٍ[5] . لا اجتماعَ له ولا افتراق[6] ، لا يتَحركُ ولا يَسْكُن [7]، ولا ينقصُ ولا

= وما يذكره الكلاباذي هنا في عقيدة الصوفية يتناسب مع هذه الأشياء الخمسة في أصول التوحيد. (انظر روضة الطالبين وعمدة السالكين للامام الغزالي، ضمن مجموعة رسائل الامام الغزالي (٢) صفحة ٢٩ ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦. وانظر كتاب الأسماء والصفات للامام البيهقي، ص ٢١ ـ دار الكتب العلمية، بيروت، د ت).

(١) الجسم هو الجوهر القابل للأبعاد الثلاثة، وقيل: هو المركب المؤلف من الجوهر (انظر التعريفات للجرجاني: ص ٧٦).

(٢) الشبح (بفتح الباء وسكونها): ما بدا لك شخصه من الناس وغيرهم من الخلق (انظر اللسان: مادة شبح). يريد بقوله «ولا شبح» انه تعالى لا يُرى لأنه ليس بجسم ولا شخص.

(٣) قال البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٦٩): الصورة هي التركيب، والمصوَّر المركَّب؛ والمصوِّر هو المركِّب؛ قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾. ولا يجوز أن يكون الباري تعالى مصوراً ولا أن يكون له صورة، لأن الصورة مختلفة والهيئات متضادة، ولا يجوز اتصافه بجميعها لتضادها، ولا يجوز اختصاصه ببعضها إلا بمخصص، لجواز جميعها على من جاز عليه بعضها، فإذا اختصّ ببعضها اقتضى مخصصاً خصصه به، وذلك يوجب أن يكون مخلوقاً وهو محال، فاستحال أن يكون مصوَّراً، وهو الخالق الباري، المصور.

(٤) الجوهر اسم مشترك، يقال جوهر لذات كلّ، كالإنسان أو كالبياض، فيقال جوهر البياض وذاته . ويقال جوهر لكل موجود وذاته لا يحتاج في الوجود الى ذات آخر تقارنها حتى يكون بالفعل، وهو معنى قولهم: الجوهر قائم بنفسه. ويقال جوهر لما كان بهذه الصفة وكان من شأنه أن يقبل الأضداد بتعاقبها عليه. ويقال جوهر لكل ذات وجوده ليس في موضوع، وعليه اصطلاح الفلاسفة القدماء. (انظر معيار العلم في المنطق للإمام الغزالي، ص ٢٩١ ـ شرح أحمد شمس الدين ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠).

(٥) العرض اسم مشترك، فيقال لكل موجود في محل عرض. ويقال عرض لكل موجود في موضوع . ويقال عرض للمعنى الكلي المفرد المحمول على كثيرين حملاً غير مقوم. ويقال عرض لكل معنى موجود للشيء خارج عن طبعه. ويقال عرض لكل معنى يحمل على الشيء لأجل وجوده في آخر يفارقه . ويقال عرض لكل معنى وجوده في أول الأمر لا يكون. (انظر المرجع السابق: ص ٢٩٢).

(٦) الاجتماع كما عرفه الغزالي في معيار العلم (ص ٢٩٧) هو وجود أشياء كثيرة يعمّها معنى واحد، والافتراق مقابله. وعرف الجرجاني الاجتماع بأنه تقارب أجسام بعضها من بعض. وعرف الافتراق بقوله: كون الجوهرين في حيزين بحيث يمكن التفاضل بينهما (التعريفات: ص ١٠ و ٣٢). وكلا التعريفين الاجتماع والافتراق محالان على الله تعالى. =

يزدادُ؛ ليس بذي أبعاضٍ ولا أجزاء، ولا جوارحَ ولا أعضاء، ولا بذي جهاتٍ ولا أماكن، لا تجري عليه الآفات، ولا تأخذه السِّنات[1]، ولا تَداوَلُهُ الأوقات[2]، ولا تعيِّنُه الإشارات[3]؛ لا يحويه مكانٌ، ولا يجري عليه زمانٌ، ولا تجوز عليه المُمَاسَّةُ ولا العزلة[4]، ولا الحلولُ في الأماكن، ولا تحيط به الأفكارُ، ولا تحجُبُهُ الأسْتارُ، ولا تدركه الأبصار.

وقال بعض الكبراء في كلام له: لم يسبقْه قَبْلٌ، ولا يقطعه بَعْدٌ[5]، ولا يصادره مِنْ، ولا يوافقه عَنْ، ولا يلاصقه إلى، ولا يَحُلُّهُ في، ولا يوقفه إذ[6]، ولا يؤامره إنْ[7]، ولا يُظِلُّه[8] فوق، ولا يُقِلُّه[9] تحت، ولا يقابله حذاء[10]، ولا يزاحمه عِنْد، ولا يأخذه خلف، ولا يحدُّه أمام، ولا يُظْهِرُه قبل، ولا يفنيه بعد، ولا يجمعه كلّ، ولا يُوجِدُه كان[11]، ولا يفقده ليس[12]، ولا يستره خفاء. تقدَّم الحدثَ قِدمُهُ، والعدمَ وجودُهُ، والغاية أزلُهُ.

= (٧) الحركة تستلزم الانتقال من حيِّز إلى حيِّز، والسكون كونان في آنين في مكان واحد؛ لذلك لا يوصف بهما سبحانه وتعالى.

(١) السِّنات: جمع سِنَة، وهي النعاس من غير نوم؛ قال تعالى في سورة البقرة، الآية ٢٥٥: ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾.

(٢) يريد أنه تعالى يتنزّه عن أن تمر به السنون، لأنه تعالى قديم قبل الأوقات والأزمنة، ويبقى بعدها.

(٣) لأن الإشارة تكون إلى ما له جهة ومكان، وهو تعالى منزّه عن الجهة والمكان.

(٤) المماسة والعزلة كالاجتماع والافتراق.

(٥) لم يسبقه قبل ولا يقطعه بعد، اشارة إلى سرمديته سبحانه وتعالى.

(٦) «مِنْ» تفيد الابتداء، و«عَنْ» تفيد الانفصال والافتراق، و«إلى» تفيد الانتهاء إلى الغاية أو المكان، و«في» ظرف مكان، و«إذ» طرف زمان. وهو تعالى منزّه عن كل هذا.

(٧) آمره في أمره: شاوره، والمؤامرة: المشاورة. و«إنْ» تفيد الشكّ والشرط؛ وهو تعالى منزه عن ذلك.

(٨) الظُّلّة: ما سترك من فوق.

(٩) يُقلّه: يحمله.

(١٠) حذاء: مقابل. وكل هذه العبارات والتي تليها لتنزيهه سبحانه عن الزمان والمكان.

(١١) لم يكن معدوماً ليكون، ولم يكن قبله أحد ليكوّنه. فهو سبحانه الموجد المكوِّن، وهو الذي يوجد الأشياء بقوله كُنْ فيكون.

(١٢) «ليس» تفيد العدم.

إن قلت: متى، فقد سبق الوقت كونُه [١].

وإن قلت: قبل، فالقبلُ بعده [٢].

وإن قلت: هو، فالهاء والواو خَلْقُهُ.

وإن قلت: كيف، فقد احتجبت عن الوصف بالكيفية ذاتُهُ [٣].

وإن قلت: أين، تقدَّمَ المكانَ وجودُهُ [٤].

وإن قلت: ما هو [٥]، فقد بَايَنَ الأشياءَ هويتُهُ.

ولا يجتمع صفتان لغيره في وقت، ولا يكون بهما على التضادّ. فهو باطن في ظهوره، ظاهر في استتاره، فهو: الظاهر الباطن [٦]، القريب البعيد [٧]، امتناعاً بذلك من الخلق أن يشبهوه.

فِعْلُهُ من غير مباشرة، وتَفْهِيمُهُ من غير ملاقاة، وهِدَايَتُهُ من غير إيماء.

---

(١) قال الغزالي: إن قلت متى، فالزمان إيجاده (انظر روضة الطالبين: ص ٢٨).

(٢) لأنه هو تعالى خالق القَبْل.

(٣) قال الغزالي: وإن قلت كيف، فالمشابهة والكيف مفعوله

(٤) قال الغزالي: وإن قلت أين، فالمكان خلقه.

(٥) يعني إذا سألت عن ماهيته.

(٦) قال تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾. قال الحليمي في معنى الظاهر: إنه البادي في أفعاله، وهو جل ثناؤه بهذه الصفة فلا يمكن معها أن يجحد وجوده وينكر ثبوته. وقال الخطابي: هو الظاهر بحججه الباهرة وبراهينه النيرة وشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته، ويكون الظاهر فوق كل شيء بقدرته، وقد يكون الظهور بمعنى العلو ويكون بمعنى الغلبة. وقال الحليمي في الباطن: هو الذي لا يُحسّ وإنما يُدرك بآثاره وأفعاله. وقال الخطابي: وقد يكون معنى الظهور والبطون تجلّيه لبصائر المتفكرين واحتجابه عن أبصار الناظرين، وقد يكون معناه العالم بما ظهر من الأمور والمطلع على ما بطن من الغيوب. (انظر الأسماء والصفات للبيهقي: ص ٢٧ و٥٢).

(٧) البعيد أي المتعالي الذي لا يتوصل أحد إلى إدراك ذاته وكنهه. أما القريب فقد قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ وقال: ﴿إنه سميع قريب﴾ وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنه معكم سميع قريب» وقال: «إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته». قال الحليمي: ومعناه أنه لا مسافة بين العبد وبينه فلا يسمع دعاءه أو يخفى عليه حاله. وقال الخطابي: معناه أنه قريب بعلمه من خلقه قريب ممن يدعوه بالإجابة. (انظر المرجع السابق: ص ٥٧، ٥٨).

لا تنازعه الهمم، ولا تخالطه الأفكار. ليس لذاته تكييف، ولا لفعله تكليف.

وأجمعوا على أنه لا تدركه العيون[١]، ولا تهجم عليه الظنون[٢]، ولا تتغير صفاته[٣]، ولا تتبدّل أسماؤه، لم يزل كذلك، ولا يزال كذلك، هو الأول والآخر[٤]، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

الباب السادس

شَرْحُ قَوْلِهِمْ في الصِّفَاتِ

أجمعوا على أن لله صفات على الحقيقة هو بها موصوف: من العلم، والقُدْرةِ، والقوّةِ، والعزِّ، والحِلْم، والحكمةِ، والكبرياءِ، والجَبَرُوتِ، والقِدَمِ، والحياةِ، والإرادةِ، والمشيئةِ، والكلام[٥].

وأنها ليست بأجسام، ولا أعراض، ولا جواهر، كما أن ذاته ليس بجسم، ولا عَرَض، ولا جوهر.

وأن له سَمْعاً وَبَصَراً، ووجهاً ويداً، على الحقيقة، ليس كالأسماع والأبصار والأيدي والوجوه[٦].

---

(١) لأنه ليس له حدّ يحدّه.

(٢) يريد أنه لا يتصور له كيفية أو كمية.

(٣) لأن التغير من صفة المحدثات.

(٤) قال الحليمي: فالأول هو الذي لا قبل له، والآخر هو الذي لا بعد له؛ وهذا لأن قبل وبعد نهايتان، فقبل نهاية الموجود من قبل ابتدائه، وبعد غايته من قبل انتهائه، فإذا لم يكن له ابتداء ولا انتهاء لم يكن للموجود قبل ولا بعد، فكان هو الأول والآخر (انظر الأسماء والصفات للبيهقي: ص٢٥).

(٥) لم يذكر الصفات هنا كما ذكرها المتكلمون بالتفصيل. فهم مثلاً يقسمون صفاته تعالى إلى قسمين: صفات ذاته وهي ما استحقه فيما لم يزل ولا يزال، وصفات فعله وهي ما استحقه فيما لا يزال دون الأزل. ثم هم ينوعون في الصفات، فيندرج مثلاً في صفة العلم: العليم والخبير والحكيم والشهير والحافظ والمحصي . . . الخ. (انظر المرجع السابق: ص ١٣٧ و ١٤٤).

(٦) مذهب السلف إثبات هذه الصفات كما وردت في الخبر الصادق كما هي ولكن على وجه لا يوجب التشبيه. وقد انقسم أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها، فجعلهم ابن تيمية ستة أقسام: قسمان =

وأجمعوا أنها صفاتٌ لله وليست بجوارح، ولا أعضاء ولا أجزاء[1].

وأجمعوا أنها ليست هي هُوَ ولا غيره، وليس معنى إثباتها أنه محتاج إليها وأنه يفعل الأشياء بها، ولكن معناها: نَفْيُ أضدادها وإثباتها في أنفسها، وأنها قائمات به.

ليس معنى العلم نفي الجهل فقط، ولا معنى القدرة نَفْيُ العجز، ولكن إثبات العلم والقدرة[2].

ولو كان بنفي الجهل عالماً، وبنفْي العجز قادراً، لكان المراد بنفي الجهل والعجز عن [كونه][3] عالماً وقادراً.

وكذلك جميع الصفات.

وليس وَصْفُنَا له بهذه الصفات صفةٌ له، بل وَصْفُنَا صِفَتُنَا وحكايةٌ عن صفة قائمة به، ومن جعل صفة الله وَصْفَه له من غير أن يثبت لله صفة على الحقيقة[4]، فهو

= يقولان: تُجرى على ظواهرها. وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها. وقسمان يسكتون. (انظر تفصيل ذلك في كتاب الأسماء والصفات لابن تيمية: ج ٢ ص ٧٦ - ٩٢، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٨٨).

(١) المشبِّهة هم الذين يُجرون هذه الصفات المذكورة، كالسمع والبصر والحركة والاستواء على العرش على ظاهرها ويجعلونها من جنس صفات المخلوقين.

(٢) أوضح البيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٣٧) هذا الأمر بكلام أكثر وضوحاً فقال: في إثبات أسمائه إثبات صفاته؛ لأنه اذا ثبت كونه موجوداً فوصف بأنه حي فقد وصف بزيادة صفة على الذات هي الحياة، فإذا وصف بأنه قادر فقد وصف بزيادة صفة هي القدرة، وإذا وصف بأنه عالم فقد وصف بزيادة صفة هي العلم، كما إذا وصف بأنه خالق فقد وصف بزيادة صفة هي الخلق، وإذا وصف بأنه رازق فقد وصف بزيادة صفة هي الرزق، وإذا وصف بأنه مُحْيي فقد وصف بزيادة صفة هي الإحياء؛ إذ لولا هذه المعاني لاقتصر في أسمائه على ما ينبيء عن وجود الذات فقط... قال: ونعتقد في صفات ذاته أنها لم تزل موجودة بذاته ولا تزال موجودة به، ولا نقول فيها إنها هو ولا غيره ولا هو هي ولا غيرها. ولله تعالى أسماء وصفات يستحقها بذاته إلا أنها زيادة صفة على الذات، كوصفنا إياه بأنه إله عزيز مجيد جليل عظيم ملك جبار متكبر شيء قديم، والاسم والمسمى فيها واحد.

(٣) الزيادة ضرورية لاستقامة المعنى.

(٤) يريد بذلك الذين يتأولون الصفات فيقولون مثلاً: معنى «استوى» في قوله تعالى: ﴿استوى على العرش﴾ بمعنى «استولى». أو العلو بمعنى المكانة والقدرة... إلى غير ذلك من معاني المتكلمين الذين ينكرون أن يكون لله صفات حقيقية.

كاذب عليه في الحقيقة، وذاكرٌ له بغير وَصْفِهِ. وليس هذا كالذِّكْر فيكون مذكوراً بذكر في غيره؛ لأن الذكْرَ صفةٌ للذاكر وليس بصفة للمذكور، والمذكورُ مذكورٌ بذِكْرِ الذاكِرِ، والموصوفُ ليس بموصوفٍ بوَصْفِ الواصف، ولو كان وَصْفُ الواصِفِ صفةً[1] له لكانت أوصافُ المشركين والكفرة صفاتٍ له، كنحو الزوجة والولد والأنداد. وقد نـزّه الله تعالى نفسه عن وصفهم له فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] فهو جل وعز موصوف بصفة قائمة به ليست بائنة عنه[2]، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ٦٦] وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١] وقال: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ١٢] ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠] ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وأجمعوا أنها لا تتغاير ولا تتماثل، وليس عِلْمُهُ قدرَتَهُ، ولا غيرَ قدرته، وكذلك جميع صفاته من السمع، والبصر، والوجه، واليد، ليس سمعُه بَصَرَهُ، ولا غَيْرَ بصره، كما أنه ليس هي هو ولا غيره[3].

واختلفوا في الإتيان والمجيء والنزول، فقال الجمهور منهم: إنها صفات له، كما يليق به، ولا يعبَّرُ عنها بأكثر من التلاوة والرواية، ويجب الإيمان بها، ولا يجب البحث عنها[4].

---

(١) الوصف والصفة مصدران كالوعد والعدة، ولكنّ المتكلمين فرقوا بينهما فقالوا: الوصف يقوم بالواصف والصفة تقوم بالموصوف. وهذا هو المعنى الذي يشير إليه الكلاباذي هنا.

(٢) يعني صفة حقيقية ذاتية غير إضافية.

(٣) راجع الحاشية (٢) من الصفحة السابقة.

(٤) وهذا هو مذهب السلف. سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ المبين وعلينا التصديق. وهذا الكلام مروي عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن من غير وجه، سئل عن قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. (انظر الأسماء والصفات لابن تيمية: ج ٢ ص٣١، ٣٢ - وقد ذكر مختلف أقوال العلماء في هذا الموضوع، فراجعه =

وقال محمد بن موسى الواسطي: «كما أن ذَاتَهُ غيرُ مَعْلُولَة، كذلك صِفَاتهُ غيرُ معلولة، وإظهار الصَّمَدِيَّة إياسٌ عن المطالعة على شيء من حقائق الصفات أو لطائف الذات».

وأَوَّلَها بعضُهم فقال: «معنى الإتيان منه: إيصالُه ما يريد إليه، ونُـزُولِهِ إلى الشيء: إقبالُه عليه، وقُرْبِهِ: كرامَتُهُ، وبُعْدِهِ: إهانَتُهُ» وعلى هذا جميع هذه الصفات المتشابهة[1].

الباب السابع

اخْتِلافُهُمْ في أَنَّهُ لم يَزَلْ خالِقاً

واختلفوا في أنه لم يزل خالقاً، فقال الجمهورُ منهم والأكثرون من القدماء منهم والكبار: إنه لا يجوز أن يَحْدُثَ لله تعالى صفةٌ لم يستحقَّها فيما لم يزل، وأنه لم يستحق اسم الخالق لخلقه الخَلْقَ، ولا لإحداث البرايا[2] استحق اسم الباريء، ولا بتصوير الصُّوَرِ استحقّ اسم المصوِّر؛ ولو كان كذلك لكان ناقصاً فيما لم يزل، وتَمَّ بالخَلْق، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً[3].

وقالوا: إن الله تعالى لم يزل خالقاً، بارئاً، مصوِّراً، غفوراً، رحيماً، شكوراً؛ وكذلك جميع صفاته التي وَصَفَ بها نَفْسَه يُوصف بها كلّها في الأزل؛ كما يوصف بالعلم، والقدرة، والعزّ، والكبرياء، والقوة؛ كذلك يوصف بالتكوين، والتصوير، والتخليق، والإرادة، والكرم، والغفران، والشكر.

= في باب الإيمان بالنزول).

(١) هذا هو مذهب المتأولين للصفات على غير حقيقتها. وهو مذهب المتأخرين من الأمة من الفلاسفة والمتكلمين.

(٢) البرايا: الخلق.

(٣) مضمون ما سبق أن الله تعالى لم يزل موصوفاً بالخلق والإبداع من قبل أن يخلق ويبدع. قال الحليمي: لا شك أن إثبات الإبداع والاعتراف به للباري عز وجل ليس يكون على أنه أبدع بغتة من غير علم سبق له بما هو مبدعه، لكن على أنه كان عالماً بما أبدع قبل أن يبدع، فكما وجب له عند الإبداع اسم البديع وجب له اسم الباريء (انظر الأسماء والصفات للبيهقي: ص ٤٠).

ولا يفرقون بين صفةٍ هي فعلٌ، وبين صفةٍ لا يقال إنها فعلٌ؛ نحو: العظمة، والجلال، والعلم، والقدرة.

وكذلك: أنه لما ثبت أنه سميعٌ، بصيرٌ، قادرٌ، خالقٌ، بارئٌ، مصورٌ، وأنه مَدْحٌ له، فلو استوجب ذلك بالخلق، والمصَوَّر، والمُبْرَأ لكان محتاجاً إلى الخَلْق[١]، والحاجة أمارة[٢] الحدث.

وأخرى: أن ذلك يوجب التغيُّر والزوال من حال إلى حال، فيكون غير خالق ثم يكون خالقاً، وغير مريد ثم يكون مريداً؛ وذلك نحو الأفول الذي انتفى منه خليله إبراهيم عليه السلام، بقوله: ﴿لا أحب الآفلين﴾ [الأنعام: ٧٦].

والخَلْقُ، والتكوينُ، والفِعْلُ، صفاتٌ لله تعالى، وهو بها في الأزل موصوف، والفعل غير المفعول[٣]، وكذلك التخليق، والتكوين، ولو كانا جميعاً واحداً لكان كَوْنُ المكوَّنات بأنفسها، لأنه لم يكن من الله إليها معنى سوى أنها لم تكن فكانت.

ومنع بعضُهم من أن يكون فيما لم يزل خالقاً، وقال: إنه يوجب كون الخلق معه في القدم[٤].

---

(١) يعني أنه مستغنٍ بهذه الصفات الموصوف بها عن غيره. فوصفه تعالى بأنه خالق مصور بارىء لا يتعلق بما خلق وصوّر وبرأ، بل هو موصوف بهذه الصفات قبل حدوث مخلوقاته.

(٢) الأمارة: العلامة.

(٣) هذا هو فحوى قولهم بأن الصفات ليست هي الذات بل هي زائدة على الذات، فصانع العالم عالم بعلم وحيٌ بحياة وقادر بقدرة، وهكذا في جميع الصفات. فإذا وصف بأنه قادر فقد وصف بزيادة صفة هي القدرة، وإن وصف بأنه عالم فقد وصف بزيادة صفة هي العلم. وذهبت المعتزلة والفلاسفة إلى إنكار ذلك، وقالوا: القديم ذات واحدة قديمة ولا يجوز إثبات ذوات قديمة متعددة، وإنما الدليل يدل على كونه عالماً قادراً حيّاً لا على العلم والقدرة والحياة. (انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ص ٨٤ - دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، والأسماء والصفات للبيهقي: ص ١٣٧).

(٤) يتفرع عن هذه المسألة قضية خلق القرآن أو حدوثه، وهي القضية التي نشب الخلاف فيها بين المعتزلة ومخالفيهم. وقد التجأ المعتزلة إلى هذا القول مبالغة منهم في التنزيه، فاعتبروا أن وجود شيء آخر معه منذ الأزل يدلّ على الثنائية ويطعن في مسألة التوحيد المطلق. وقد شرح الإمام الغزالي مختلف الأقوال في مسألة الأسماء والصفات التي يمكن أن يوصف بها تعالى منذ الأزل أو يوصف بها عند حدوثها، فقال: إن الأسامي المشتقة لله تعالى من هذه الصفات السبعة [يعني: القدرة والعلم والحياة والإرادة =

وأجمعوا أنه لم يزل مالكاً إلهاً ربّاً، ولا مربوب ولا مملوك، وكذلك يجوز أن يكون خالقاً بارئاً مصوراً ولا مخلوق ولا مبروء ولا مُصَوَّر.

الباب الثامن

اخْتِلافُهُمْ في الأسْماءِ

واختلفوا في الأسماء، فقال بعضهم: أسماء الله ليست هي الله[1] ولا غيره كما قالوا في الصفات. وقال بعضهم: أسماء الله هي الله[2].

= والسمع والبصر والكلام] صادقة عليه أزلاً وأبداً، فهو في القدم كان حيّاً قادراً عالماً سميعاً بصيراً متكلماً؛ وأما ما يشتق له من الأفعال كالرازق والخالق والمعز والمذلّ، فقد اختلف في أنه يصدق في الأزل أم لا... قال: والقول الجامع أن الأسامي التي يسمى بها الله تعالى أربعة:

الأول: أن لا يدل إلا على ذاته كالموجود، وهذا صادق أزلاً وأبداً.

الثاني: ما يدل على الذات مع زيادة سلب كالقديم، فإنه يدل على وجود غير مسبوق بعدم أزلاً، والباقي فإنه يدل على الوجود وسلب العدم عنه آخراً، وكالواحد فإنه يدل على الوجود وسلب الشريك، وكالغني فإنه يدل على الوجود وسلب الحاجة؛ فهذا أيضاً يصدق أزلاً وأبداً لأن ما يسلب عنه يسلب لذاته فيلازم الذات على الدوام.

الثالث: ما يدل على الوجود وصفة زائدة من صفات المعنى، كالحي والقادر والمتكلم والمريد والسميع والبصير والعالم، وما يرجع إلى هذه الصفات السبعة كالآمر والناهي والخبير ونظائره؛ فذلك أيضاً يصدق عليه أزلاً وأبداً عند من يعتقد قدم جميع الصفات.

الرابع: ما يدل على الوجود مع إضافة إلى فعل من أفعاله، كالجواد والرزاق والخالق والمعز والمذل وأمثاله. وهذا مختلف فيه، فقال قوم: هو صادق أزلاً إذ لو لم يصدق لكان اتصافه به موجباً للتغير؛ وقال قولاً: لا يصدق إذ لا خلق في الأزل فكيف يكون خالقاً؟

قال الغزالي: والكاشف للغطاء عن هذا أن السيف في الغمد يسمى صارماً وعند حصول القطع به وفي تلك الحالة على الاقتران يسمى صارماً، وهما بمعنيين مختلفين، فهو في الغمد صارم بالقوة وعند حصول القطع صارم بالفعل... فبالمعنى الذي يسمى السيف في الغمد صارماً يصدق اسم الخالق على الله تعالى في الأزل، فإن الخلق إذ أُجري بالفعل لم يكن لتجدده أمر في الذات لم يكن، بل كل ما يشترط لتحقيق الفعل موجود في الأزل. (انظر الاقتصاد في الاعتقاد: ص ١٠٠، ١٠١).

(١) هذا معنى قولهم: الاسم غير التسمية وغير المسمى.

(٢) هذا البحث استقصاه الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» فليراجع. كما استقصاه ابن تيمية في كتابه «الأسماء والصفات» في باب «الاسم والمسمى» (ج ١ ص ٩٦ - ١٢١) =

الباب التاسع
قَوْلُهُمْ في القُرْآن

أجمعوا أن القرآن كلام الله تعالى على الحقيقة، وأنه ليس بمخلوق، ولا مُحْدَث ولا حَدَث.

وأنه متلوٌّ بألسنتنا، مكتوبٌ في مصاحفنا، محفوظٌ في صدورنا، غير حالٍّ فيها، كما أن الله تعالى معلوم بقلوبنا، مذكور بألسنتنا، معبود في مساجدنا غير حالٍّ فيها.

وأجمعوا أنه ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عَرَض(١).

= واستقصى أقوال الناس في الاسم والمسمى: هل هو هو أو غيره؟ أو لا يقال هو هو ولا يقال هو غيره؟ أو هو له؟ أو يفصّل في ذلك؟ ثم قال (ص ١٠٠): والذي هو الحق عندنا قول من قال: اسم الشيء هو عينه وذاته، واسم الله هو الله، وتقدير قول القائل: بسم الله أفعل، أي بالله أفعل؛ وأن اسمه هو هو. قال: وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واستدلّ بقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

والمعنى: ثم السلام عليكما، فإن اسم السلام هو السلام.

قال: واحتج أصحابنا في ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام﴾ وهذا هو صفة للمسمى لا صفة لما هو قول وكلام، بقوله: ﴿سبح اسم ربك﴾ فإن المسبح هو المسمى وهو الله، وبقوله سبحانه: ﴿إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ ثم قال: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ فنادى الاسم وهو المسمى. وبأن الفقهاء أجمعوا على أن الحالف باسم الله كالحالف بالله في بيان أنه تنعقد اليمين بكل واحد منهما؛ فلو كان اسم الله غير الله لكان الحالف بغير الله لا تنعقد يمينه، فلما انعقد ولزم بالحنث فيها كفّارة دل على أنه اسمه هــو ويـدلّ عليه أن القائل إذا قال: ما اسم معبودكم؟ قلنا: الله. فإذا قال: وما معبودكم؟ قلنا: الله. فنجيب في الاسم بما نجيب به في المعبود، فدلّ على أن اسم المعبود هو المعبود لا غير.

(١) نقل ابن تيمية عن محمد بن الهيصم الكرامي في كتاب «جمل الكلام في أصول الدين» جملة الكلام في القرآن وأنها مبنية على خمسة فصول. راجع في ذلك الأسماء والصفات لابن تيمية: ج ١ ص ٩٤، ٩٥.

الباب العاشر

اخْتِلافُهُمْ في الكَلامِ ما هُوَ

واختلفوا في الكلام ما هو.

فقال الأكثرون منهم: كلام الله صفةُ الله لذاته لم يَـزَلْ، وإنه لا يشبه كلام المخلوقين بوجه من الوجوه، وليست له مائية[1] كما أن ذاته ليست لها مائية إلا من جهة الإثبات[2].

وقال بعضهم: كلام الله أمرٌ ونهيٌ، وخبرٌ، ووَعْد، ووَعِيد، وقَصَصٌ وأمثال، والله تعالى لم يزل آمراً ناهياً، مخبراً، واعداً مُوعداً، حامداً ذامّاً؛ إذا خُلقتم وبلَغَتْ عقولُكُم فافعلوا كذا، وأنتم مذمومون على معاصيكم مثابون على طاعتكم إذا خُلقتم، كما أنّا مأمورون مخاطبون بما نزل من القرآن على النبي ﷺ ولم نُخلق بعدُ ولم نكن موجودين.

وأجمع الجمهور منهم على أن كلام الله تعالى ليس بحروف ولا صوت ولا هجاء، بل الحُروف والصوت والهجاء دلالات على الكلام، وأنها لذوي الآلات والجوارح التي هي: اللَّهَوات[3] والشفاه والألسنة، والله تعالى ليس بذي جارحة، ولا محتاج إلى آلة، فليس كلامُه بحروف ولا صوت.

وقال بعض كبرائهم في الكلام له: من تكلم بالحروف فهو معلول، ومن كان كلامه باعتقاب[4] فهو مضطر.

وقالت طائفة منهم: كلام الله حروف وصوت؛ وزعموا أنه لا يُعرف كلامُهُ إلا كذلك مع إقرارهم أنه صفة الله تعالى في ذاته غير مخلوق. وهذا قول حارث

---

(١) المائية: الماهية.

(٢) يعني يُثبت وجودها فيقال فقط إنها موجودة، ولا يبحث في كيفيتها.

(٣) اللهوات واللهيات: جمع لَهَاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق، وقيل: هي ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم (انظر لسان العرب: مادة لها).

(٤) يعني تعاقب الحروف وتتابعها.

المحاسبي، ومن المتأخرين ابن سالم(١).

والأصل في هذا: أنه لما ثبت أن الله تعالى قديم، وأنه غير مشبهٍ للخلق من جميع الوجوه، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، فلا يكون كلامه حروفاً وصوتاً ككلام المخلوقين.

ولما أثبت الله لنفسه كلاماً بقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وجب أن يكون موصوفاً به فيما لم يزل، لأنه لو لم يكن موصوفاً به فيما لم يزل لكان كلامُه كلامَ المحدثين ولكان في الأزل موصوفاً بضدّه من سكوت أو آفة.

ولما ثبت أنه غير متغير، وأن ذاته ليست بمحلٍّ للحوادث، وجب أن لا يكون ساكتاً ثم صار متكلماً. فإذا ثبت كلامه، وثبت أنه ليس بمحدث وجب الإقرار به، ولما لم يثبت أنه حروف وصوت وجب الإمساك عنه.

ثم القرآن ينصرف في اللغة على وجوه، منها:

مصدر القراءة، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]. أي قراءته. والحروف المعجمة في المصاحف تسمى قرآناً، وقال النبي ﷺ: «**لا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إلى أَرْضِ العَدُوِّ**»(٢).

ويسمّى كلام الله قرآناً.

فكل قرآن سوى كلام الله فمحدثٌ مخلوق، والقرآنُ الذي هو كلام الله فغير مُحْدثٍ ولا مخلوق.

---

(١) لعله أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم البصري، صاحب سهل بن عبد الله التستري وراوي كلامه، لا ينتمي إلى غيره من المشايخ. وكان من أهل الاجتهاد وطريقته طريقة أستاذه سهل، وله بالبصرة أصحاب ينتمون إليه وإلى ولده أبي الحسن أيضاً (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ١١٦).

(٢) أخرجه الساعاتي في بدائع المنن (١١٤٩)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢ / ٣٦٩)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٣٦ و٢٨٦٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨ / ٢٦٥)

والقرآن إذا أُرْسِل وأُطلق لم يفهم منه غير كلام الله تعالى، فهو إذاً غير مخلوق. والسَوَقْفُ فيه لأحد أمرين: إما أن يقف فيه وهو يصفه بصفة المحدث والمخلوق فهو عنده مخلوق، ووقوفه تَقِيَّةٌ، أو يقف وهو مُنْطَوٍ على أنه صفة لله في ذاته، فلا معنى لوقوفه عن عبارة الخلق والنطق به، اللهم إلا أن ينطوي على أنه صفة لله، وصفات الله غير مخلوقة، ولم يمتحن بنافٍ يجب عليه إثباته، فيقول: القرآن كلام الله، ويسكت؛ إذ لم يأت بغير مَخلوق روايةٌ ولا تُلِيَتْ به آية، فهو عند ذلك مصيب.

الباب الحادي عشر
قَوْلُهم في الرُّؤْيَةِ

أجْمعوا على أن الله تعالى يُرَى بالأبصار في الآخرة[1]، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين[2]، لأن ذلك كرامة من الله تعالى، لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وزِيَادَةٌ﴾

---

(١) من الذين أنكروا إمكان رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة المعتزلة، وحجتهم في الإنكار أنهم نفوا أن يكون سبحانه في جهة، ولم يتمكنوا من إثبات الرؤية دونها، إفراطاً منهم في التنزيه واحترازاً عن التشبيه، فاضطرّوا بسبب ذلك إلى تأويل الآيات والأحاديث التي تثبت الرؤية. ومن جهة أخرى فإن الحشوية لم يتمكنوا من فهم موجود إلا في جهة، فأثبتوا الرؤية ولكنهم أثبتوا معها الجهة فوقعوا في التشبيه والتجسيم. أما أهل السنّة كما قال الغزالي في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» فقد تفطنوا للمسلك القصد وعرفوا أن الجهة منفية لأنها للجسمية تابعة وتتمة، وأن الرؤية ثابتة لأنها رديف للعلم وقريبة وهي تكملة له؛ فانتفاء الجسمية أوجب انتفاء الجهة التي من لوازمها، وثبوت العلم أوجب ثبوت الرؤية التي هي من روادفه وتكملاته ومشاركة له في خاصيته، وهي أنها لا توجب تغيراً في ذات المرئي بل تتعلق به على ما هو عليه كالعلم (الاقتصاد في الاعتقاد: ص ٤٨).

(٢) الأقوال في رؤية الكفار ثلاثة، ذكرها ابن تيمية في «الأسماء والصفات»: أحدها: أن الكفار لا يرون ربهم بحال، لا المظهر للكفر ولا المسرّ له. وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين، وعليه يدل عموم كلام المتقدمين، وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.
الثاني: أنه يراه من أظهر التوحيد من مؤمني هذه الأمة ومنافقيها وغبرات من أهل الكتاب وذلك في عرصة القيامة، ثم يحتجب عن المنافقين فلا يرونه بعد ذلك. وهذا قول أبي بكر بن خزيمة من أئمة أهل السنة.
الثالث: أن الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب ـ كاللص إذا رأى السلطان ـ ثم يحتجب عنهم ليعظم =

[يونس: ٢٦].

وجوَّزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع(١)؛ وإنما جاز في العقل لأنه موجودٌ، وكلُّ موجودٍ فجائزٌ رؤيتُهُ إذا وضع الله تعالى فينا الرؤية له. ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤالُ موسى عليه السلام: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] جهلاً وكفراً(٢)، ولما علقَ الله الرؤية بشريطة استقرار الجبل بقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكان ممكناً في العقل استقراره لو أقرَّه الله، وجب أن تكونَ الرؤيةُ المعلَّقة به جائزةً في العقل ممكنة(٣). فإذا ثَبتَ جوازه في العقل، ثم جاء السمع بوجوبه بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وجاءت الرواية بأنها الرؤية(٤). وقال النبي

= عذابهم ويشتدّ عقابهم. وهذا قول أبي الحسن بن سالم وأصحابه وقول غيرهم، وهم في الأصول منتسبون إلى الإمام أحمد بن حنبل وأبي سهل بن عبد الله التستري.

(١) قوله «وجوّزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع»، يعني أن الدلائل العقلية تُجيز الرؤية، والدلائل السمعية من القرآن والسنة توجب الإيمان بالرؤية.

(٢) قال الإمام الغزالي: يستحيل أن يخفى على نبي من أنبياء الله تعالى انتهى منصبه إلى أن يكلمه الله سبحانه شفاهاً أن يجهل من صفات ذاته تعالى ما عرفه المعتزلة. وهذا معلوم على الضرورة، فإن الجهل بكونه ممتنع الرؤية عند الخصم يوجب التكفير أو التضليل، وهو جهل بصفة ذاته لأن استحالتها عندهم لذاته ولأنه ليس بجهة، فكيف لم يعرف موسى عليه أفضل الصلاة أنه ليس بجهة! أو كيف عرف أنه ليس بجهة ولم يعرف أن رؤية ما ليس بجهة محال! قال: فليت شعري ماذا يضمر الخصم ويقدره من ذهول موسى ﷺ، أيقدره معتقداً أنه جسم في جهة ذو لون؟ واتهام الأنبياء صلوات الله سبحانه وتعالى عليهم وسلامه كفر صراح، فإنه تكفير للنبي ﷺ (الاقتصاد في الاعتقاد: ص ٤٦، ٤٧).

(٣) استقصى الإمام الغزالي في بحثٍ له جواز رؤية الله تعالى بالأدلّة العقلية. راجع في ذلك «الاقتصاد في الاعتقاد»: ص ٤١ ـ ٤٨.

(٤) أخرج الترمذي في الجامع الصحيح (كتاب تفسير القرآن، باب ١١) من حديث صهيب عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم تبيِّض وجوهنا وتنجّنا من النار وتدخلنا الجنة؟ قال: فيُكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه» (أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم =

ﷺ : «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لا تُضامُّونَ[1] في رُؤْيَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2] والأخبار في هذا مشهورة متواترة، وجب القول به والإيمان والتصديق له.
وما تأوَّلت النافيةُ لها فمستحيل، كقولهم: ﴿إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] أي إلى ثواب ربها ناظرة، لأن ثواب الله غير الله؛ وقولهم في: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: سؤال آية[3]، فإنه قد أراه آياته؛ وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أنه كما لا تدركه الأبصار في الدنيا كذا في الآخرة؛ وإنما نَفَى الله تعالى الإدراك بالأبصار، لأن الإدراك يوجِبُ كيفيةً وإحاطةً، فنفى ما يوجب الكيفية والإحاطة[4] دون الرؤية التي ليست فيها كيفية وإحاطة[5].

وأجمعوا أنه لا يُرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان، لأنه غاية الكرامة وأفضل النعم، ولا يجوز أن يكون ذلك إلا في أفضل المكان، ولو أُعْطُوا في الدنيا أفضل النِّعَم لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرقٌ، ولما منع الله سبحانه كليمه موسى، عليه السلام، ذلك في الدنيا، وكان مَنْ هو دونه أَحْرَى.

وأخرى: أن الدنيا دار فناء، ولا يجوز أن يُرَى الباقي في الدار الفانية، ولو رأوه في الدنيا لكان الإيمان به ضرورة.

والجملة أن الله تعالى أخبر أنها تكون في الآخرة، ولم يخبر أنها تكون في الدنيا، فوجب الانتهاء إلى ما أخبر الله تعالى به[6].

= ٢٩٧. والنسائي في الكبرى، في التفسير، والنعوت: باب المعافاة والعقوبة، وابن ماجة في المقدمة: باب فيما أنكرت الجهمية).

(١) يروى «تَضَامُّون» بفتح التاء وتشديد الميم، ويروى «تُضامُّون» بضم التاء والتشديد، ويروى «تُضامُون» بضم التاء وتخفيف الميم. فمعنى تَضامُّون وتُضامُّون: لا ينضمّ بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر اليه. ومعنى «تضامُون» بالتخفيف: لا ينالكم ضيم في رؤيته فيراه بعضكم دون بعض. وفي رواية أخرى للحديث: «تُضارُّون» بالراء المشددة، ويُروى «تُضارُون» بتخفيف الراء، ومعناهما واحد؛ أي لا يضارّ بعضكم بعضاً في رؤيته، أي لا يضايقه لينفرد برؤيته. (انظر لسان العرب: مادة ضمم، ومادة ضرر).

(٢) ورد هذا الحديث بصيغ وأسانيد مختلفة، وأخرجه أحمد والشيخان وسائر الجماعة.

(٣) يريد أنهم تأولوها بسؤال موسى عليه السلام ربّه آية من عنده.

(٤) يعني أنه تعالى نفى إدراكه بالأبصار على نفس الكيفية التي تُدرك بها الأجسام، وذلك لأن الأبصار تدرك الأجسام بالإحاطة بها واكتنافها من كل جوانبها. ورؤيته تعالى تختلف في الكيفية.

(٥) ويمكن أن يريد تعالى أنه لا تدركه الأبصار في الدنيا كما أجمعوا عليه.

(٦) قال ابن تيمية: من قال من الناس إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضالّ مخالف =

الباب الثاني عشر

اخْتِلافُ قَوْلِهِمْ في رُؤْيَةِ النبيِّ عَلَيْهِ السلام

واختلفوا في النبي ﷺ: هل رأى ربه ليلة المَسْرَى؟

فقال الجمهور منهم والكبار: إنه لم يره محمد ﷺ ببصره، ولا أحد من الخلائق في الدنيا، على ما رُوي عن عائشة أنها قالت: «مَنْ زَعَمَ أن محمداً رَأَى رَبَّهُ فقد كذب»[1] منهم: الجُنَيْد[2]، والنُّوري[3]، وأبو سعيد الخرّاز[4].

وقال بعضهم: رآه النبيُّ ﷺ ليلة المَسْرَى، وإنه خُصَّ من بين الخلائق بالرؤية كما خُصَّ موسى عليه السلام بالكلام. واحتجُّوا بخبر ابن عباس وأسماء وأنس؛ منهم أبو عبد الله القرشي[5] والشبلي[6] وبعض المتأخرين.

وقال بعضهم: رآه بقلبه ولم يره ببصره[7]، واستدلّ بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ ما

= للكتاب والسنّة وإجماع سلف الأمة، لا سيما أنهم ادّعوا أنهم أفضل من موسى، فإن هؤلاء يستتابون فإن تابوا وإلا قُتلوا (الأسماء والصفات: ج ٢ ص ٥٢٥).

(١) أخرجه بلفظ «من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب» البخاري في التوحيد باب ٤ وبدء الخلق باب ٧، وفي تفسير سورة النجم. ومسلم في كتاب الإيمان حديث ٢٨٧ و ٢٨٩. والترمذي في تفسير سورة الأنعام.

(٢) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد. انظر ترجمته ص ١٩ حاشية (٥).

(٣) أبو الحسين أحمد بن محمد النوري. انظر ترجمته ص ١٩ حاشية (٤).

(٤) أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز. انظر ترجمته ص ٢٧ حاشية (٣).

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) انظر ترجمته ص ٢٨ حاشية (١٢).

(٧) قال ابن تيمية: أما الرؤية فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين» وعائشة أنكرت الرؤية؛ فمن الناس من جمع بينهما فقال: عائشة أنكرت رؤية العين وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد. والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد، تارة يقول: رأى محمد ربه، وتارة يقول: رآه محمد؛ ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه. وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: رآه بفؤاده؛ ولم يقل أحد إنه سمع أحمد يقول رآه بعينه؛ لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن = عباس ففهم منه رؤية العين.

رأى﴾ [النجم: ١١]

ولا نعلم أحداً من مشايخ هذه العُصْبة المعروفين منهم والمتحققين به، ولم نَرَ في كتبهم ولا مصنفاتهم ولا رسائلهم ولا في الحكايات الصحيحة عنهم، ولا سمعنا ممن أدركنا منهم زعم أن الله تعالى يُرَى في الدنيا أو رآه أحدٌ من الخلق، إلا طائفة لم يعرفوا بأعيانهم.

بل زعم بعضُ الناس أن قوماً من الصوفية ادَّعوها لأنفسهم؛ وقد أَطْبق المشايخُ كلهم على تضليل من قال ذلك وتكذيب من ادّعاء، وصنَّفوا في ذلك كتباً؛ منهم أبو سعيد الخزاز، وللجنيد في تكذيب من ادّعاء وتضليله رسائل وكلام كثير.

وزعموا أن من ادَّعى ذلك فلم يعرف الله عز وجل؛ وهذه كُتُبهم تشهد على ذلك.

الباب الثالث عشر

قَوْلُهم في القَدَرِ وخَلْقِ الأفْعَالِ

أجمعوا أن الله تعالى خالقٌ لأفعال العباد كلِّها، كما أنه خالق لأعيانهم، وأن كل ما يفعلونه من خير وشرّ فبقضاء الله وقَدَرِهِ وإرادته ومشيئته، ولولا ذلك لم يكونوا عبيداً ولا مَرْبُوبين ولا مخلوقين، وقال عز وجل: ﴿قل اللَّهُ خَالِقُ كلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢].

فلما كانت أفعالهم أشياء، وجب أن يكون الله خالقها، ولو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله جلّ وعز خالق بعض الأشياء دون جميعها، ولكان قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] كذباً، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

قال شيخ الإسلام: وليس في الأدلّة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدلّ على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدلّ (انظر الأسماء والصفات لابن تيمية: ج ١ ص ٣٢٣).

ومعلوم أن الأفعال أكثرُ من الأعيان، فلو كان الله خلق الأعيان، والعبادُ خالقي الأفعال، لكان الخلق أَوْلَى بصفة المدح في الخلق من الله تعالى، ولكان خَلْقُ العباد أكثر من خلق الله، ولو كانوا كذلك لكانوا أَتَمَّ قدرة من الله تعالى وأكثر خلقاً منه، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، فنفى أن يكون خالقاً غيرُهُ، وقال الله تعالى: ﴿وقَدَّرْنَا فيها السير﴾ [سبأ: ١٨]، فأخبر أنه قدر سير العباد، وقال: ﴿واللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال: ﴿مِن شرِّ ما خَلَق﴾ [الفلق: ٢] فدلّ أن مما خلق شراً، وقال: ﴿ولا تُطِعْ من أَغْفَلْنَا قلبَه عن ذِكْرنا﴾ [الكهف: ٢٨] أي خلقنا الغفلة فيه، وقال: ﴿وأَسِرُّوا قولَكم أو اجْهَرُوا به إنه عَلِيمٌ بذات الصُّدُورِ ألاَ يعلم مَن خلق﴾ [الملك: ١٣، ١٤] فأخبر أن قولهم وسِرَّهُم وجَهْرَهم خَلْقٌ له.

وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل فيه، أعلى أمْرٍ قد فُرِغ منه، أو أمر مبتدأ؟ فقال: **«على أمْرٍ قد فُرِغَ منه»** فقال عمر: أفلا نتَّكِلُ ونَدَعُ العمل؟ فقال: **«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»**(١).

وسئل النبي ﷺ: أرأيت رُقًى نسترقيها ودواءً نتداوى به، هل يرد من قدر الله؟ قال: **«إنَّهُ مِنْ قَدَرِ الله»**(٢).

وقال: **«واللَّهِ لا يُؤمِنُ أحَدٌ حَتَّى يُؤمِنَ باللَّهِ وبالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ الله»**(٣).

---

(١) معنى الحديث مرويٌ عن عمر وأبي بكر وعلي وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم، وهو في مسند الإمام أحمد وصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ج ٣ ص ٤٢١) من حديث أبي خزامة أحد بني الحرث بن سعد بن هزيم عن أبيه قال: يا رسول الله أرأيت دواء نتداوى به ورقى نسترقيها وتقى نتقيه هل ترد ذلك من قدر الله تبارك وتعالى من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه من قدر الله عزوجل. وأخرجه الترمذي بنحوه في كتاب الطب باب ٢١، وكتاب القدر باب ١٢. وابن ماجة في الطب باب ١.

(٣) الإيمان بالقدر خيره وشره ورد معناه في حديث الإيمان والإسلام من حديث عمر رضي الله عنه عند مسلم ومن حديث عامر أو أبي عامر أو أبي مالك الأشعري عند أحمد في مسنده (ج ٤ ص ١٢٩ و ١٦٤). وأخرج الإمام أحمد (ج ٢ ص ١٨١ و ٢١٢) من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن المرء حتى يؤمن بالقدر خيره وشره» وفي جامع الترمذي (كتاب القدر باب ١٠) من حديث جابر بن =

ولما جاز أن يخلق الله تعالى العَيْنَ[1] الذي هو شرّ، جاز أن يخلق الفعل الذي هو شرّ.

ومُجْمَعٌ على أن حركة المرتعش خلق الله، فكذلك حركة غيره؛ غير أن الله تعالى خلق لهذا حركةً واختياراً، وخلق للآخر حركة ولم يخلق له اختياراً.

قال أبو بكر الواسطي[2] في قوله تعالى: ﴿وله ما سَكَنَ في اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ [الأنعام: ١٣]، قال: «من ادَّعى شَيْئاً مِنْ مُلْكِهِ، وهو ما سَكَنَ في اللَّيْلِ والنَّهارِ مِنْ خَطْرَةٍ وحَرَكَةٍ أنها له أو بِهِ أو إليه أو منه، فقد جَاذَبَ القَبْضَةَ وأَوْهَنَ العِزَّةَ».

وفي قوله تعالى: ﴿ألا له الخَلْقُ والأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] خَلْقُ إيجاد وأَمْرُ إطلاق، ما لم يأمر الجوارح أَمْرَ إطلاق لم توافقه في شيء، كذلك المخالفة.

الباب الرابع عشر

قَوْلُهُمْ في الاسْتِطَاعَةِ

أجمعوا أنهم لا يتنفسون نَفَساً ولا يطرفون طرفة ولا يتحركون حركة إلا بقوة يُحدثها الله تعالى فيهم واستطاعةٍ يخلقها الله لهم مع أفعالهم لا يتقدمها ولا يتأخر عنها ولا يوجد الفعل إلا بها، ولولا ذلك لكانوا بصفة الله تعالى يفعلون ما شاءوا ويحكمون ما أرادوا، ولم يكن الله القويّ القدير بقوله: ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ [إبراهيم: ٢٧] أَوْلى من عبد حقير ضعيف فقير.

ولو كانت الاستطاعةُ هي الأعضاء السليمة لاسْتَوى في الفعل كلّ ذي أعضاء سليمة، فلما رأينا ذوي أعضاء سليمة ولم نَرَ أفعالهم، ثبت أن الاستطاعة ما يَرِدُ[3] من

= عبدالله عن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه». ولم أجد الحديث بنفس لفظ الكلاباذي هنا.

(١) العين: أن تصيب الإنسان بعين؛ قال في لسان العرب (مادة عين): عانَ الرجلَ بعينه عَيْناً، فهو عائنٌ، والمصاب مَعِينٌ، على النقص، ومعيون، على التمام: أصابه بالعين.

(٢) أبو بكر محمد بن موسى الواسطي المعروف بابن الفرغاني. انظر ترجمته ص ٢٨ حاشية (٧).

(٣) يعني من الله تعالى، وقد عرّف الجرجاني في كتابه «التعريفات» الاستطاعة بقوله: «هي عَرَض يخلقه =

القوة على الأعضاء السليمة، وتلك القوة متفاضلة في الزيادة والنقصان ووقت دون وقت، وهذا يشاهده كُلٌّ من نفسه.

ثم لما كانت القوة عَرَضاً، والعَرَضُ لا يبقى بنفسه[1] ولا ببقاء فيه؛ لأن ما لا يقوم بنفسه ولا يقوم به غيره لا يبقى ببقاءٍ في غيره، لأن بقاء غيره ليس ببقاء له، بطل أن يكون له بقاء، وإذا كان كذلك وجب أن تكون قوة كل فعل غير قوة غيره. ولولا ذلك لم تكن للخلق حاجة إلى الله تعالى عند أفعالهم، ولا كانوا فقراء إليه، ولكان قوله تعالى: ﴿وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] لا معنى له.

ولو كانت القوة قبل الفعل وهي لا تبقى لوقت الفعل، لكان الفعل بقوة معدومة، ولو كانت كذلك لكان وجود الفعل من غير قوة، وفي ذلك إبطال الربوبية والعبودية جميعاً؛ لأنه لو كان كذلك لكان يجوز وقوع فعل من غير ذي قُوًى، ولو جاز ذلك لجاز أن يكون وجودها بأنفسها من غير فاعل، وقد قال الله تعالى في قصة موسى والعبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف: ٦٧]، وقوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صَبْراً﴾ [الكهف: ٨٢]، يريد لا تَقْوَى عليه.

وأجمعوا أن لهم أفعالاً واكتساباً على الحقيقة هم بها مثابون وعليها معاقبون؛ ولذلك جاء الأمر والنهي، وعليه ورد الوعد والوعيد.

ومعنى الاكتساب: أن يفعل بقوة مُحْدَثَة.

وقال بعضهم: معنى الاكتساب: أن يفعل لجر منفعةٍ أو دفع مضرة[2] لقوله تعالى: ﴿لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

= الله في الحيوان يفعل به الأفعال الاختيارية». وهذا التعريف موافق لما يورده الكلاباذي هنا من أن الاستطاعة ليست ذاتية في الحيوان إنما هي من قِبَل الله تعالى.

(١) وليس وجوده شرطاً لوجود الشيء، حسب تعبير الفلاسفة في تعريفهم للعرض، ولهم تعريفات أخرى تتضمن نفس هذا المعنى، منها: يقال عرض لكل معنى موجود للشيء خارج عن طبعه، ويقال عرض لكل معنى يحمل على الشيء لأجل وجوده في آخر يفارقه، ويقال عرض لكل معنى وجوده في أول الأمر لا يكون.

(٢) هذا تعريف الفقهاء للاكتساب أو الكسب، والتعريف السابق «أن يفعل بقوة محدثة» هو تعريف الفلاسفة والمتكلمين.

وأجمعوا أنهم مختارون لاكتسابهم مريدون له، وليسوا بمحمولين عليه، ولا مُجْبرين فيه، ولا مستكرهين له.

ومعنى قولنا: «مُخْتَارُون» أن الله تعالى خلق لنا اختياراً فانتفى الإكراه فيها، وليس ذلك على التفويض.

قال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: «إنَّ الله تعالى لا يُطَاعُ بإكْراهٍ، ولا يُعْصى بغَلَبةٍ، ولم يُهْمِلِ العِبَادَ مِنَ المَمْلَكَةِ».

وقال سهل بن عبد الله[1]: «إنَّ الله تعالى لم يُقَوِّ الأبْرَارَ بالْجَبْرِ، إنَّما قَوَّاهُمْ باليَقِينِ».

وقال بعض الكبراء: «مَنْ لم يُؤْمِنْ بالقَدَرِ فَقَدْ كَفَرَ، ومَنْ أَحَالَ المَعَاصِي على الله فَقَدْ فَجَرَ».

الباب الخامس عشر
قَوْلُهُم في الْجَبْرِ

وأحالَ بعضُهم الجَبْرَ، وقال لا يكون الجبر إلا بين المُمْتَنِعَيْن، وهو أن يأمر الآمر ويمتنع المأمور فيجبره الآمر عليه. ومعنى الإجبار: أن يُستكره الفاعلُ على إتيان فعل هو له كارهٌ ولغيره مُؤْثِر، فيختار المُجْبَرُ إتيان ما يكرهه ويترك الذي يحبه، ولولا إكراهه له وإجباره إياه لفعل المتروك وترك المفعول. ولم نجد هذه الصفة في اكتسابهم الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، بل اختار المؤمن الإيمان وأحبه واستحسنه وأراده وآثره على ضده، وكره الكفر وأبغضه واستقبحه ولم يُرِدْهُ وآثر عليه ضده[2].

---

(١) سهل بن عبد الله التستري. انظر ترجمته ص ١٩ حاشية ١.

(٢) هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الجبر. والجبر هو نفي الفعل حقيقة من العبد وإضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف ذكرهم الشهرستاني في الملل والنحل، فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة أن تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل وسمي ذلك كسباً فليس بجبري. ومن الجبرية الخالصة فرقة =

والله خلق له الاختيار والاستحسان والإرادة للإيمان، والبغض والكراهة والاستقباح للكفر، قال الله تعالى: ﴿حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُم وكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

واختار الكافر الكفر واستحسنه وأحبّه وأراده وآثره على ضدِّه، وكره الإيمان وأبغضه واستقبحه ولم يُرِدْهُ وآثر عليه ضِدَّه.

والله تعالى خلق ذلك كله، قال الله عز وجل: ﴿كذلك زَيَّنَّا لكلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال: ﴿ومن يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وليس أحدهما بممنوع عن ضد ما اختاره، ولا بمحمول على ما اكتسبه؛ ولذلك وجبت حجة الله عليهم، وحقَّ عليهم القول من ربهم، ومأوى الكافرين النار بما كانوا يكسبون ﴿وما ظَلَمْنَاهُم ولكن كانُوا هُمُ الظالمين﴾ [الزخرف: ٧٦]، ويفعل الله ما يشاء ﴿لا يُسْأَلُ عما يَفْعَلُ وهم يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال ابن الفرغاني[1]: «ما مِنْ خَطْرَةٍ ولا حَرَكَةٍ إلا بالأمْرِ، وهو قوله: كُنْ، فَلَهُ الخَلْقُ بالأَمْرِ، وله الأَمْرُ بالخَلْقِ[2]، والخَلْقُ صِفَتُه، فلم يَدَعْ بهذين الحَرْفَيْنِ لعَاقِلٍ يَدَّعي شيئاً من الدنيا والآخرة، لا لَهُ ولا بِهِ ولا إلَيْهِ، فاعلم أنه لا إله إلا الله».

الباب السادس عشر
قَوْلُهُمْ في الأَصْلَحِ

أجمعوا على أن الله تعالى يفعل بعباده ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد، كان ذلك

= الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الذي قتله سلم بن أحوز المازني في آخر ملك بني أمية. (انظر الملل والنحل للشهرستاني: ج ١ ص ٧٢ و٧٣ ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩٠ م).

(١) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي. انظر ترجمته ص ٢٨ حاشية ٧.

(٢) قوله «له الخلق بالأمر» أي أنه تعالى يخلق بكلمة كن؛ وقوله «له الأمر بالخلق» لعلّه يريد أن أمر المخلوقين بيده تعالى.

أصلح لهم أو لم يكن[١]، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهم يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولولا ذلك لم يكن بين العبد والرب فرق. وقال الله تعالى: ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلي لهم خَيْرٌ لأنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهم كافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الذين لم يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

والقول بالأصلح يوجب نهاية القدرة وتنفيد ما في الخزائن وتعجيز الله تعالى عن ذلك[٢]؛ لأنه إذا فعل بهم غاية الصلاح فليس وراء الغاية شيء، فلو أراد أن يزيدهم على ذلك الصلاح صلاحاً آخر لم يقدر عليه، ولم يجد بعد الذي أعطاهم ما يعطيهم مما يصلح لهم، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأجمعوا أن جميع ما فعل الله بعباده من الإحسان والصحة والسلامة والإيمان والهداية واللطف تفضلٌ منه، ولو لم يفعل ذلك لكان جائزاً وليس على الله بواجب، ولو كان ما يفعل مما يفعل شيئاً واجباً عليه لم يكن مستحقّاً للحمد والشكر.

وأجمعوا أن الثواب والعقاب ليس من جهة الاستحقاق[٣]، لكنه من جهة المشيئة[٤] والفضل والعدل، لأنهم لا يستحقون على أجرام منقطعة عقاباً دائماً، ولا

---

(١) رعاية الأصلح من الأركان في مذهب المعتزلة، وقد اتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد.

(٢) قوله «يوجب نهاية القدرة.... الخ» يريد أن القول بالأصلح يوجب على قائليه أن يحدّوا من قدرة الله تعالى، فيجعلوا هذه القدرة ضمن إطار معين لا يتعداه وهو وجوب فعل الأصلح، ومتى فعلوا ذلك نفوا القدرة اللامتناهية.

(٣) وهذه المسألة أيضاً من كبريات المسائل التي اختلف فيها أهل السنة مع المعتزلة. واستحقاق الثواب والعقاب يسمى عند المعتزلة بمسألة الوعد والوعيد، فقد اتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضيل، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحقّ الخلود في النار لكن يكون عقابه أخفّ من عقاب الكفار.

(٤) المقصود بالمشيئة هنا الاختيار الذي يقابل الإلزام.

على أفعال معدودة ثواباً دائماً غير معدود[1].

وأجمعوا أنه لو عذَّب جميع من في السموات ومن في الأرض لم يكن ظالماً لهم، ولو أدخل جميع الكافرين الجنة لم يكن ذلك محالاً؛ لأن الخلق خَلْقُه والأمْرَ أمْرُه، ولكنه أخبر أنه يُنعم على المؤمنين أبداً ويعذِّب الكافرين أبداً، وهو صادق في قوله، وخبره صدق، فوجب أن يفعل بهم ذلك ولا يجوز غيره، لأنه لا يكذب في ذلك، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأجمعوا أنه لا يفعل الأشياء لعِلَّةٍ، ولو كان لها علة لكان للعلَّة علة، إلى ما لا يتناهى؛ وذلك باطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنها مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وقال: ﴿هو اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولا يكون شيء منه ظلماً ولا جوراً؛ لأن الظلم إنما صار ظلماً لأنه منهيّ عنه، ولأنه وَضْعُ الشيء في غير موضعه؛ والجورُ إنما كان جوراً لأنه عَدْلٌ عن الطريق الذي بيّن له والمثال الذي مثّل له من فوقه ومن هو تحت قدرته؛ ولما لم يكن الله تحت قدرة قادر ولا كان فوقه آمر ولا زاجر، لم يكن فيما يفعله ظالماً ولا في شيء يحكم به جائراً، ولم يَقْبُحْ منه شيء؛ لأن القبيح ما قبّحه، والحسن ما حسّنه.

وقال بعضهم: «القَبيحُ ما نَهى عَنْهُ، والحَسَنُ ما أَمَرَ بِهِ».

وقال محمد بن موسى[2]: «إنما حَسُنَتِ المُسْتَحْسَنَاتُ بتجلِّيهِ، وقَبُحَتِ المُسْتَقْبَحَاتُ باسْتِتَارِهِ، وإنّما هما نَعْتانِ يَجْرِيَانِ على الأَبَدِ بما جَرَيا في الأَزَلِ،

---

(١) تبريره هنا غير مستقيم؛ فقوله «لأنهم لا يستحقون على أجرام منقطعة عقاباً دائماً... الخ» لا يتناسب مع مقولة أن الثواب والعقاب ليسا من جهة الاستحقاق. فكأنه بذلك نفى الاستحقاق ثم عاد وأثبته دون أن يدري.

(٢) محمد بن موسى الواسطي، ابن الفرغاني. راجع ص ٢٨ حاشية ٧.

معناه: كُلّ ما رَدَّكَ إلى الحَقِّ من الأشْيَاءِ فهو حَسَنٌ، وما رَدَّكَ إلى شيء دُونَهُ فهو قَبيحٌ، فالقَبِيحُ والحَسَنُ ما حَسَّنَهُ الله في الأزَلِ وما قَبَّحَهُ».

ومعنى آخر: أنّ المستحسن هو ما تخلّى عن سَتْر النَّهْي، فلم يكن بين العبد وبينه ستر، والقبيح: ما كان وراء الستر، وهو النهي على معنى قوله عليه السلام: «وعَلَى الأبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ»[1] قيل: الأبواب المفتحة محارم الله، والستور حدوده[2].

الباب السابع عشر

قَوْلُهم في الوَعْدِ والوَعِيدِ

أجمعوا أن الوعيدَ المطلق في الكفار والمنافقين، والوَعْدَ المطلق في المؤمنين والمحسنين.

وأوجب بعضهم غفران الصغائر باجتناب الكبائر بقوله: ﴿إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[3] الآية [النساء: ٣١]. وجعلها بعضهم كالكبائر في جواز العقوبة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ج ٤ ص ١٨٢) من حديث النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه. والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

(٢) هذا التفسير كما رأيت في الحاشية السابقة هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم. وفيه «والسوران حدود الله تعالى».

(٣) تتمة الآية: ﴿... نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ قال أبو حيّان الأندلسي: والظاهر أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وسيئات وهي التي عبّر عنها أكثر العلماء بالصغائر. قال: وقد اختلفوا في ذلك، فذهب الجمهور إلى انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر، فمن الصغائر النظرة واللمسة والقبلة ونحو ذلك مما يقع عليه اسم التحريم، وتكفُّر الصغائر باجتناب الكبائر. وذهب جماعة من الأصوليين منهم الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني وأبو المعالي وأبو نصر عبد الرحيم القشيري إلى أن الذنوب كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، يقال الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة الى الزنا، ولا ذنب يغفر باجتناب ذنب آخر بل كل ذنب كبيرة وصاحبه ومرتكبه في المشيئة غير الكفر، وحملوا قوله تعالى: ﴿كبائر ما تنهون عنه﴾ على أنواع الشرك =

عليها، لقوله تعالى: ﴿وإنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُمْ أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ به الله﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وقالوا: معنى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١] هو الشِّرْك والكفر وهو أنواع كثيرة[١]، فجاز أنْ يُطْلَق عليها اسم الجمع. وفيه وجه آخر، وهو أن الخطاب خرج على الجمع، فكانت كبيرةُ كلِّ واحدٍ منهم عند الجمع كبائر[٢].

وجوَّزوا غفران الكبائر بالمشيئة والشفاعة.

وأوجبوا الخروج من النار لأهل الصلاة لا محالة بإيمانهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٣] [النساء: ٤٨]، فجعل المشيئة شرطاً فيما دون الشِّرْك.

وجملةُ قولهم أنَّ المؤمن بين الخوف والرجاء، يرجو فضل الله في غفران الكبائر[٤]، ويخاف عدله في العقوبة على الصغائر؛ لأن المغفرة مضمون المشيئة، ولم يأت مع المشيئة شرط كبيرة ولا صغيرة.

ومن شدَّدَ وغلَّظ في شرائط التوبة وارتكاب الصغائر فليس ذلك منهم على إيجاب الوعيد، بل ذلك على تعظيم الذنب في وجوب حق الله في الانتهاء عما نَهى

= والكفر (انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيّان، ج ٣ ص ٢٣٣).

(١) هذا قول الأصوليين الذين ذكرناهم في الحاشية السابقة، فراجعها. قالوا: ويؤيده قراءة «كبيرة» على التوحيد، وقوله ﷺ: «من اقتطع حقّ امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة» فقال له رجل: يا رسول الله وإن كان يسيراً؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»؛ قالوا فقد جاء الوعيد على اليسير كما جاء على الكثير. قال أبو حيّان: وروي عن ابن عباس مثل قول هؤلاء، قال: «كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة». (انظر المرجع السابق: ج ٣ ص ٢٣٣).

(٢) قوله: «وفيه وجه آخر وهو أن الخطاب.... الخ». هذا جواب ضعيف لا ينهض لمقاومة من قالوا إن اجتناب الكبائر يوجب غفران الصغائر بقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه...﴾ وقد مرّ معنا في الحاشيتين السابقتين أن قراءة «كبائر» على الجمع ظاهرها يؤيد حجج القائلين بالقول الأول، وأن القائلين بأن كل الذنوب كبائر يؤيدون وجهة نظرهم بقراءة «كبير» على الإفراد.

(٣) قال البيهقي: يعني ما دون الشرك لمن يشاء بلا عقوبة، وقد يعاقب بعضهم على ما اقترف من الذنوب ثم يعفو عنه ويدخل الجنة بإيمانه لقوله: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ وقوله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيماً﴾. (انظر الاعتقاد للإمام البيهقي: ص ١٠١ ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦)

(٤) إلا الشرك.

عنه[1]، ولم يجعلوا في الذنوب صغيرةً إلا عند نسبة بعضها إلى بعض، فطالبوا النفوس بإيفاء حق الله تعالى، والانتهاء عما نهى الله عنه، والوفاء بما أمر به الله، ورؤية التقصير في شرائط العمل.

وهم مع ذلك كله أرْجَى الناس للناس، وأشدّهم خوفاً على أنفسهم، حتى كأن الوعيد لم يَرِدْ إلا فيهم، والوَعْدَ لم يكن إلا لغيرهم.

قيل للفضيل[2] عشية عرفة: كيف ترى حال الناس؟

قال: «مَغْفُورُونَ لَوْلا مَكَانِي فيهِمْ».

وقال السريّ السقطيّ[3]: «إنّي لأَنْظُرُ في المِرْآةِ كُلَّ يَوْمٍ مِراراً مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ قدِ اسْوَدَّ وَجْهِي».

وقال: «لا أُحِبُّ أَنْ أَمُوتَ حَيْثُ أُعْرَفُ مَخَافَةَ أَنْ لا تَقْبَلَني الأَرْضُ فأكُونَ فَضِيحةً».

وهم أحسن الناس ظنوناً بربهم.

قال يحيى[4]: «مَنْ لم يُحْسِنْ باللَّهِ ظَنَّهُ، لم تَقْوَ باللَّهِ عَيْنُهُ»[5].

---

(١) قال ابن حجر الهيثمي في كتاب «الزواجر» بعد أن عرض أقوال الأئمة في الكبائر والصغائر، وأن منهم من ينكر أن في الذنوب صغيرة بل قالوا سائر المعاصي كبائر، ومنهم من يرى أن المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر، قال: وإنما الخلاف في التسمية والإطلاق لإجماع الكل على أن من المعاصي ما يقدح في العدالة ومنها ما لا يقدح فيها، وإنّما الأوّلون فروا من هذه التسمية فكرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله تعالى وشدة عقابه وإجلالاً له عز وجل عن تسمية معصيته صغيرة، لأنها بالنظر إلى باهر عظمته كبيرة أي كبيرة، ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم، بل قسموها إلى صغائر وكبائر لقوله تعالى: ﴿وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ فجعلها رتباً ثلاثة، وسمّى بعض المعاصي فسوقاً دون بعض، وقوله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ (انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ١ ص ٧ و ٨ ـ دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٧).

(٢) الفضيل بن عياض. انظر ترجمته ص ٢٣ حاشية ٣.

(٣) انظر ترجمته ص ١٢ حاشية ٢.

(٤) يعني أبا زكريا يحيى بن معاذ الرازي. انظر ترجمته ص ٢٩ حاشية ٥.

(٥) وقال يحيى أيضاً: أوثق الرجاء رجاء العبد ربه، وأصدق الظنون حسن الظنّ بالله (حلية الأولياء. ج ١٠ ص ٥٨).

وهم أسوأ الناس ظنوناً بأنفسهم، وأشدهم إزراءً بها، لا يرونها أهلاً لشيء من الخير ديناً ولا دنيا.

والجملة أن الله تعالى قال: ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً واخر سَيِّئاً﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، أخبر أن المؤمن له عملان: صالح وسيّىء، فالصالح له والسيّىء عليه.

وقد وعد الله تعالى على ما له ثواباً، وأوعد على ما عليه عقاباً، والوعيد حقُّ الله تعالى من العباد، والوَعْدُ حقُّ العباد على الله فيما أوجبه على نفسه، فإن استوفى منهم حَقَّ نفسه ولم يوفهم حقهم لم يكن ذلك لائقاً بفضله مع غناه عنهم وفقرهم إليه، بل الأليق بفضله والأحرى بكرمه أن يوفيهم حقوقهم، ويزيدهم من فضله، ويَهَبَ منهم حق نفسه، وبذلك أخبر عن نفسه فقال: ﴿إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٠]، وفي قوله: ﴿من لدنه﴾ أنه تفضل وليس بجزاء.

الباب الثامن عشر

قَوْلُهُمْ في الشَّفَاعَةِ(١)

أجمعوا على أن الإقرار بجملة ما ذكر الله تعالى في كتابه وجاءت به الروايات عن النبي ﷺ في الشفاعة واجب، لقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، ﴿عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلَّا لمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقول الكفار: ﴿فما لنا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

وقال النبي ﷺ: «شَفَاعَتي لأهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتي»(٢)، وقوله: «واخْتَبَأْتُ

---

(١) ذكر في هذا الباب أبحاثاً أخر غير الشفاعة، منها الصراط والميزان وخلق الجنة والنار وغيرها.

(٢) من حديث أنس بن مالك، أخرجه الإمام أحمد في المسند (ج ٣ ص ٢١٣). ،أخرجه أيضاً أبو داود في كتاب السنة باب ٢١، والترمذي في القيامة باب ١١، وابن ماجة في الزهد باب ٣٧.

دَعْوَتي الشَّفَاعَةَ لأُمَّتي»[1].

وأقروا بالصراط، وأنه جسر يمد على جهنم. وقرأت عائشة رضي الله عنها: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] قالت: فأين الناس حينئذ يا رسول الله؟ فقال: «عَلَى الصِّرَاطِ»[2].

وأقروا بالميزان، وأن أعمال العباد توزن، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، وإن لم يعلموا كيفية ذلك، وقولهم في هذا وأمثاله مما لا يُدْرِكُ العبادُ كيفيته: آمنّا بما قال الله على ما أراد الله، وآمنّا بما قال رسول الله ﷺ على ما أراد رسول الله[3].

---

(١) رواه بألفاظ مختلفة البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والدارمي ومالك وأحمد. ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد (ص ١٠٥) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوة قد دعا بها في أمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي» قال البيهقي: وبمعناه رواه أبيّ بن كعب وأبو هريرة وعبد الرحمن بن أبي عقيل وغيرهم عن النبي ﷺ ورواه عن أبي هريرة بلفظ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً». وفي باب الشفاعة أحاديث أخر عن النبي ﷺ ذكرها البيهقي في كتاب الاعتقاد (ص ١٠٤ - ١١٤)، منها: «أنا أول شفيع يوم القيامة....» من حديث أنس، ومنها: «أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر». من حديث جابر بن عبدالله.

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم حديث ٢٩، والترمذي في تفسير سورة إبراهيم، وابن ماجة في الزهد باب ٣٣، والدارمي في الرقاق باب ١٨، والإمام أحمد (ج ٦ ص ٣٥، ١٠١، ١٣٤، ٢١٨).

(٣) هذا رأي الجمهور من أهل السنة حيث خالفوا المشبّهة والمؤوّلة، فالمشبهة قالوا مثلاً في الآيات التي تشير إلى الوجه واليد وغيرها: لله يد لا كأيدينا ووجه لا كوجوهنا، فأسرفوا في التشبيه، بينما أوّل الآخرون جميع هذه الآيات فحملوا اليد على القدرة أو النعمة وحملوا الوجه على الذات.... الخ. ووقف جمهور السلف موقفاً عدلاً فلم يشبّهوا ولم يسرفوا في التأويل. وقد لخّص ابن قتيبة هذا الرأي في ردّه على الجهمية، فقال: قالوا في قول الله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ إن اليد ههنا النعمة، وما تنكر أن اليد قد تتصرف على ثلاثة وجوه من التأويل، أحدها النعمة والآخر القوة من الله.... والوجه الثالث اليد بعينها؛ ولكنه لا يجوز أن يكون أراد في هذا الموضع النعمة لأنه قال: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ والنعم لا تغلّ، وقال: ﴿غلّت أيديهم﴾ معارضة بمثل ما قالوا، ولا يجوز أن يكون أراد غلّت نعمهم، ثم قال: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ ولا يجوز أن يريد نعمتاه مبسوطتان؛ وكان مما احتجوا به للنعمة قوله: ﴿غلّت أيديهم﴾ لو أراد اليد بعينها لم يكن في الأرض يهودي غير مغلول اليد؛ فما

وأقرّوا أن الله تعالى يُخْرِجُ من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان على ما جاء في الحديث[1].

وأقروا بتأبيد الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان، وأنهما باقيتان أبد الآبد لا تفنيان ولا تبيدان، وكذلك أهلوهما باقون فيهما، خالدون مخلَّدون، مُنَعَّمون ومُعَذَّبُون، لا ينفد نعيمهم، ولا ينقطع عذابهم.

وشهدوا لعامة المؤمنين بالإيمان في ظاهر أمورهم، ووَكَلُوا سرائِرَهم إلى الله تعالى.

= أعجب هذا الجهل والتعسف في القول بغير علم، ألم يسمعوا بقول الله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ وبقوله: ﴿قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾ وقوله: ﴿لعنوا بما قالوا﴾ واللعن الطرد، فهل قتل الله الناس جميعاً؟ وهل قتل قوماً وطرد آخرين؟ ولم يسمعوا بقول العرب: قاتله الله ما أبطشه، وأخزاه الله ما أشعره، ويقول النبي ﷺ لرجل: «تربت يداه» أي افتقر، ولم يفتقر، ولامرأة: «عقري حلقى» ولم يعقرها الله ولا أصاب حلقها بوجع. فإن قال لنا: ما اليدان ههنا؟ قلنا له: هما اليدان اللتان تعرف الناس كذلك، قال ابن عباس في هذه الآية: «اليدان يدان»، وقال النبي ﷺ: «كلتا يديه يمين» فهل يجوز لأحد أن يجعل اليدين ههنا نعمة أو نعمتين؟ وقال: ﴿لما خلقت بيدي﴾. قال ابن قتيبة: وتأويل الآية أن اليهود قالت يد الله مغلولة، أي ممسكة عن العطاء، فضرب الغلّ في اليد مثلاً لأنه يقبض اليد عن أن تمتدّ وتنبسط كما تقبض يد البخيل، فقال الله تعالى: ﴿غلّت أيديهم﴾ أي قبضت عن العطاء والإنفاق في الخير والبّر، ﴿ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان﴾ بالعطاء ﴿ينفق كيف يشاء﴾، ومثله قوله: ﴿جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون﴾ أي قبضنا أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله بموانع كالأغلال.

ثم ردّ ابن قتيبة على تأويلهم لبعض الآيات كقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ أن الروح هو الأمر وتأويلهم لقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ أي منتظرة. وغيرها من الآيات. (انظر: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، ص ٢٦ وما بعدها ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥).

(١) ورد في هذا المعنى أحاديث عند البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد. منها في صحيح البخاري (كتاب التوحيد باب ٣٦) عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة شُفّعتُ فقلت يا ربّ أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة، فيدخلون، ثم أقول أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء». وفي حديث الشفاعة عن أنس أيضاً: «. . . . فيقال محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسلْ تُعْطَ واشفع تُشَفَّعْ، فأقول يا ربّ أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان».

وأقرّوا أن الدار دار إيمان وإسلام، وأن أهلها مؤمنون مسلمون. وأهل الكبائر عندهم مسلمون، مؤمنون بما معهم من الإيمان، فاسقون بما فيهم من الفسق.

ورأوا الصلاة خَلْفَ كل برٍّ وفاجر.

ورأوا الصلاة على كلِّ من مات من أهل القبلة.

ورأوا الجمعة والجماعات والأعياد واجبة على من لم يكن له عذر من المسلمين مع كل إمام بَرٍّ أو فاجر. وكذلك الجهاد معهم والحج.

ورأوا الخلافة حقّاً، وأنها في قريش.

وأجمعوا على تقديم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ورأوا الاقتداء بالصحابة والسلف الصالح، وسكتوا على القول فيما كان بينهم من التشاجر، ولم يروا ذلك قادحاً فيما سبق لهم من الله عز وجل من الحسنى.

وأقرّوا أن من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة فهو في الجنة، وأنهم لا يعذبون بالنار.

ولا يرون الخروج على الولاة بالسيف وإن كانوا ظَلَمَة[1].

ويرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً لمن أمكنه بما أمكنه[2]، مع

---

(١) اعتمادهم في ذلك على احاديث متعددة عن النبي ﷺ، منها ما أورده البيهقي في كتاب «الاعتقاد» «باب طاعة الولاة ولزوم الجماعة» عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». وعن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: «سيعمل عليكم أمراء بعدي تعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلّوا». وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً إلا مات ميتة جاهلية».

لكننا إذا نظرنا إلى سيرة الخلفاء الراشدين نراهم يأمرون الناس برد الوالي الظالم ولو بالسيف كما روي أن الصحابة قالوا لعمر: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا. وقد روي أن أبا بكر الصديق خطب الناس بعد مبايعته بالخلافة فقال: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

(٢) يعني بيده إن أمكن، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان كما ورد في الحديث.

شفقة ورأفة ورفق ورحمة ولطف ولين من القول.

ويؤمنون بعذاب القبر، وبسؤال منكر ونكير.

وأقروا بمعراج النبي ﷺ، وأنه عُرِجَ به إلى السماء السابعة، وإلى ما شاء الله، في ليلةٍ، في اليقظة، ببدنه.

ويُصدِّقُونَ بالرؤيا، وأنها بشارة للمؤمنين وإنذار لهم وتوقيف.

وعندهم أن من مات أو قُتِلَ فبأَجَلِهِ. ولا يقولون باخْتِرام[1] الآجال، وأنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون

الباب التاسع عشر

قَوْلُهُمْ في الأَطْفَالِ[2]

وأقرّوا أن أطفال المؤمنين مع آبائهم في الجنة[3].

واختلفوا في أطفال المشركين، فمنهم من قال: لا يعذِّبُ الله بالنار إلا بعد لزوم

---

(١) يقال: اخْتُرِمَ فلان عنا: مات وذهب. واخترمته المنيَّة من بين أصحابه. أخذته من بينهم. واخترمهم الدهر وتخرّمهم أي اقتطعهم واستأصلهم (لسان العرب: مادة خرم). وقوله هنا «ولا يقولون باخترام الآجال» يريد أنهم يرون أن الأجال بيد الله ولا دخل للدهر فيها.

(٢) أدرج تحت هذا العنوان مسائل أخرى كالمسح على الخفين والرزق الحرام والجدال والمراء في الدين.... الخ.

(٣) ورد عن عائشة أم المؤمنين حديث يشير إلى عدم القطع بكونهم مع آبائهم في الجنة، وقد روى هذا الحديث البيهقي في كتاب «الاعتقاد» عن عائشة قالت: أتي النبي ﷺ بصبي من الأنصار ليصلي عليه، قال: فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يدره! فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم. وخلق النار وخلق لها أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم».

وقد روي عن ابن عباس في أطفال المسلمين أن الله تبارك وتعالى أكرم هذه الأمة بأن ألحق بهم ذرياتهم في الجنة؛ عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فأنزل الله تعالى بعد هذا: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم﴾ بإيمان، فأدخل الله عز وجل الأبناء بصلاح الأباء الجنة.

قال البيهقي: فيحتمل أن يكون خبر عائشة رضي الله عنها في ولد الأنصاري قبل نزول الآية، فجرى رسول الله ﷺ على الأصل المعلوم في جريان القلم بسعادة كل نسمة أو شقاوتها، فمنع من القطع =

الحجة على من عاند وكفر ووجبت عليه الأحكام. وأرجأ الأكثرون أمرهم إلى الله تعالى، وجوّزوا تعذيبهم وتنعيمهم[1].

وأجمعوا على أن المسح على الخفين حقّ.

وجوّزوا أن يرزق الله الحرام[2].

وأنكروا الجدال والمِرَاءَ في الدين، والخصومة في القَدَرِ والتنازع فيه. ورأوا التشاغل بما لهم وعليهم أوْلى من الخصومات في الدين.

ورأوا طلب العلم أفضل الأعمال، وهو علم الوقت بما يجب عليهم ظاهراً وباطناً.

وهم أشفق الناس على خلق الله، من فصيح وأعجم، وأبذل الناس بما في أيديهم، وأزهدهم عما في أيدي الناس، وأشدهم إعراضاً عن الدنيا، وأكثرهم طلباً للسنة والآثار، وأحرصهم على اتّباعها.

= بكونه في الجنة. ثم أكرم الله تعالى أمته بإلحاق ذرية المؤمن به وإن لم يعملوا عمله، فجاءت أخبار بدخولهم الجنة، فعلمنا بها جريان القلم بسعادتهم، فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ «صغارهم دعاميص الجنة»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ «أولاد المسلمين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإذا كان يوم القيامة دفعوا إلى آبائهم». وفي حديث معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي ﷺ في قصة الرجل الذي هلك ابن له، قال: فعزّاه النبي ﷺ فقال: «يا فلان أيما أحب إليك أن تمتع به عمرك أو لا تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» فقال: يا نبي الله، لا، بل يسبقني إلى أبواب الجنة أحبّ إليّ، قال: «فذاك لك» فقام رجل من الأنصار فقال: يا نبي الله جعلني الله فداك، أهذا لهذا خاصة أو من هلك له طفل من المسلمين كان ذاك له؟ قال: «من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له».

(١) يؤيد هذا ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء» قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». رواه البيهقي في كتاب الاعتقاد.

(٢) قال البيهقي في كتاب «الاعتقاد» في قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ قال: قد علمنا أن جميع المكلفين ليسوا بآكلين حلالاً، فلو كان لم يرزقهم الحرام كان لم يرزق أكثر الأنام لأكلهم الحرام، وفي ذلك دلالة على أن جميع ما يغذى به الحيوان من حلال أو حرام فهو رزقه، فدخل فيه ما يأكله المكلفون من حلال وحرام وما يأكله الأطفال من لبن لا يملكونه وغيره مما يأكله البهائم وإن لم يكن لها ملك.

الباب العشرون
فِيمَا كَلَّفَ اللَّهُ البَالِغِينَ

أجمعوا أن جميع ما فَرَض اللَّهُ تعالى على العباد في كتابه وأَوْجَبَهُ رسول الله ﷺ فَرْضٌ واجبٌ وَحَتْمٌ لازمٌ على العقلاء البالغين، لا يجوز التخلف عنه، ولا يسع التفريط فيه بوجه من الوجوه لأحد من الناس مِنْ صديق ووليٍّ وعارف، وإن بلغ أعلى المراتب وأعلى الدرجات وأشرف المقامات وأرفع المنازل.

وأنه لا مقام للعبد تسقط معه آداب الشريعة: من إباحة ما حظر الله، أو تحليل ما حرّم الله، أو تحريم ما أحلَّ الله، أو سقوط فرض من غير عذر ولا علة؛ والعذرُ والعلةُ: ما أجمع عليه المسلمون، وجاءت به أحكام الشريعة.

ومن كان أصْفى سرّاً وأعلى رتبةً وأشرف مقاماً، فإنه أشدُّ اجتهاداً وأخلص عملاً وأكثر تَّقياً(١).

---

(١) نذكر هنا الحاشية القيّمة التي كتبها المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود والمرحوم طه عبد الباقي سرور في الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وجاء فيها:

إن الموضوع الذي ذكره المؤلف هنا من الأهمية بمكان، وقد سبقنا أن نبّهنا عليه وكتبنا فيه لأنه يثار الآن، ولأهميته نقتطف مما كتبنا ما يلي:

غرضنا الآن إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة «إسقاط التكاليف الشرعية» وهي مسألة لم تنشأ بين بعض من يزعم التصوف في العصر الحديث، وليس لهم حتى فضل السبق في الباطل، إن كان السبق في الباطل له فضل. إنها ضلالة قديمة نشأت في أوساط منحللة انتسبت إلى التصوف انتساباً باطلاً وحاربها ممثلو التصوف في كل عصر وفي كل بيئة. ومما لا شك فيه أن القول الفصل في كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذي تنتسب إليه المشكلة. وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف في زعامتهم اثنان، نجدهم - سواء في ذلك القدماء منهم والمحدثون - ينكرون الفكرة إنكاراً تامّاً ويرونها زيغاً وضلالاً وانسلاخاً عن الدين بالكلية.

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء في الموضوع، ثم نفصل نوعاً ما رأي الشيخ عبد الواحد يحيى، وهو زعيم الصوفية في العصر الحديث دون منازع.

قال أبو يزيد البسطامي لأحد جلسائه: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلاً مشهوراً بالزهد - فمضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون =

وأجمعوا أن الأفعال ليست بسبب للسعادة والشقاوة، وأن السعادة والشقاوة سابقتان بمشيئة

= مأموناً على ما يدعيه؟!.

ومن كلام أبي يزيد: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة».

ويقول سهل التستري معبراً عن أصول التصوف: أصول طريقنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنّة، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق».

ويقول الجنيد سيد هذه الطائفة وإمامهم، على حدّ تعبير القشيري: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة». وقال: «علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ». وقال: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتّبع سنته ولزم طريقته». وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عزوجل. فقال الجنيد: «إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا».

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالي فإننا نجده يقول في شيء من التفصيل فيه دقة وفيه استدلال غاية في القوة: «واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدّعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له، العلامة الأولى: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبّس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض؟! فإن قلت: فهل تنتهي رتبة السالك إلى الحد الذي ينحطّ عنه فيه بعض وظائف العبادات ولا يضرّه بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور؟ وأقول لك: اعلم أن هذا عين الغرور، وأن المحققين قالوا: لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ويمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان». وهذا هو الحق.

فإذا ما انتهينا أخيراً إلى أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فإننا نجده يقول: «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة».

والصوفية يتبعون في كل هذا النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية للرسول ﷺ وهم يعلمون لا شك البديهيات التاريخية من أن الرسول ﷺ كان المثل الأعلى في أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة.

وخير ما نختتم به هذه الكلمة الآن الحديث النبوي الكريم: سئل النبي ﷺ عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن في الله، فقال: «كذبوا، لو أحسنوا الظنّ لأحسنوا العمل».

الله تعالى لهم ذلك وكِتَابِهِ عليهم، كما جاء في الحديث؛ قال عبد الله بن عمر[1]: قال رسول الله ﷺ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ وأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ»، ثم أُجْمِلَ على آخرهم فلا يُزَادُ فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً، وكذلك قال في أهل النار[2].

وقال عليه السلام: «السَّعِيدُ مَنْ سُعِدَ في بَطْنِ أُمِّهِ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ في بَطْنِ أُمِّهِ»[3].

وأجمعوا أنها[4] ليست بمُوجِبَةٍ للثواب والعقاب من حيث الاستحقاق، بل من جهة الفضل ومن جهة إيجاب الله تعالى ذلك.

وأجمعوا أن نعيم الجنة لمن سبق له من الله السعادة من غير علّة، وأن عذاب النار لمن سبق له من الله الشقاوة من غير علة، كما قال: «هؤلاء في الجَنَّةِ ولا أُبَالي، وهؤلاء في النَّارِ ولا أُبَالِي»[5]. وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿إِنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

---

(١) كذا في الأصل، والصواب عبد الله بن عمرو بن العاص كما في مسند الإمام أحمد والجامع الصحيح للترمذي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (ج ٢ ص ١٦٧) والترمذي في الجامع الصحيح (كتاب القدر، باب ٨) وتتمة الحديث: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذا نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ «سدّدوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق في الجنة» ونبذ باليسرى فقال: «فريق في السعير».

(٣) من حديث أبي هريرة، وتجد الحديث في إتحاف السادة المتقين للزبيدي (٩/٢٦٦)، وفي المعجم الصغير للطبراني (٢ / ٥)، وفي مسند الشهاب (٧٦)، وفي كنز العمال للمتقي الهندي (حديث رقم ٤٩١)، وفي الشريعة للآجري (١٨٥)، وفي الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي (٩٦)، وفي كشف الخفاء للعجلوني (١).

(٤) أي الأفعال.

(٥) حديث قدسي، رواه الإمام أحمد في المسند (ج ٥ ص ٢٣٩) عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: «أصحاب اليمين وأصحاب الشمال» فقبض بيديه قبضتين فقال: هذه في الجنة ولا أبالي وهذه في النار ولا أبالي.

وقالوا: إنها ـ أعني أفعال العباد ـ علامات وأمارات[1] على ما سبق لهم من الله، كما قال النبي ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ»[2].

وقال الجُنَيْد: «الطَّاعَةُ عَاجِلُ بُشْرَاهُ على ما سَبَقَ لهم مِنَ اللَّهِ تعالى، وكَذَلِكَ المَعْصِيَةُ».

وقال غيره: «العِبَاداتُ حُلْيَةُ الظَّوَاهِرِ، والحَقُّ لا يُبِيحُ تَعْطِيلَ الجَوَارِحِ مِنْ حُلاَها».

وقال محمد بن علي الكتاني[3]: «الأَعْمَالُ كِسْوَةُ العُبُودِيَّةِ، فَمَنْ أَبْعَدَهُ اللَّهُ عِنْدَ القِسْمَةِ نَزَعَها، ومن قَرَّبَهُ أَشْفَقَ عليها ولَزِمَها».

وهم مع ذلك مُجْمِعُون على أن الله تعالى يُثيب عليها ويعاقب، لأنه وعد على صالحها وأوعد على سيِّئها، فهو ينجز وعده ويحقق وَعِيدَه، لأنه صادق وخبره صِدْقٌ.

وقالوا: على العبد بذل المجهود في أداء ما كُلِّفَ به وإتيان ما نُدِبَ إليه بعد التكليف وبعد إتيانها وإيفاء ما عليه تكون المشاهدات، كما جاء في الحديث: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثه اللَّهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ»[4] وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ وجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقال يحيى[5]: «لَنْ يَصِلَ إلى قَلْبِكَ رَوْحُ المَعْرِفَةِ ولَهُ عَلَيْكَ حَقٌّ لم تُؤَدِّهِ».

وقال الجنيد: «إنَّ الله تعالى يُعَامِلُ عِبَادَهُ في الآخِرِ على حَسَبِ ما عَامَلَهُمْ في الأَوَّلِ؛ بَدَأَهُم تَكَرُّماً، وأَمَرَهُمْ تَرَحُّماً، ووَعَدَهُمْ تَفَضُّلاً، ويَزِيدُهُمْ تَكَرُّماً، فَمَنْ شَهِدَ بِرَّهُ القَدِيمَ سَهَّلَ عليه أَدَاءَ أَمْرِهِ، ومَنْ لَزِمَ أَمْرَهُ أَدْرَكَهُ وَعْدُهُ، ومَنْ فَازَ بوَعْدِهِ لا بُدَّ

---

(١) الأمارات، والأمَرَات: الأعلام أو العلامات، جمع أمارة وأمَرَة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة.

(٣) انظر ترجمته ص ٢٨ حاشية ٤.

(٤) الحديث في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي، وفي تفسير القرطبي، وفي الأسرار المرفوعة لعليّ القاري، وفي تذكرة الموضوعات للفتني، وفي الفوائد المجموعة للشوكاني، وفي كشف الخفاء للعجلوني.

(٥) يحيى بن معاذ الرازي. انظر ترجمته ص ٢٩ حاشية ٥.

أنْ يزيدَهُ مِنْ فَضْلِهِ».

وقال سهل بن عبد الله التستري: «مَنْ غَمَضَ بَصَرَهُ عَنِ الله طَرْفَةَ عَيْنٍ فلا يَهْتَدي طُولَ عُمْرِهِ».

الباب الحادي والعشرون

قَوْلُهُمْ في مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالى

أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده، وسبيلُ العَقْلِ عندهم سَبِيلُ العاقل في حاجته إلى الدليل؛ لأنه مُحْدَثٌ، والمُحْدَثُ لا يدل إلا على مثله.

وقال رجل للنُّوري[1]: ما الدليل على الله؟ قال: الله. قال: فما العقلُ؟ قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

وقال ابن عطاء[2]: «العَقْلُ آلةٌ للعُبُودِيَّةِ لا للإشْرَافِ على الرُّبُوبِيَّةِ».

وقال غيره: «العَقْلُ يَحُولُ حَوْلَ الكَوْنِ، فإذا نَظَرَ إلى المُكَوِّنِ ذَابَ».

وقال أبو بكر القحطبي: «مَنْ لَحِقَتْهُ العُقُولُ فهو مَقْهُورٌ إلا من جِهَةِ الإثْبَاتِ[3]، ولولا أنّه تَعَرَّفَ إليها بالألْطَافِ لما أدْرَكَتْهُ من جِهَةِ الإثْبَاتِ».

وأنشدونا لبعض الكبار:

مَنْ رَامَهُ بالعَقْلِ مُسْتَرْشِداً ... سَرَّحَهُ في حَيْرَةٍ يَلْهُو
وشَابَ بالتَّلْبِيسِ أسْرَارَهُ ... يَقُولُ مِنْ حَيْرَتِهِ هَلْ هُو

وقال بعض الكبار: «لا يَعْرِفُه إلا من تَعَرَّفَ إليه، ولا يُوَحِّدُهُ إلا مَنْ تَوَحَّدَ له، ولا يؤمن به إلا مَنْ لَطُفَ به، ولا يَصِفُهُ إلا من تَجَلَّى لسِرِّهِ، ولا يُخْلِصُ له إلا من جَذَبَهُ إليه، ولا يَصْلُحُ له إلا مَنِ اصْطَنَعَهُ لنَفْسِهِ».

(١) انظر ترجمته ص ١٩ حاشية ٤.

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء. انظر ترجمته ص ٢٧ حاشية ٥.

(٣) يعني إثبات الوجود من دون التمكن من إدراك ماهية هذا الوجود أو الإحاطة به، كما قال تعالى في الآية ١١٠ من سورة طه: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾.

معنى من تعرّف إليه، أي: من تعرّف الله إليه، ومعنى من توحّد له، أي: أراه أنه واحد.

وقال الجنيد: «المَعْرِفَةُ مَعْرِفَتَانَ، مَعْرِفَةُ تعرُّفٍ، ومعرفة تَعْرِيفٍ، معنى التعرّف أنْ يُعَرِّفَهُمُ الله عزّ وجل نَفْسَه، ويُعَرفهم الأشياء به، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، ومَعْنَى التَّعْرِيف أنْ يُرِيَهُمْ آثارَ قُدْرَتِهِ في الآفَاقِ والأَنْفُس، ثم يُحْدِث فيهم لُطْفاً: تدلّهم الأشياءُ أنّ لها صَانِعاً؛ وهذه مَعْرِفَةُ عامّة المؤمنين، والأولى مَعْرِفَةُ الخَواصّ، وكُلّ لم يَعْرِفْهُ في الحَقِيقَةِ إلاّ به».

وهذا كما قال محمد بن واسع[1]: «ما رَأَيْتُ شَيْئاً إلاّ ورَأَيْتُ اللَّهَ فِيهِ».

وقال غيره: «مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إلاّ وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ».

وقال ابن عطاء: «تَعَرَّفَ إلى العَامّةِ بِخَلْقِهِ، لقوله: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ الآية [الغاشية: ١٧]. وإلى الخاصة بكلامه وصفاته بقوله: «أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآن﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ولِلَّه الأسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨]، وإلى الأنبياء بنفسه، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا﴾ الآية [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ الآية [الفرقان: ٤٥].

وقال بعض الكبراء من أهل المعرفة:

لـم يَبْـقَ بَيْـنِي وَبَـينَ الـحَقِّ تِبيَـاني ... ولا دَلِـيـلٌ ولا آيـاتُ بُـرْهـانـي
هـذا تَـجَلِّي طُـلُوعِ الـحقِّ نـائِـرَةٌ ... قـد أَزْهَـرَتْ في تَـلاَلِيهَـا بِسُلْطانِ
لا يَعْـرِفُ الـحَـقَّ إلا مَـن يُـعَـرِّفُـهُ ... لا يَعْرِفُ القِدَمِيَّ المُحْـدَثُ الفـاني
لا يُسْتَـدَلُّ عـلى البـارِي بِـصَنْعَتِـهِ ... رَأَيْتُمُ حَدَثاً يُنبِي عَـنَ أَزْمَـانِ

(١) محمد بن واسع بن جابر، يكنى أبا عبدالله شبابة. أسند عن أنس بن مالك، وروى عن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين، وتوفي بعد الحسن بعشر سنين سنة ١٢٠. (انظر ترجمته في حلية الأولياء. ج ٢ص ٣٥٤ - ٣٥٧، وصفة الصفوة: ج٣ص ١٧٩ - ١٨٣، وطبقات الشعراني: ج١ص ٣٦).

كـانَ الدليلَ لـهُ منـهُ إليـهِ بهِ ... مَن شاهَدَ الحقَّ في تنزيلِ فُرقانِ
كـان الدليـلَ لـهُ منـهُ بـهِ ولـهُ ... حقّـاً وَجَـدْنـاهُ بَـلْ عِلْمـاً بِتِبْيـانِ
هـذا وجُـودِي وتَشْـريحي ومُعتقَدي ... هـذا تـوَحُّـدُ تـوْحِيـدِي وإيمـاني
هـذا عِبـارَةُ أهـلِ الانْفِـرادِ بـه ... ذَوي المعـارفِ في سـرٍّ وإعـلانِ
هـذا وُجودُ وُجـودِ الواجـدينَ لـهُ ... بَني التجـانُسِ أَصْحَـابي وخُـلّانـي

وقال بعض الكبراء: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَرَّفَنَا نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَدَلَّنا على مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، فَقَامَ شَاهِدُ المَعْرِفَةِ مِنَ المَعْرِفَةِ بَعْدَ تَعْرِيفِ المُعَرِّفِ بها».

معناه أن المعرفة لم يكن لها سبب، غير أن الله تعالى عَرَّف العارفَ فَعَرَفَ بتعريفه.

وقال بعض الكبار من المشايخ: «البادي من المُكَوَّنَاتِ مَعْرُوفٌ بنفسه لِهُجُوم العَقْلِ عليه، والحَقُّ أعزُّ مِنْ أن تَهْجمَ العُقُولُ عليه، وأنه عَرَّفَنَا نَفْسَهُ أنه ربنا فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ولم يقل: من أنا؟ فَتَهْجم العُقُولُ عليه حين بَدَا مُعَرِّفاً، فلذلك انْفَرَدَ عن العقول وَتَنَزَّهَ عن التَّحَصُّلِ غَيْرِ الإِثْبَاتِ(١)».

وأجمعوا أنه لا يعرفه إلا ذو عقل؛ لأن العقلَ آلةٌ للعبد يعرف به ما عرف، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى.

وقال أبو بكر السبَّاك: «لما خَلَقَ اللَّهُ العَقْلَ قال له: مَنْ أنا؟ فَسَكَتَ، فكَحَّلَهُ بنُورِ الوحدانية، ففتح عينيه، فقال: أَنْتَ اللَّهُ لا إله إلَّا أَنْتَ».

فلم يكن للعقل أن يعرف اللَّهَ إلا باللَّهِ.

---

(١) قوله: «وتنزه عن التحصّل غير الإثبات» يعني لا تحصل معرفته تعالى إلا بآثار خلقه ومظاهر قدرته وعظمته، ولا يمكن معرفته بالماهية.

الباب الثاني والعشرون

اخْتِلافُهُمْ في المَعْرِفَةِ نَفْسِهَا

ثم اختلفوا في المعرفة نفسها ما هي والفرق بينها وبين العلم.

فقال الجنيد: «المَعْرِفَةُ وُجُودُ جَهْلِكَ عِنْدَ قِيَامِ عِلْمِهِ». قيل له: زِدْنا! قال: «هو العَارِفُ وهو المَعْرُوفُ».

معناه: أنك جاهلٌ به من حيث أنت، وإنما عرفته من حيث هو.

وهو كما قال سهْلُ: «المَعْرِفَةُ هِي المَعْرِفَةُ بالْجَهْلِ».

وقال سهل: «العِلْمُ يَثْبُتُ بالمَعْرِفَةِ، والْعَقْلُ يَثْبُتُ بالعِلْمِ؛ وأمَّا المَعْرِفَةُ فإنّها تَثْبُتُ بِذَاتِهَا».

معناه: أن الله تعالى إذا عَرَّف عبداً نفسه فعرف الله تعالى بتعرّفه إليه أحدث له بعد ذلك علماً، فأدرك العلم بالمعرفة، وقام العقل فيه بالعلم الذي أحدثه فيه.

وقال غيره: «تَبَيُّنُ الأشْيَاءِ على الظَّاهِرِ عِلْمٌ، وتَبَيُّنُها على اسْتِكْشَافِ بَواطِنِها مَعْرِفَةٌ».

وقال غيره: «أباحَ العِلْمَ للعَامَّةِ، وخَصَّ أوْلِيَاءَهُ بالمَعْرِفَةِ».

وقال أبو بكر الوراق[1]: «المَعْرِفَةُ مَعْرِفَةُ الأشْيَاءِ بِصُوَرِهَا وسِمَاتِها، والعِلْمُ عِلْمُ الأشْيَاءِ بِحَقَائِقِها»[2].

وقال أبو سعيد الخرّاز[3]: «المَعْرِفَةُ باللَّهِ هي عِلْمُ الطَّلَبِ لله مِنْ قَبْلِ الوُجُودِ

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي. انظر ترجمته ص ٢٩ حاشية ٦.

(٢) يريد أن يقول إن المعرفة أداتها الحواس وهي متعلقة بالمحسوسات، والعلم أداته العقل ومجاله المفاهيم الكلية التي لا تدرك بالحسّ.

(٣) أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز. انظر ترجمته ص٢٧ حاشية ٣.

لَهُ[1]، والعِلْمُ بالله هو بَعْدَ الوُجُودِ[2]، فالعِلْمُ بالله أَخْفَى وأَدَقُّ مِنَ المَعْرِفَةِ باللَّهِ».

وقال فارس[3]: «المَعْرِفَةُ هي المُسْتَوْفِيَةُ في كُنْهِ المَعْرُوفِ»[4].

وقال غيره: «المَعْرِفَةُ هي حَقْرُ[5] الأَقْدَارِ إلا قَدْرَ اللَّهِ، وأَنْ لا يَشْهَدَ مَعَ قَدْرِ اللَّهِ قَدْراً».

وقيل لذي النّون: بم عرفت ربك؟ قال: «ما هَمَمْتُ بِمَعْصِيَةٍ فَذَكَرْتُ جَلالَ اللَّهِ إلَّا اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

جعل معرفته بقرب الله منه دلالة المعرفة له.

وقيل لعُلَيَّانَ[6]: كيف حالك مع المولى؟ قال: «ما جَفَوْتُهُ مُنْذُ عَرَفْتُهُ». قيل له: متى عرفته؟ قال: «مُنْذُ سَمَّوني مَجْنوناً».

جعل دلالة معرفته له تعظيم قَدْرِهِ عنده.

قال سهل: «سُبْحَانَ مَنْ لم يُدْرِكِ العِبَادُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ إلا عَجْزاً عَنْ مَعْرِفَتِهِ».

الباب الثالث والعشرون

قَوْلُهُمْ في الرُّوحِ

قال الجُنَيْدُ: «الرُّوحُ شَيْءٌ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، ولم يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ،

---

(١) يعني قبل إيجاده الموجودات.

(٢) كأنه يريد أن يقول إن معرفة الله تعالى قبل وجود موجوداته هي فقط معرفةٌ بوجوده قبل وجود موجوداته وبعدها، وأما العلم بالله فهو إضافةٌ إلى معرفة وجوده، العلم بصفاته استدلالاً بموجوداته.

(٣) لم أجد له ترجمة، وفي حلية الأولياء (ج١٠ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢): فارس الجمال يروي عن أبي الحسين أحمد بن محمد النوري، حكى فارس الجمال عن النوري قال: كانت المراقع غطاء على الدر فصارت مزابل على جيف. وفي الحلية أيضاً (ج٨ ص٣٤) فارس النجار قال: بلغني أن إبراهيم بن أدهم رأى في المنام كأن جبريل عليه السلام قد نزل إلى الأرض... الخ.

(٤) جعل المعرفة هنا هي العلم بالحقائق الغير حسية، على عكس قول أبي بكر الورّاق السابق.

(٥) أي احتقار.

(٦) لم أجد ترجمة له.

ولا يَجُوزُ العِبَارَةُ عَنْهُ بِأَكْثَرَ مِنْ مَوْجُود؛ لقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال أبو عبد الله النباجي(١): الرُّوحُ جِسْمٌ يَلْطُفُ عَنِ الحِسِّ، ويَكْبُرُ عَنِ اللَّمْسِ، ولا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِأَكْثَرَ مِنْ مَوْجُودٍ».

قال ابن عطاء: «خَلَقَ اللَّهُ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَادِ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني الأرواح، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] يعني الأَجْسَادَ».

وقال غيره: «الرُّوحُ لَطِيفٌ قَامَ فِي كَثِيفٍ كالبَصَرِ، جَوْهَرٌ لَطِيفٌ قَامَ فِي كَثِيفٍ».

وأجمع الجمهور على أن الروح معنًى يَحْيَى به الجسد..

وقال بعضهم: «هُوَ رُوحٌ نَسِيمٌ طَيِّبٌ يَكُونُ به الحَيَاةُ، والنَّفْسُ رِيحٌ حارَّةٌ تَكُونُ بها الحَرَكَاتُ والسَّكَنَاتُ والشَّهَوَاتُ».

وسئل القحطبي عن الروح فقال: «لَمْ يَدْخُلْ تحت ذُلِّ كُنْ».

ومعناه عنده أنه ليس إلاَّ الإحياء، والحيُّ والإحياءُ صفة المحيي، كالتخلُّق والخَلْقِ صفة الخالق.

واستدل من قال ذلك بظاهر قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] قالوا: «أَمْرُهُ كَلامُهُ، وكَلامُهُ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ»، كأنهم قالوا: إنما صار الحيُّ حياً بقوله: كُنْ حيّاً، وليس الروح مَعْنى في الجسد حالاً مخلوقاً كالجسد. قال الشيخ: وليس هذا بصحيح، وإنما الصحيح أن الروح معنى في الجسد مخلوق كالجسد.

---

(١) اسمه سعيد بن يزيد، قال ابن الجوزي في صفة الصفوة: لا نعرف للنباجي مسنداً، وإنما كان مشغولاً بالزهد والتعبّد، وقد حكى عن الثوري والفضيل وغيرهما. ومن أقواله: إنّ في خلق الله عز وجل خلقاً يستحيون من الصبر لو يعلمون أقداره تلقّفوها تلقّفاً. وقال: لا تستكثروا الجنة للمؤمن، فإنه قد وافى بأعظم قدر عنده من الجنة معرفة الله والإيمان به. وقال: الذي جعل الله عز وجلّ المعرفة عنده يتنعّم مع الله عز وجل في كل أحواله. (انظر صفة الصفوة: ج٤ ص٢٣٣).

الباب الرابع والعشرون

قَوْلُهُم في المَلائِكَةِ والرُّسُلِ

سكت الجمهور منهم عن تفضيل الرسل[1] على الملائكة وتفضيل الملائكة على الرسل، وقالوا: الفضل لمن فضَّله الله، ليس ذلك بالجوهر ولا بالعمل. ولم يَرَوْا أحد الأمرين أَوْجَبَ من الآخر بخَبَرٍ ولا عقل[2].

وفضّل بعضهم الرسل وبعضهم الملائكة.

وقال محمد بن الفضل: «جملة الملائكة أفضل من جملة المؤمنين، وفي المؤمنين من هو أفضل من الملائكة»، كأنه فضّل الأنبياء عليهم السلام على الملائكة.

وأجمعوا أن بين الرسل تفاضلاً، لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على

---

(١) الفرق بين الرسول والنبي حسب رأي أهل السنة والجماعة أن كل من نزل عليه الوحي من الله تعالى على لسان ملك من الملائكة وكان مؤيداً بنوع من الكرامات الناقضة للعادات فهو نبي. ومن حصلت له هذه الصفة وخص أيضاً بشرع جديد أو نسخ بعض أحكام شريعة كانت قبله فهو رسول. (انظر الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي: ص٢٦٤).

(٢) كلا الفريقين الذين فضلوا الملائكة على الأنبياء والذين فضلوا الأنبياء على الملائكة استندوا في ذلك إلى العقل أو إلى الخبر. فالفلاسفة الذين أجمعوا على تفضيل الأرواح السماوية المسماة بالملائكة على الأرواح الناطقة البشرية استندوا في ذلك إلى حجج عقلية ذكرها الفخر الرازي في تفسيره (ج٢ ص٢٠٩ ـ ٢١١). واستدلّ جماعة منهم الجبائي من المعتزلة على أن الملك أفضل من الأنبياء بقوله تعالى: ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ (تفسير الفخر الرازي. ج ١٢ ص ١١٩، وج ١٧ ص ١٧٣) كما أن الذين فضلوا الأنبياء على الملائكة احتجوا بقوله تعالى ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ (تفسير الفخر الرازي. ج ١٣ ص ٥٤ ـ دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ـ ١٩٩٢). وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره (ج ٢ ص ١٩٨ ـ ٢١٥). احتجاج القائلين بأن آدم أفضل من الملائكة، وقول أكثر أهل السنة إن الأنبياء أفضل من الملائكة، وقول المعتزلة والشيعة إن الملائكة أفضل من الأنبياء، ثم ذكر محصّل الكلام من الجانبين فليراجع. ونشير أيضاً إلى أنه أورد احتجاج طائفة تقول إن جملة البشر أفضل من جملة الملائكة واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ (انظر ج ٣٢ ص ٤٩).

بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ولم يعينوا الفاضل والمفضول لقوله عليه السلام: «لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»(١).

وأوجبوا فضل محمد ﷺ بالخبر، وهو قوله عليه السلام «أَنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولا فَخْرَ، آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوائي»(٢)، وسائر الأخبار التي جاءت، وقول الله جل وعز ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٣) [آل عمران: ١١٠] فلما كانت أمته خير الأمم وجب أن يكون نبيه خير الأنبياء، وسائر ما في القرآن من الدلائل على فضله.

وأجمعوا جميعاً أن الأنبياء أفضل البشر، وليس في البشر من يوازي الأنبياء في الفضل، لا صدّيق ولا وليّ ولا غيرهم، وإن جلّ قدره وعظم خطره.

قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «هَذَانِ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ إِلاَّ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ»(٤) يعني أبا بكر وعمر؛ فأخبر النبي ﷺ أنهما خير الناس بعد النبيين.

قال أبو يزيد البسطامي: «آخِرُ نِهَايَاتِ الصِّدِّيقِينَ أَوَّلُ أَحْوالِ الأَنْبِيَاءِ، ولَيْسَ لِنِهَايَةِ الأَنْبِيَاءِ غايَةٌ تُدْرَكُ».

وقال سهل بن عبد الله: «انْتَهَتْ هِمَمُ العَارِفِينَ إِلى الحُجُبِ، فَوَقَفَتْ مُطْرِقَةً

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الخصومات باب ١، وكتاب الديات باب ٣٢)، ومسلم في صحيحه (كتاب الفضائل حديث ١٦٣)، وأبو داود في سننه (كتاب السنّة باب ١٣)، والإمام أحمد في المسند (ج ٣ ص ٣١ و ٣٣).

(٢) معنى حديث طويل أخرجه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما. ولفظ الحديث كما في مسند الإمام أحمد (ج ١ ص ٢٨١): عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد نجزها في الدنيا وإني قد اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر. . . . الخ».

(٣) واحتجوا أيضاً على أن رسولنا ﷺ أفضل من جميع الأنبياء بقوله تعالى: ﴿فبهداهم اقتده﴾ (انظر تفسير الفخر الرازي: ج ١٤٣ ص ٥٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (ج ١ ص ٨٠)، وابن ماجة في سننه (المقدمة باب ١١)، والترمذي في الجامع الصحيح (كتاب المناقب باب ١٦) من حديث أنس، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه من حديث علي بن أبي طالب، وقال حديث غريب من هذا الوجه.

فأْذِنَ لها؛ فسلَّمَتْ فخُلِعَ عَلَيْهَا خِلَعُ التَّأْيِيدِ، وكُتِبَ لها بَرَاءَةٌ مِنَ الزَّيْغِ، وهِمَمُ الأَنْبِيَاءِ جَالَتْ حَوْلَ العَرْشِ، فَكُسِيَتِ الأَنْوَارَ، ورُفِعَتْ منها الأَقْذَارُ، واتَّصَلَتْ بالجَبَّارِ؛ فَأَفْنَى حُظُوظَهَا، وأَسْقَطَ مُرَادَها، وجَعَلها مُتَصَرِّفَةً بِهِ لَهُ».

وقال أبو يزيد: «لو بَدَا للخَلْقِ مِنَ النَّبِيِّ ذَرَّةٌ لَم يَقُمْ لها ما دُونَ العَرْشِ».

وقال: «ما مِثْلُ مَعْرِفَةِ الخَلْقِ وعِلْمِهِمْ بالنَّبِيِّ إلاَّ مِثْل نَدَاوَةٍ تَخْرُجُ مِنْ رَأْسِ الزِّقِّ[1] المَرْبُوطِ».

قال بعضهم: «لم يَنَلْ أَحَدٌ من الأَنْبِيَاءِ الكَمَالَ في التَّسْلِيمِ والتَّفْوِيضِ غَيْرُ الحَبِيبِ والخَلِيلِ[2] صلى الله عليهما، فلذلك أَيِسَ الكُبَرَاءُ عَنِ الكَمَالِ وإن كَانُوا في حَالِ القُرْبَةِ مَعَ تَحقِيقِ المُشَاهَدَةِ».

قال أبو العباس بن عطاء[3]: «أَدْنَى مَنَازِلِ المُرْسَلِينَ أَعْلَى مَرَاتِبِ النَّبِيِّينَ، وأَدْنَى مَنَازِلِ الأَنْبِيَاءِ أَعْلَى مَرَاتِبِ الصِّدِّيقِينَ، وأَدْنَى مَنَازِلِ الصِّدِّيقِينَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الشُّهَدَاءِ، وأَدْنَى مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ أَعْلَى مَرَاتِبِ الصَّالِحِينَ، وأَدْنَى مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ أَعْلَى مَرَاتِبِ المُؤْمِنِينَ».

الباب الخامس والعشرون

قَوْلُهُم فيما أُضِيفَ إلى الأَنْبِيَاءِ مِنَ الزَّلَلِ[4]

قال الجنيد والنوري وغيرهما من الكبار: «إنَّ ما جرى على الأنبياء إنما جرى

---

(١) في لسان العرب (مادة زقق): الزِّقُّ: السِّقاء.... والزِّقُّ من الأُهُب: كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه. وقيل: لا يسمى زقاً حتى يُسلخ من قبل عنقه.... وقال أبو حنيفة: الزقّ هو الذي يُنقل فيه الخمر.

(٢) الحبيب هو المصطفى محمد والخليل هو إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما.

(٣) انظر ترجمته ص ٢٧ حاشية ٥.

(٤) بيّن فخر الدين الرازي في تفسيره (ج ٣ ص ٧ - ١٠) اختلاف الناس في عصمة الأنبياء، قال: وضبط القول فيه أن يقال إن اختلافهم يرجع إلى أقسام أربعة: القسم الأول: ما يقع في باب الاعتقاد، القسم الثاني: ما يتعلق بالتبليغ، القسم الثالث: ما يتعلق بالفتيا، القسم الرابع: الذي يقع من أفعالهم. قال. واختلاف الناس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال: أحدها: قول من ذهب إلى أنهم معصومون من =

على ظواهرهم، وأَسْرَارُهُمْ مستوفاة بمشاهدات الحق. واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].

وقالوا: ولا تصحُّ الأعمال حتى يتقدمها العقود والنيات، وما لا عقد فيه ولا نية فليس بفعل؛ وقد نفى الله تعالى الفعل عن آدم بقوله: ﴿فَنَسِيَ ولم نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾.

قالوا: ومعاتباتُ الحقِّ لهم إنما جاءت إعلاماً لـلأنبيار ليعلموا عند إتيانِهِمُ المعاصي مَوَاضِعَ الاستغفار.

وأثبتها بعضهم، وقالوا: إنها كانت على جهة التأويل والخطأ فيه، فعوتبوا عليها لعلوّ مرتبتهم وارتفاع منازلهم، فكان ذلك زجراً لغيرهم، وحفظاً لمواضع الفضل عليهم، وتأديباً لهم.

وقال بعضهم: إنما كانت على جهة السَّهْوِ والغفلة، وجعلوا سَهْوَهُم في الأدنى بالأرفع.

وهكذا قالوا في سهو النبي ﷺ في صلاته: إن الذي شغله عن صلاته كان أعظم من الصلاة، لقوله: «**وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاةِ**»[1]، فأخبر أن في الصلاة ما تَقَرُّ به عينه، ولم يقل جعلت قرة عيني الصلاة.

وكل من أثبتها زللاً وخطايا فإنهم جعلوها صغائر مقرونة بالتوبة، كما قال الله تعالى مخبراً عن صَفِيِّهِ آدم وزوجته عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، وفي داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكعاً وأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

= وقت مولدهم. ثانيها: قول من ذهب إلى أن وقت عصمتهم وقت بلوغهم. ثالثها: قول من ذهب إلى أن ارتكابهم المعاصي لا يجوز وقت النبوة أما قبل النبوة فجائز. ثم بيّن أنه لم يصدر عنهم الذنب حال النبوة البتة لا الكبيرة ولا الصغيرة.

(١) تمام الحديث: «حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطيب وجعل قرّة عيني في الصلاة». أخرجه من حديث أنس بن مالك الإمامُ أحمد في المسند (ج ٣ ص ١٢٨ و ١٩٩ و ٢٨٥).

الباب السادس والعشرون

قَوْلُهُمْ فِي كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ

أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، وإن كانت تدخل في باب المعجزات[1]، كالمشي على الماء، وكلام البهائم، وطيِّ الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته، وقد جاءت الأخبار بها، وصححت الروايات، ونطق بها التنزيل، من قصة الذي عنده علم من الكتاب في قوله تعالى: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وقصّة مريم حين قال لها زكريا: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وقصة الرجلين اللذين كانا عند النبي ﷺ ثم خرجا فأضاء لهما سوطاهما[2]، وغير ذلك.

وجواز ذلك في عصر النبي ﷺ وغير عصره واحدٌ، وذلك أنه إذا كانت في عصر النبي للنبي ﷺ على معنى التصديق له، كان في غير عصره على معنى التصديق. وقد

---

(١) المعجزة والكرامة كلاهما يدخلان في باب خرق العادة؛ ولكن الفرق بينهما أن المعجزة تقترن بالتحدي لإثبات نبوة النبي، بينما الكرامة يجريها الله تعالى على الأولياء من عباده تكريماً ومكافأة لهم.

والقول بالكرامات من اعتقاد أهل السنة والجماعة، قال تعالى في قصة سليمان عليه السلام: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ وآصف لم يكن نبياً. قال البيهقي في كتاب الاعتقاد (ص ١٧٤): وإنما لا يجوز ظهور الكرامات على الكاذبين، فأما على الصادقين فإنه يجوز، ويكون ذلك دليلاً على صدق من صدقه من أنبياء الله عز وجل. قال: وقد حكى نبينا ﷺ من الكرامات التي ظهرت على جريج الراهب، والصبي الذي ترك السحر وتبع الراهب، والنفر الذين أووا إلى غار من بني إسرائيل فانحطّت عليهم الصخرة، وغيرهم، ما يدلّ على جواز ذلك. وقد ظهر على أصحابه في زمانه وبعد وفاته ثم على الصالحين من أمته ما يوجب اعتقاد جوازه.

(٢) روى البيهقي في كتاب الاعتقاد (ص ١٧٦) عن قتادة قال: كان مطرف بن عبد الله بن الشخير وصاحب له سريا في ليلة مظلمة، فإذا طرف سوط أحدهما عنده ضوء، فقال لصاحبه: أما إنّا لو حدثنا الناس بهذا كذبونا. قال مطرف: المكذب أكذب.

وروي أيضاً عن أنس بن مالك أن أسيد بن حضير الأنصاري ورجلاً آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ ينقلبان وبيد كل واحد منهما عصية، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشى في ضوئها، حتى إذا افترقت بهم الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله.

كان بعد النبي ﷺ لعمر بن الخطاب حين نادى سارِيَة، قال لسارية: يا سارية بن حصن، الجَبَلَ الجَبَلَ! وعمر بالمدينة على المنبر، وسارية في وجه العدو على مسيرة شهر(١).

والأخبار في هذا كثيرة وافرة.

وإنما أنكر جواز ذلك من أنكر، لأن فيه زعم إبطال النبوات، لأن النبي لا يظهر على غيره إلا بمعجزة يأتي بها تدل على صدقه ويعجز عنها غيره، فإذا ظهرت على يَدَي غيره لم يكن بينه وبين من ليس بنبيّ فرقٌ ولا دليلٌ على صدقه.

قالوا: وفيه تعجيز الله عن إظهار نبيّ عمَّن ليس بنبيّ.

وقال أبو بكر الورَّاق(٢): النبي لم يَكُنْ نبيّاً للمعجزة، وإنما كان نبيّاً بإرسال الله تعالى إياه ووحيه إليه؛ فمن أرسله الله وأوْحَى إليه فهو نبيٌّ، كانت معه معجزة أو لم تكن، ووجب على من دعاه الرسول الإجابة له وإن لم يَرَهُ معجزةً، وإنما كانت المعجزات لإثبات الحجة على من أنكر، ووجوب كلمة العذاب على من عاند وكفر. وإنما وجبت الإجابة للنبيّ بدعوته؛ لأنه يدعوه إلى ما أوجب الله عليه من توحيده ونفي الشركاء عنه وإتيان ما ليس في العقل استحالته، بل وجوبه أو جوازه.

والأصل في ذلك أنهما عينان: نبيٌّ ومتنبِّئٌ؛ فالنبي صادقٌ، والمتنبِّئُ كاذبٌ، وهما يشتبهان في الصورة والتركيب.

وأجمعوا أن الصادق يؤيده الله بالمعجزة، والكاذب لا يجوز له ما يكون للصادق؛ لأن في هذا تعجيز الله عن إظهار الصادق من الكاذب.

فأما إذا كان وليٌّ صادق وليس بنبيّ، فإنه لا يدَّعي النبوَّة، ولا ما هو كذب

---

(١) رواه البيهقي في الاعتقاد (ص ١٧٨) عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب بعث جيشاً وأمّر عليهم رجلاً يدعى سارية، قال: فبينا عمر يخطب، قال: فجعل يصيح وهو على المنبر: يا سارية الجبل يا سارية الجبل! قال: فقدم رسول الجيش، فسأله فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا وإن الصائح ليصيح: يا سارية الجبل يا سارية الجبل! فشددنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

(٢) أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي. انظر ترجمته ص٢٩ حاشية ٦.

وباطل، وإنما يدعو إلى ما هو حقّ وصدق، فإن أظهر الله عليه كرامة، لم يقدح ذلك في نبوة النبيّ ولا أوجب شُبْهَةً فيها؛ لأن الصادق يقول ما يقوله النبيّ ويدعو إلى ما يدعو إليه النبي، فظهور الكرامة له تأييد للنبيّ وإظهار لدعوته وإلزام لحجّته وتصديقه فيما يدعوه ويدّعيه من النبوة وإثبات توحيد الله عزّ وجل.

وجوّز بعضهم أن يُرِيَ اللّه أعداءه في خاصة أنفسهم وفيما لا يوجب شبهة ما يخرج من العادات، ويكون ذلك استدراجاً لهم وسبباً لهلاكهم؛ وذلك أنها تولّد في أنفسهم تعظُّماً وكبرياء، ويرون أنها كرامات لهم استأهلوها بأعمالهم واستوجبوها بأفعالهم. فيتّكلون على أعمالهم ويرون لهم الفضل على الخلق فيُزْرُون[1] بعباده، ويأمنوا مكره، ويستطيلون على عباده.

وأما الأولياء فإنهم إذا ظهر لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تذلُّلاً وخضوعاً وخشيةً واستكانةً وإزراءً بنفوسهم وإيجاباً لحقّ اللّه عليهم؛ فيكون ذلك زيادةً لهم في أمورهم وقوة على مجاهداتهم وشكراً لله تعالى على ما أعطاهم.

فالذي للأنبياء معجزاتٌ، وللأولياء كراماتٌ، وللأعداء مخادعاتٌ.

وقال بعضهم: إن كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون، والأنبياء تكون لهم المعجزاتُ وهم بها عالمون وبإثباتها ناطقون؛ لأن الأولياء قد يُخْشَى عليهم الفتنة مع عدم العصمة، والأنبياء لا يُخْشى عليهم الفتنة بها لأنهم معصومون.

قالوا: وكرامة الوليِّ بإجابة دعوة، وتمام حالٍ، وقوةٍ على فعل، وكفاية مُؤْنَة، يقوم لهم الحق بها، وهي مما يخرج عن العادات، ومعجزاتُ الأنبياء إخراجُ الشيء من العدم إلى الوجود وتقليبُ الأعيان.

وجوّز بعضُ المتكلمين وقومٌ من الصوفية إظهارها على الكذّابين من حيث لا يعلمون وقت ما يدَّعُونها فيما لا يوجب شبهة، كما رُوي في قصة فرعون من جَرْي النيل معه، وكما أخبر النبي ﷺ في قصة الدجّال أنه يقتل رجلاً ثم يحييه فيما يخيّل

---

(١) أزْرَى به إزراءً: قصّر به وحقّره وهوّنه، وقال أبو عمرو. الزاري على الإنسان الذي لا يعدّه شيئاً وينكر عليه فعله. والإزراء: التهاون بالشيء. (انظر لسان العرب: مادة زري).

إليه[1].

قالوا: إنما جاز ذلك لأنهما ادَّعَيا ما لا يُوجِبُ شبهةً، لأن أعيانهما تشهد على كذبهما فيما ادَّعياه منَ الربوبية[2].

واختلفوا في الوليِّ، هل يجوز أن يعرف أنه وليٌّ أم لا، فقال بعضهم: لا يجوز ذلك؛ لأن معرفة ذلك تُزيلُ عنه خَوْفَ العاقبة، وزوالُ خوف العاقبة يوجب الأمن، وفي وجوب الأمن زوالُ العبودية، لأن العبد بين الخوف والرجاء، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغباً ورَهَباً﴾ [الأنبياء: ٩٠]

وقال الأجِلَّةُ منهم والكبارُ: يجوز أن يعرف الوليُّ ولايَتَهُ لأنها كرامة من الله تعالى للعبد، والكراماتُ والنِّعَمُ يجوز أن يُعلم ذلك فيقتضي زيادة الشكر.

والولاية ولايتان: ولاية تخرج من العداوة وهي لعامّة المؤمنين، فهذه لا توجب معرفتها والتحقق بها للأعيان لكن من جهة العموم، فيقال: المؤمن وليُّ الله ولايةَ اختصاصٍ واصطفاءٍ واصطناع، فهذه توجب معرفتها والتحقق بها، ويكون صاحبها

---

(١) عن أبي سعيد الخدري قال. حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجّال، فكان فيما يحدثنا به أنه قال: يأتي الدجال وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ـ أو من خير الناس ـ فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحييته هل تشكّون في الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله ثم يحييه. فيقول: والله ما كنت فيك أشدّ بصيرة مني اليوم. فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلَّط عليه. (رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص ٣٦، ومسلم في صحيحه: كتاب الفتن حديث رقم ١١٢، والبخاري في صحيحه: كتاب الفتن باب ٢٧؛ واللفظ له).

(٢) من الذين جوّزوا ظهور الخوارق على أيدي الكذابين، الإمامُ ابن تيمية؛ وذلك أنه قسم الخوارق إلى معجزات وهي ما يكون على أيدي النبيين من آيات باهرة مقرونة بالتحدي، وهذه الخوارق لا تكون إلا للخير ونفع الناس، لأنها لإثبات رسالة الرسول وتكلمه عن الله تعالى. وأما ما يجري على أيدي غير الرسل فيقسمه ابن تيمية إلى أقسام ثلاثة، فيقول: «الخارق ـ كشفاً كان أو تأثيراً ـ إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، إما واجب وإما مستحب. وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً. وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعام بن باعوراء» (انظر المعجزة وكرامات الأولياء، لابن تيمية؛ ص ٣٩ وما بعدها ـ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان).

محظوظاً عن النظر إلى نفسه فلا يدخله عجب، ويكون مسلوباً من الخلق، بمعنى النظر إليهم بحظ فلا يفتنونه. ويكون محفوظاً عن آفات البشرية وإن كان طبع البشرية قائماً معه باقياً فيه، فلا يستحلي حظاً من حظوظ النفس استحلاءً يفتنه في دينه، واستحلاءُ الطبع قائم فيه؛ وهذه هي خصوص الولاية من الله للعبد.

ومن كان بهذه الصفة لم يكن للعدوّ إليه طريق بمعنى الإغواء، لقوله جل وعز: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وهو مع هذا ليس بمعصوم من صغيرة ولا كبيرة، فإن وقع في أحديهما قارنته التوبة الخالصة.

والنبي المعصوم لا يجري عليه كبيرة بإجماع، ولا صغيرة عند بعضهم(١).

وزوال خوف العاقبة ليس بممتنع بل هو جائز، فقد أخبر النبي ﷺ أصحابه

---

(١) اختلفت الأقوال والمذاهب في مسألة عصمة الأنبياء. وقد فصّل الإمام فخر الدين الرازي مختلف الآراء في ذلك، فقال: اعلم أن الاختلاف في هذه المسألة واقع في أربعة مواضع: **الأول**: ما يتعلق بالاعتقادية؛ واجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة إلا الفضيلية من الخوارج، فإنهم يجوزون الكفر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك لأن عندهم يجوز صدور الذنوب عنهم، وكل ذنب فهو كفر عندهم؛ فبهذا الطريق جوّزوا صدور الكفر عنهم. والروافض، فإنهم يجوّزون عليهم إظهار كلمة الكفر على سبيل التقية. الثاني: ما يتعلق بجميع الشرائع والأحكام من الله تعالى؛ وأجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة في هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع. الثالث: ما يتعلق بالفتوى، وأجمعوا على أنه لا يجوز تعمد الخطأ، فأما على سبيل السهو فقد اختلفوا فيه. الرابع: ما يتعلق بأفعالهم وأحوالهم، وقد اختلفوا فيه على خمسة مذاهب: الأول: الحشوية، وهو أنه يجوز عليهم الإقدام على الكبائر والصغائر. الثاني: أنه لا يجوز منهم تعمد الكبيرة البتة، وأما تعمد الصغيرة فهو جائز بشرط أن لا تكون منفراً، وأما إن كانت منفراً فذلك لا يجوز عليهم، مثل التطفيف بما دون الحبة، وهو قول أكثر المعتزلة. الثالث: أنه لا يجوز عليهم تعمد الكبيرة والصغيرة، ولكن يجوز صدور الذنب منهم على سبيل الخطأ في التأويل؛ وهو قول أبي علي الجبائي. الرابع: أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة، لا بالعمد ولا بالتأويل والخطأ؛ أما السهو والنسيان فجائز، ثم إنهم يعاتبون على ذلك السهو والنسيان، لما أن علومهم أكمل فكان الواجب عليهم المبالغة في التيقظ؛ وهو قول أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام. الخامس: أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة، لا بالعمد ولا بالتأويل ولا بالسهو والنسيان؛ وهذا مذهب الشيعة.

بأنهم من أهل الجنة(١)، وشهد للعشرة بالجنة، والراوي له سعيد بن زيد(٢) وهو أحد العشرة المبشرة بالجنة. وشهادة النبي ﷺ توجب سُكوناً إليها وطمأنينة بها وتصديقاً لها، وهذا يوجب الأمن من التغيير وزوال خوف التبديل لا محالة.

والروايات التي جاءت في خوف المُبَشَّرين، من قول أبي بكر رضي الله عنه: «يا لَيْتَنِي كُنْتُ تَمْرَةً يَنْقُرُها الطَّيْرُ»، وقول عمر رضي الله عنه: «يا لَيْتَنِي كُنْتُ هـذه التِّبْنَةَ، لَيْتَنِي لم أَكُ شَيْئاً»، وقول أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه: «وَدِدْتُ أَنّي كَبْشٌ، فَيَذْبحُنِي أَهْلِي ويَأْكُلُونَ لَحْمِي وَيَحْسُونَ مَرَقِي»، وقول عائشة رضي الله عنها: «يا لَيْتَنِي كُنْتُ وَرَقَةً مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»، وهي من شهد لها عمار بن ياسر على منبر الكوفة فقال: «أَشْهَدُ أَنَّها زَوْجَةُ النبيِّ ﷺ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ».

إنما كان ذلك منهم خوفاً من جَرَيانِ المخالفات عليهم، إجلالاً لله تعالى وتعظيماً لقدره وهيبةً له وحياءً منه، بأنهم أَجَلّوا الحق أن يخالفوه وإن لم يعاقبهم.

كما قال عمر رضي الله عنه: «نِعْمَ المَرْءُ صُهَيْبٌ، لو لم يَخَفِ اللَّهَ لم يَعْصِهِ».

يعني أن صهيباً ليس يترك المعصية لله خوف عقوبته، ولكنه يتركها إجلالاً له وتعظيماً لقدره وحياءً منه.

فخوف المبشَّرين لم يكن خوفاً من التغيير والتبديل، لأن خوف التغيير والتبديل مع شهادة النبي ﷺ يوجب شكّاً في أخبار النبي ﷺ، وهذا كفر، ولم يكن ذلك خوف عقوبة في النار دون الخلود فيها، لعلمهم أنهم لا يعاقبون بالنار على ما يكون منهم؛ لأنها إما أن تكون صغائرَ فتكون مغفورةً باجتناب الكبائر، أو بما يصيبهم من البَلْوَى في الدنيا.

قال عبد الله بن عمر فيما روي عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند رسول الله ﷺ، فأنزلت هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] فقال رسول الله

---

(١) من ذلك ما روى جابر قال: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها». رواه البيهقي في كتاب الاعتقاد (ص ١٨٢).

(٢) عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «عشرة في الجنة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص» قال: فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر، فقال القوم: ننشدك الله يا أبا الأعور أنت العاشر؟ قال: نشدتموني بالله تالله أبو الأعور في الجنة. رواه البيهقي في الاعتقاد (ص ١٨٨).

ﷺ: «أَلَا أُقْرِئُكَ آيَةً أُنْزِلَتْ عَلَيَّ؟» قلت: بلى يا رسول. قال: فأقرأنيها فلا أعلم ما أصابني، إلا أني وجدت انقصاماً[1] في ظهري فتمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ: «مَا شَأْنُكَ يا أَبَا بَكْرٍ؟» فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! وأينا لم يعمل سوءاً، وإنا لمجزون بما عملنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ يا أَبَا بَكْرٍ وَالمؤْمِنُونَ فَتُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقوا اللَّهَ وَلَيْسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ. وأَمَّا الآخَرُونَ فَيُجْمَعُ لَهم ذَلِكَ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

أو تكون كبائر فتقارنها التوبة لا محالة، فتصحّ بشارة النبي ﷺ لهم بالجنة.

على أن هذا الحديث قد بيّن أنه يأتي يوم القيامة ولا ذنب له؛ قال النبي ﷺ لعمر «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[3].

ولو كان كما قال بعض الناس: إنهم بُشِّروا بالجنة ولم يبشَّروا بأنهم لا يعاقَبون، فكان خوفهم من النار وإن علموا أنهم لا يخلَّدون فيها؛ لكان المبشَّرون وغيرهم من المؤمنين في ذلك سواء، لأنهم لا محالة مُخْرَجُونَ منها.

ولو جاز دخول أبي بكر وعمر النار مع قول النبي ﷺ: «هُمَا سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ»[4] جاز دخول الحسن والحسين مع قوله: «هما سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ»[5].

---

(١) أي انكساراً.

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن باب ٥، وقال: هذا حديث غريب وفي إسناده مقال، موسى بن عبيدة يضعَّف في الحديث ضعّفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل، ومولى ابن سباع مجهول. وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي بكر وليس له إسناد صحيح أيضاً؛ وفي الباب عن عائشة.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والدارمي، وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده. وهو جزء من حديث عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال الترمذي بعد أن رواه: وهذا حديث حسن صحيح، وفيه عن عمرو وجابر بن عبد الله.

(٤) تتمة الحديث في بعض الروايات: «إلاّ النبيين والمرسلين». رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٨٠) وابن ماجة في سننه (المقدمة باب ١١). والترمذي في الجامع الصحيح (كتاب المناقب باب ١٦) عن أنس.

(٥) من حديث أبي سعيد الخدري، رواه الإمام أحمد في المسند (٦٢/٣ و ٦٤ و ٨٢) والترمذي في الجامع الصحيح (كتاب المناقب باب ٣٠).

فإن كانت سادة أهل الجنة يجوز أن يدخلهم الله النار ويعذبهم بها، لم يَجُزْ أن يدخل أحدٌ الجنة إلا أن يعذَّب بالنار.

وقال النبي ﷺ: «**إنَّ أَهْلَ الدَّرَجاتِ العُلَى لَيراهُمْ مَنْ تَحْتَهَمْ كما تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ في أُفُقِ السَّماءِ، وإنَّ أبا بَكْر وعُمَرَ مِنْهُمَا وَأَنْعما**»[1].

فإن كانا هذان يدخلان النار ويخزيان فيها لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، فكيف بغيرهما؟

وقال ابن عمر: إن رسول الله ﷺ دخل المسجد وأبو بكر وعمر، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهو آخذ بأيديهما، وقال: «**هَكَذَا نُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[2].

فإن جاز دخولهما النار جاز دخولُ الثالث.

وقال النبي ﷺ: «**يَدْخُلُ مِنْ أُمّتِي الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ**»[3] فقال عكاشة بن محصن الأسدي: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم! فقال النبي ﷺ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**».

وأبو بكر وعمر أفضل من عكاشة لا محالة، لقول النبي ﷺ «**هُمَا سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ**»[4].

فكيف يجوز أن يدخل عكاشة الجنة بغير حساب وهو دونهما في الفضل وهما في النار! فهذا غلط كبير.

---

(١) رواه من حديث أبي سعيد الخدري الإمام أحمد في المسند (ج ٣ ص ٢٦ و٢٧) وابن ماجة في سننه (المقدمة باب ١١) والترمذي في الجامع الصحيح (كتاب المناقب باب ١٤) وقال: هذا حديث حسن روي من غير وجه عن عطية عن أبي سعيد.

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب باب ١٦. وفي إسناده سعيد بن مسلمة، قال الترمذي: وسعيد بن مسلمة ليس عندهم بالقوي.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان حديث رقم ٣٦٧) من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري في كتاب اللباس باب ١٨، ومسلم في الإيمان حديث رقم ٣٦٩ بلفظ: «يدخل الجنة من أمتي زمرة هي سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر».

(٤) سبق تخريجه في الصفحة السابقة، حاشية ٤.

فقد صحَّ بهذه الأخبار أنه لا يجوز أن يكونا مُعَذَّبَيْنِ بالنار مع شهادة الرسول ﷺ لها بالجنة، فقد تبين أمنهما؛ فمهما قيل فيهما وفي غيرهما من المبشَّرين كان ذلك قولاً فيمن سواهما من الأولياء من جواز الأمن.

وأما طريق معرفة سائر الأولياء دون المبشرين، إذْ كان المبشرون إنما علموا ذلك بإخبار النبي ﷺ، وغيرهم لم يكن فيهم رسول الله ﷺ فيخبرهم، فإنهم إنما يعرفون بما يُحْدِثُ الله فيهم من اللطائف التي يخص بها أولياءه، وبما يورد على أسرارهم من الأحوال التي هي أعلام ولايته؛ من اختصاصه لهم به، وجذبه لهم مما سواه إليه، وزوال العوارض عن أسرارهم، وفناء الحوادث لهم، والصوارف عنه إلى غيره، ووقوع المشاهدات والمكاشفات التي لا يجوز أن يفعلها الله تعالى إلا بأهل خاصته ومن اصطفاه لنفسه في أَزَلِهِ مما لا يفعل مثلها في أسرار أعدائه.

فقد ورد الخبر عن النبي ﷺ في أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «**إِنَّهُ لَمْ يَفْضُلْكُم بِكَثْرَةِ الصَّوْمِ والصَّلاةِ، وَلَكِنْ فَضَلَكُمْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ - أَوْ فِي قَلْبِهِ**». فهذا معنى الحديث[1].

ويؤمنهم أن يجدوا في أسرارهم كرامات ومواهب، وأنها على الحقيقة وليست بمخادعات، كالذي كان للذي آتاه آياته فانسلخ منها[2]، ومعرفتهم أن أعلام الحقيقة لا يجوز أن تكون كأعلام الخداع والمكر؛ لأن أعلام المخادعات تكون ظاهرة: من ظهور ما خرج من العادة مع ركون المخدوع بها إليها واغترارهم بها، فيظنوا أنها علامات الولاية والقرب، وهو في الحقيقة خداع وطرد. ولو جاز أن يكون ما يفعله بأوليائه من الاختصاص كما يفعله بأعدائه من الاستدراج، لجاز أن يفعل بأنبيائه ما يفعل بأعدائه، فيبعد أنبياءه ويلعنهم كما فعل بالذي آتاه آياته، وهذه لا يجوز أن يقال

---

(١) هذا الحديث لم أجد له أصلاً في الصحاح، ولكن الصوفية كثيراً ما يذكرونه في كتبهم، فلينظر.

(٢) قال تعالى في الآية ١٧٥ من سورة الأعراف: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ويذكر علماء التفسير أنه بلعام بن باعوراء أحد علماء بني إسرائيل، أوتي علم بعض كتب الله فكفر بها وأعرض عنها. أو هو أمية بن أبي الصلت الذي قرأ كتب الله وعلم أنه سبحانه باعث رسولاً، فرجا أن يكون هو، فلما بعث محمد ﷺ كفر به حسداً له.

في الله عزّ وجل. ولو جاز أن يكون للأعداء أعلام الولاية وأمارات الاختصاص، ويكون دلائل الولاية لا تدل عليه، لم يقم للحق دليل بتّة. وليست أعلام الولاية من جهة حلية الظواهر، وظهور ما خرج من العادة لهم فقط، لكن أعلامها إنما تكون في السرائر بما يحدث الله تعالى فيها مما يعلمه الله تعالى وما يجده في سرّه.

الباب السابع والعشرون

قَوْلُهُمْ في الإيمَانِ

الإيمان عند الجمهور منهم: قول، وعمل، ونيّة[1]، ومعنى النية التصديق.

ورُوي عن رسول الله ﷺ من طريق جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإيمَانُ إقْرارٌ بِاللِّسَانِ، وتَصْدِيقٌ بالقَلْبِ، وَعَمَلٌ بالأَرْكَانِ**»[2].

قالوا: أصل الإيمان إقرارُ اللسان بتصديق القلب، وفروعُهُ العمل بالفرائض[3].

---

(١) يجمعها قوله تعالى في سورة الأنفال، الآيات ٢ ـ ٤: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً﴾. وقد نقل الإمام ابن تيمية أقوال السلف في الإيمان، فقال: فتارة يقولون هو قول وعمل، وتارة يقولون هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة، وتارة يقولون قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح؛ وكل هذا صحيح، فإذا قالوا قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق. (انظر كتاب الإيمان لابن تيمية: ص ١٥١ ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٩٩١ م).

(٢) رواه السيوطي في الجامع الصغير وابن ماجة في سننه (المقدمة: باب ٩) بلفظ: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان». ورواه البيهقي في شعب الإيمان (حديث رقم ١٦) بلفظ «الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان» ورواه في كتاب الاعتقاد (ص ٩٩) بلفظ: «الإيمان قول باللسان عمل بالأركان معرفة بالقلب».

(٣) قال عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق (ص ٢٧٣) في معرض بيانه للأصول التي اجتمع عليها أهل السنة: إن أصل الإيمان المعرفة والتصديق بالقلب، وإنما اختلفوا في تسمية الإقرار وطاعات الأعضاء الظاهرة إيماناً مع اتفاقهم على وجوب جميع الطاعات المفروضة وعلى استحباب النوافل المشروعة، خلاف قول الكرامية الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار الفرد سواء كان معه إخلاص أو نفاق، وخلاف قول من زعم من القدرية والخوارج أن اسم المؤمن يزول عن مرتكبي الذنوب.

وقالوا: الإيمان في الظاهر والباطن؛ والباطن شيء واحد وهو القلب[1]. والظاهر أشياء مختلفة.

وأجمعوا أن وجوب الإيمان ظاهراً كوجوبه باطناً وهو الإقرار، غير أنه قسط جزء من أجزاء الظاهر دون جميعه. ولما كان قِسْطُ الباطن من الإيمان قِسْطُ جميعه، وجب أن يكون قسط الظاهر من الإيمان قسط جميعه، وقسط جميعه هو العمل بالفرائض[2]، لأنه يعم جميع الظاهر كما عم التصديق جميع الباطن.

وقالوا: الإيمان يزيد وينقص[3].

وقال الجُنَيْد وسهل وغيرهما من المتقدمين منهم: إن التصديق يزيد ولا ينقص، ونقصانه يخرج من الإيمان، لأنه تصديق بأخبار الله تعالى وبمواعيده، وأدنى شكّ فيه كفر، وزيادته من جهة القوة واليقين وإقرار اللسان لا يزيد ولا ينقص، وعمل الأركان يزيد وينقص[4].

---

(١) لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، وموضع التصديق القلب.

(٢) أداء الفرائض هنا هو العمل بالأركان، أما النوافل وهي طاعات فزائدة عن حدّ الإيمان.

(٣) أفرد الشيخ ابن تيمية فصلاً خاصاً لهذا الموضوع في كتابه «الإيمان» فأورد بعض الآثار التي تشير إلى ذلك، منها عن أبي الدرداء قال: «إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص، وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه». وعن أبي هريرة: «الإيمان يزيد وينقص». وعن عمر بن الخطاب أنه كان يقول لأصحابه: «هلموا نَزْدَدْ إيماناً!». وفي حديث علي: «إن الإيمان يبدو كلمظة في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة». وكان ابن مسعود يقول في دعائه: «اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً». وغيرها من الآثار. ثم ذكر ابن تيمية بعض الآيات القرآنية التي نطقت بزيادة الإيمان، منها قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾، وقوله تعالى: ﴿والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم﴾ إلى غيرها من الآيات التي حفل بها القرآن الكريم. ثم ذكر الشيخ وجوه زيادة الإيمان الذي أمر الله به والذي يكون من عباده المؤمنين. (انظر كتاب الإيمان لابن تيمية: ص ١٩٥ ـ ٢٠٤).

(٤) مسألة أن الإيمان يزيد وينقص، أو لا يزيد ولا ينقص، أو يزيد ولا ينقص؛ هذه المسألة متعلقة بتعريف الإيمان هل هو تصديق وإقرار في القلب فقط، أو هو تصديق وإقرار بالقلب وقول باللسان، أو هو تصديق وإقرار بالقلب وقول باللسان وعمل بالفرائض والأركان، أو هو إضافة إلى كل ذلك عمل بالنوافل أيضاً.

وقال قائل منهم: المؤمن اسم الله تعالى، قال الله جل جلاله: ﴿السَّلامُ المُؤْمِنُ المهيمنُ﴾ [الحشر: ٢٣] وهو يُؤَمِّنُ المؤمنَ بإيمانه من عذابه[١]. والمؤمن إذا أقرَّ وصدّق وأتى بالأعمال المفترضات وانتهى عن المنهيّات أمن عذاب الله، ومن لم يأت بشيء من ذلك فهو مخلد في النار، والذي أقرّ وصدّق وقصّر في الأعمال، فجائز أن يكون معذَّباً غير مخلد، فهو آمن من الخلود غير آمن من العذاب، فكان أمنه ناقصاً غير كامل، وأمن من أتى بها كلها أمناً تامّاً غير ناقص، فوجب أن يكون نقصان أمنه لنقصان إيمانه، إذ كان تمام أمنه لتمام إيمانه.

وقد وصف النبي ﷺ إيمان من قصّر في واجب بالضّعْف، فقال: «وذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمَانِ»[٢]، وهو الذي يَرَى المنْكَرَ فينكره بباطنه دون ظاهره، فأخبر أن إيمان الباطن دون الظاهر إيمانٌ ضعيف.

ووصفه بالكمال فقال: «أَكْمَلُ المُؤمِنِينَ إيماناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»[٣]؛ والأخلاق

---

(١) قال البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٨٣) في معرض حديثه عن اسم الله تعالى «المؤمن» قال: قال الحليمي: ومعناه المصدق، لأنه إذا وعد صدق وعده، ويحتمل المؤمن عباده بما عرفهم من عدله ورحمته من أن يظلمهم ويجور عليهم؛ قال أبو سليمان فيما أخبرت عنه: أصل الإيمان في اللغة التصديق، فالمؤمن المصدق؛ ويحتمل ذلك وجوهاً: أحدها أنه يصدق عباده وعده ويفي بما ضمنه لهم من رزق الدنيا وثواب على أعمالهم الحسنة في الآخرة؛ والآخر أنه يصدق ظنون عباده المؤمنين ولا يخيب آمالهم، كقول النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء». وقيل بل المؤمن الموحد نفسه لقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾. وقيل بل المؤمن الذي آمن عباده المؤمنين من عذابه يوم القيامة. وقيل هو الذي آمن خلقه من ظلمه. وقد دخل أكثر هذه الوجوه فيما قاله الحليمي، إلا أن هذا أبين.

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. أخرجه أحمد ومسلم والترمذي؛ وتمامه: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

(٣) رواه أبو داود في السنن (كتاب السنة باب ١٤). ورواه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ (ج ٢ ص ٥٢٧)، وفي ج ٢ ص ٢٥٠ بزيادة: «.... وخيارهم خيارهم لنسائهم»، وفي ج ٢ ص ٤٧٢ بزيادة: «.... وخياركم خياركم لنسائكم». ورواه أيضاً من حديث عائشة بزيادة: «.... وألطفهم بأهله» (ج ٦ ص ٤٧ و ٩٩). ورواه البيهقي في كتاب «الاعتقاد» من حديث أبي هريرة، وعلّق قائلاً. وقوله «أكمل المؤمنين إيماناً» أراد به والله أعلم: من أكمل المؤمنين إيماناً، جمعاً بينه وبين سائر ما ورد في هذا المعنى؛ وهذا لفظ سائر في كلام العرب، يقولون أكمل وأفضل، ومرادهم به من أكمل ومن أفضل.

تكون في الظاهر والباطن، فما عمَّ الجميع وُصف بالكمال، وما لم يعمَّ الجميع وُصف بالضعف.

وقال بعضهم: زيادةُ الإيمانِ ونقصانُهُ من جهة الصِّفَةِ لا من جهة العَيْنِ. فزيادةُ الإيمان من جهة الجودة والحسن والقوة، ونقصانه من نقصانها[١] لا من جهة العين[٢].

وقد قال النبي ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، ولم يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ أَرْبَعٌ»[٣]، وهن مريم وفاطمة وخديجة وعائشة، رضي الله عنهن.

ولم يكن نقصان سائر النساء من جهة أعيانهن ولكن من جهة الصفة.

وَوَصَفُهنَّ أيضاً بنقصان العقل والدين، وفسَّر نقصان دينهم بتركهن الصلاة والصيام في الحَيْضِ[٤].

---

(١) يعني من نقصان الجودة والحسن والقوة.

(٢) الإيمان من جهة الصفة إذا أُريد به العلم والعمل فلا خلاف أنه يزيد وينقص، وإذا أُريد به العلم فقط فهنا اختلافهم. أما الإيمان من جهة العين فهو يعني العلم والتصديق، وفي هذا قال ابن تيمية في كتاب الإيمان (ص ٢٠١): العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس للهلال وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، والذي في البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» لفظ البخاري في كتاب الأطعمة باب ٢٥ من حديث أبي موسى الأشعري. وروى ابن كثير في البداية والنهاية عن قرة بن إياس عن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». (انظر البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٢٧ ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧ م).

(٤) روى البخاري في صحيحه (كتاب الحيض باب ٦) عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلَّى، فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدَّقن فإني أُريتكن أكثر أهل =

والدين الإسلام، وهو والإيمان واحد عند من لا يرى العمل من الإيمان.

وسئل بعضُ الكبراء عن الإيمان فقال: «الإيمانُ مِنَ اللَّهِ لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ، ومِنَ الأنْبِيَاءِ يَزيدُ ولا يَنْقُصُ، ومِنْ غَيْرِهِمْ يَزيدُ ويَنْقُصُ».

فمعنى قوله: «من الله لا يزيد ولا ينقص»، أن الإيمان صفة لله تعالى وهو موصوف به، قال الله تعالى: ﴿السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣] وصفات الله لا توصف بالزيادة والنقصان.

ويجوز أن يكون الإيمان من الله جل وعز هو الذي قسمه للعبد منه في سابق علمه لا يزيد وقت ظهوره ولا ينقص عما علمه منه وقسمه له.

والأنبياء في مقام المزيد من الله تعالى من جهة القوة واليقين ومشاهدات أحوال الغيوب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمواتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِن المُوقِنِين﴾ [الأنعام: ٧٥].

وسائر المؤمنين يزيد إيمانهم في بواطنهم بالقوة واليقين، وينقص من فروعه بالتقصير في الفرائض وارتكاب المناهي.

والأنبياء معصومون عن ارتكاب المناهي ومحفوظون في الفرائض عن التقصير، فلا يوصفون بالنقصان في شيء من أوصافهم في حقائق الإيمان.

= النار!» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن» قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها». وروى مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان حديث رقم ١٣٢) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبٍّ منكن» قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي ما تصلّي وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين».

الباب الثامن والعشرون

قَوْلُهُم في حَقائِقِ الإيمَانِ

قال بعض الشيوخ: «حَقَائِقُ الإيمَانِ أَرْبَعَةٌ: تَوْحِيدٌ بلا حدٍّ، وذِكْرٌ بلا بَتٍّ[1]، وحَالٌ بلا نَعْتٍ، ووَجْدٌ بلا وَقْتٍ».

معنى «حال بلا نعت» أن يكون وصفه حاله حتى لا يصف حالاً من الأحوال الرفيعة إلا وهو بها موصوف؛ و «وجد بلا وقت»: أن يكون مشاهداً للحقّ في كل وقت.

وقال بعضهم: «مَنْ صَحَّ إيمانُهُ لم يَنْظُرْ إلى الكَوْنِ وما فيه؛ لأنَّ خَسَاسَةَ الهِمَّةِ مِنْ قِلَّةِ المَعْرِفَةِ باللَّهِ تعالى».

وقال بعضهم: «صِدْقُ الإيمانِ التَّعْظِيمُ للَّهِ وثَمَرَتُهُ الحَيَاءُ مِنَ اللهِ».

وقيل: «المؤمِنُ مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ بنُورِ الإسلامِ، مُنيبُ القَلْبِ إلى رَبِّهِ، شَهِيدُ الفُؤادِ لرَبِّهِ، سَليمُ اللُّبِّ، مُتَعَوِّذٌ برَبِّهِ، مُحْتَرِقٌ بقُرْبِهِ، صَارِخٌ مِنْ بُعْدِهِ».

وقال بعضهم: «الإيمانُ بالله مُشَاهَدَةُ أُلُوهِيَّتِهِ».

وقال أبو قاسم البغدادي[2]: «الإيمانُ هو الذي يَجْمَعُكَ إلى الله ويَجْمَعُكَ بالله، والحقُّ واحدٌ، والمؤمِنُ مُتَوَحِّدٌ، ومَنْ وَافَقَ الأشْيَاءَ فَرَّقَتْهُ الأهْوَاءُ، ومن تَفَرَّقَ عنِ الله بهَواهُ، وتَبِعَ شَهْوَتَهُ وما يَهْواهُ فَاتَهُ الحَقُّ. ألا تَرَى أنَّه أمرهم بتَكْرِير العُقُودِ عند كل خَطْرَةٍ ونَظْرَةٍ، فقال: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا باللَّهِ ورَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال النبي ﷺ: **«الشِّرْكُ أَخْفَى في أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ على الصَّفَا[3] في اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ»**[4].

---

(١) البتّ: القطع.

(٢) لعله أبو القاسم بكر بن شاذان بن بكر البغدادي. توفي يوم السبت التاسع من شوال سنة ٤٠٥، ودفن بمقبرة باب حرب (صفة الصفوة: ج ٢ ص ٣١٢).

(٣) الصفا: العريض من الحجارة الأملس؛ جمع صفاة، فإذا ثني قيل صفوان. (لسان العرب: مادة صفا).

(٤) معنى الحديث في مسند الإمام أحمد ومستدرك الحاكم وغيرهما من كتب الحديث. ورواه بهذا اللفظ أبو نعيم في حلية الأولياء (ج ٨ ص ٣٦٨ وج ٩ ص ٢٥٣) من حديث عائشة، وفيه زيادة: «... وأدناه أن تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟..».

وقال النبي ﷺ: «تَعِسَ[1] عَبْدُ الدِّينَارِ! تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ! تعِسَ عَبْدُ بَطْنِهِ! تَعِسَ عَبْدُ فَرْجِهِ! تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ!»[2].

وسألت بعض مشايخنا عن الإيمان، فقال: «هو أن يكون الكُلُّ منكَ مُسْتَجِيباً في الدَّعْوَةِ مع حَذْفِ خواطِرِ الانْصِرَافِ عن الله بسِرِّكَ، فتكون شاهداً لما له، غائباً عمّا ليس له».

وسألته مرة أخرى عن الإيمان، فقال: «الإيمانُ ما لا يجوزُ إتْيانُ ضِدِّهِ».

وفي قوله: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا أهل صفوتي ومعرفتي، يا أهل قربي ومشاهدتي.

وجعل بعضهم الإيمانَ والإسلامَ واحداً، وفرَّق بعضهم بينهما؛ فقال من فرق بينهما: «الإسلام عامٌّ والإيمان خاصٌّ».

وقال بعضهم: «الإسْلامُ ظَاهِرٌ، والإيمانُ باطِنٌ».

وقال بعضهم: «الإيمان تحْقيقٌ واعْتِقادٌ، والإسْلامُ خُضُوعٌ وانْقِيَادٌ».

وقال بعضهم: «التَّوْحِيدُ سِرٌّ وهو تَنْزِيهُ الحَقِّ عَنْ دَرْكِهِ، والمَعْرِفَةُ بِرٌّ وهو أَنْ تَعْرِفَهُ بصِفَاتِهِ، والإيمَانُ عَقْدُ القَلْبِ بِحِفْظِ السِّرِّ وَمَعْرِفَةِ البِرِّ، والإسْلامُ مُشَاهَدَةُ قِيَامِ الحَقِّ بكُلِّ ما أنْتَ به مُطَالبٌ»[4].

---

(١) قوله «تعس» بكسر العين وتفتح: انكب على وجهه أو بعد أو هلك أو شقي. (عن حاشية صحيح البخاري).

(٢) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان فإن لم يكن مُعْلماً فليس بخميصة. (لسان العرب: مادة خمص).

(٣) رُوي بطرق وأسانيد وألفاظ مختلفة. ورواه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد باب ٧٠، وكتاب الرقاق باب ١٠) ولفظه في الرقاق: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطي رضي وإن لم يُعْطَ لم يرض».

(٤) ما ذكره فيما سلف من أقوالهم في الفرق بين الإيمان والإسلام هي أقوال صوفية. وقد أطنب الغزالي في إحياء علوم الدين في البحث في هذه المسألة، فنظر في اللفظين من جانب اللغة ومن جانب التفسير ومن جانب الفقه. قال: اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره، وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه؛ فقيل إنهما شيء واحد، وقيل إنهما شيئان لا يتواصلان، وقيل إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر. قال: فنقول في هذا ثلاثة مباحث: بحث عن موجب اللفظين في =

الباب التاسع والعشرون

قَوْلُهُمْ في المَذَاهِبِ الشَّرْعِيَّةِ

إنهم يأخذون لأنفسهم بالأحْوَطِ والأوْثَق فيما اختلف فيه الفقهاء، وهم مع إجماع الفريقين فيما أمكن وَيَرَوْنَ اختلاف الفقهاء صواباً ولا يعترض الواحد منهم على الآخر، وكل مجتهد عندهم مُصيبٌ[1]، وكل من اعتقد مذهباً في الشرع وصح ذلك عنده بما يصح مثله مما يدل عليه الكتاب والسنة وكان من أهل الاستنباط فهو مصيبٌ باعتقاده ذلك، ومن لم يكن من أهل الاجتهاد أخذ بقول من أفتاه ممن سبق إلى قلبه من الفقهاء أنه أعلم وقوله حجة له.

وأجمعوا على تعجيل الصلوات، وهو الأفضل عندهم مع التيقُّن بالوقت. ويَرَوْنَ تعجيل أداء المفترضات عند وجوبها، لا يرون التقصيرَ والتأخيرَ والتفريطَ فيها لعُذْر.

= اللغة، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة. والبحث الأول لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي.

ثم أخذ الغزالي في المباحث الثلاثة، فبيّن في المبحث الأول، وهو اللغوي، أن الإيمان عبارة عن التصديق، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد. ثم توصل إلى أن موجب اللغة أن الإسلام أعمّ والإيمان أخصّ، فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام، فكل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً.

أما المبحث الثاني، وهو إطلاق الشرع، فبيّن أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل. ثم ذكر آيات من كتاب الله تعالى وأحاديث نبوية شاهدة على ذلك. وتوصل في هذا المبحث إلى النتيجة التي توصل إليها في المبحث اللغوي من أن الإسلام أعمّ من الإيمان.

وفي مبحث الحكم الشرعي بيّن الغزالي أن الإسلام والإيمان حكمان: أخروي ودنيوي. ثم أطنب في هذا المبحث، فلينظر في إحياء علوم الدين (ج ١ ص ١٣٩ وما بعدها)

(١) مسلكهم في اعتبار كل مجتهد مصيباً محلّ خلاف بين الفقهاء والأصوليين والذين رأوا هذا الرأي يتمسكون بالحديث المشهور: «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

ويرون تقصير الصلاة في السفر، ومن أَدْمَنَ السفر منهم ولم يكن له مقر أتم الصلاة.

ورأوا الفطر في السفر جائزاً(١).

واستطاعة الحج عندهم الإمكانُ من أيِّ وجهٍ كان، ولا يشترطون الزاد والراحلة فقط. قال ابن عطاء: «الاستطاعة اثنان: حالٌ ومالٌ، فمن لم يكن له حال يُقِلُّهُ ولا مال يُبَلِّغُهُ لا يجب عليه».

الباب الثلاثون

قَوْلُهم في المكَاسِبِ

أجمعوا على إباحة المكاسب من الحِرَفِ والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة عن تيقُّظ وتثبُّت وتحرُّز من الشبهات، وأنهـا تُعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العَوْدِ على الأغيار والعطف على الجار؛ وهي عندهم واجبة لمن رُبط به غيره ممن يلزمه فرضه(٢).

وسبيل المكاسب عند الجُنَيْدِ ما سبق من الشرط: سبيل الأعمال المقرَّبة إلى الله عز وجل. ويشتغل العبد بها على حسب ما يشتغل في إتيان ما نُدب إليه من النوافل لا على أن بها تُجلب الأرزاقُ وتُجَرُّ المنافع.

---

(١) خلافاً لمن أوجب ذلك.

(٢) وهذا عند الصوفي الذي يكون في بداية الطريق، أما الصوفي الواصل فهو عندهم منقطع عن العلائق ومتخلٍّ عن الأسباب. قال السهروردي في عوارف المعارف (ص ١٢٩): اختلفت أحوال الصوفية في الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب، فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم ولا يتسبب بكسب ولا سؤال، ومنهم من كان يكتسب، ومنهم من كان يسأل في وقت فاقته، ولهم في ذلك أدب واحد يراعونه ولا يتعدّونه. ثم قال (ص ١٣٢): إذا كمل شغل الصوفي بالله وكمل زهده لكمال تقواه بحكم الوقت عليه يترك التسبب ويكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام، ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله له باباً من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقا مما هو منهيٌّ عنه في الشرع يجد غبَّ ذلك في وقته أو يومه.

وهي عند غيره مباح للفرد ليس بواجب عليه، من غير أن يقدح في توكله أو يجرح دينه.

والاشتغال بوظائف الحقِّ أَوْلى وأَحَقُّ، والإعراض عنه عند صحَّة التوكُّل والثقة بالله أَوْجَبُ.

وقال سهل: «لا يصحُّ الكَسْبُ لأهْلِ التوكُّلِ إلا لاتّباعِ السُّنَّة، ولا لغيرهم إلا للتَّعَاوُنِ».

* * *

هذا ما تحققناه وصح عندنا من مذاهب القوم من أقاويلهم في كتبهم ممن ذكرنا أساميهم ابتداء، وما سمعناه من الثقات ممن عرف أصولهم وتحقق مذاهبهم، والذي فهمناه من رموزهم وإشاراتهم في ضمن كلامهم. قال: وليس كل ذلك مسطوراً لهم على حسب ما حكيناه، وأكثر ما ذكرنا من العلل والاحتجاج فمن كلامنا، عبارة عما حصلناه من كتبهم ورسائلهم.

ومن تدبر كلامهم وفحص كتبهم، علم صحة ما حكيناه. ولولا أنا كرهنا الإطالة والإكثار لكنا نذكر مكان ما حكيناه من كلامهم من كتبهم نصّاً ودلالة، إذ ليس كل ذلك مرسوماً في الكتب على التصريح.

ونذكر الآن بعض ما تخصصوا به من أقاويلهم، وما استعملوه من ألفاظهم مما تفردوا به، والعلوم التي عُنُوا بها وما يدور كلامهم عليه، ونشرح بعضَ ما يمكن شرحه، وبالله نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الباب الحادي والثلاثون

عُلُومُ الصُّوفِيَّةِ عُلُومُ الأحَوالِ

أقول وبالله التوفيق: اعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال، والأحوال مواريث الأعمال[1]، ولا يرث الأحوال إلا من صحّح الأعمال.

---

(١) الأحوال في تعريف كمال الدين عبد الرزاق القاشاني: «هي المواهب الفائضة على العبد من ربه، إما واردة عليه ميراثاً للعمل الصالح المزكّي للنفس المصفّي للقلب، وإما نازلة من الحق امتناناً محضاً.»

وأول تصحيح الأعمال معرفةُ علومها، وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه: من الصلاة، والصوم، وسائر الفرائض، إلى علم المعاملات؛ من النكاح، والطلاق، والمبايعات، وسائر ما أوجب الله تعالى وندب إليه وما لا غَنَاءَ به عنه من أمور المعاش.

وهذه علوم التعلم والاكتساب:

فأول ما يلزم العبد الاجتهاد في طلب هذا العلم وإحكامه على قدر ما أمكنه ووسعه طَبْعُه وقوي عليه فَهْمُه، بعد إحكام علم التوحيد(١) والمعرفة، على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه، القدر الذي يتيقن بصحة ما عليه أهل السنة والجماعة؛ فإن وُفِّق لما فَوْقَه من نَفْي الشُّبَهِ التي تعترضه من خاطر أو ناظر، فذاك، وإن أعرض عن خواطر السوء اعتصاماً بالجملة التي عرفها، وتجافى عن

= وإنما سميت أحوالاً لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الخفية ودرجات القرب، وذلك هو معنى الترقي». (انظر اصطلاحات الصوفية للقاشاني: ص ٢٦ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١).

(١) تكلم الغزالي عن علم التوحيد في كتاب العلم من الإحياء (ح ١ ص ٤٥) قال: جُعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات حتى تلقب طائفة منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمي المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة. فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عباره عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله. . . ثم قال: والتوحيد جوهر نفيس وله قشران أحدهما أبعد عن اللب من الآخر، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية. فالقشر الأول: هو أن تقول بلسانك «لا إله إلا الله» وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به النصارى، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره. والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به، وهو توحيد عوام الخلق، والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة. والثالث وهو اللباب، أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره.

المُنَاظِرِ الذي يحاجّه فيه ويجادله عليه وباعده، فهو في سعة إن شاء الله عز وجل[1]، واشتغل باستعمال علمه وعمل بما علم.

فأول ما يلزمه: علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها، ومكائد العدو، وفتنة الدنيا وسبيل الاحتراز منها؛ وهذا العلم علم الحكمة[2].

فإذا استقامت النفس على الواجب، وصلحت طباعُها، وتأدّبت بآداب الله عز وجل: من زَمّ[3] جوارحها، وحفظ أطرافها، وجمع حواسّها؛ سهل عليه إصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها والفراغ مما لها وعزوفها عن الدنيا وإعراضها عنها.

فعند ذلك يمكن العبد مراقبة الخواطر وتطهير السرائر، وهذا هو علم المعرفة.

ثم وراء هذا علوم الخواطر[4]، وعلوم المشاهدات والمكاشفات[5]، وهي التي

---

(١) قوله «فهو في سعة إن شاء الله عز وجل» ينبغي أن يكون موضعه بعد الجملة التالية، كما هو واضح.

(٢) هذا ما أراده الإمام الغزالي في معنى علم الحكمة؛ قال في الإحياء (كتاب العلم، ص ٥٠) منتقداً وضع العامة اسم الحكيم في غير موضعه: اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم، حتى على الذي يدحرج القرعة على أكفّ السوادية في شوارع الطرق. والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ وقال ﷺ: «كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها»، فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه وإلى ماذا نقل!

(٣) الزَّمُّ: الشدّ، ومنه زمام البعير، وهو الحبل الذي يشدّ به. وزم الجوارح يعني تقييدها وعدم إطلاقها من عقالها في فعل المنهيّ.

(٤) عرّف الإمام الغزالي الخواطر فقال: اعلم أن الخواطر آثار تحدث في قلب العبد تبعثه على الفعل أو الترك، وحدوث جميعها في القلب من الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء؛ ولكنها أربعة أقسام: فقسم منها يحدثه الله تعالى في قلب العبد ابتداء فيقال له الخاطر فقط، وقسم يحدثه موافقاً لطبع الإنسان فيقال له هو النفس، وقسم يحدثه عقب دعوة الشيطان فينسب إليه ويقال له الوسواس، وقسم يحدثه الله ويقال له الإلهام. ثم اعلم أن الخاطر الذي من قبل الله تعالى ابتداء قد يكون خيراً إكراماً وإلزاماً للحجة، وقد يكون شرّاً امتحاناً. والخاطر الذي يكون من قبل الملهم لا يكون إلا بخير إذ هو ناصح مرشد لا يرسل إلا لذلك، والخاطر الذي يكون من قبل الشيطان لا يكون إلا بشر إغواء وربما يكون بالخير مكراً منه واستدراجاً، والخاطر الذي يكون من قبل النفس لا يكون إلا بالشر وقد يكون بالخير لا لذاته. (انظر روضة الطالبين وعمدة السالكين للإمام الغزالي: ص ٧٨ ـ ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٢) ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦).

تختص بعلم الإشارة، وهو الذي تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم التي وصفناها.

وإنما قيل علم الإشارة، لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحلّ تلك المقامات.

روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ أَهْلُ المَعْرِفَةِ باللَّهِ، فإذا نَطَقُوا به لم يُنْكِرْهُ إلاَّ أَهْلُ الغِرَّةِ باللَّهِ**»(١).

= وقريب من تعريف الغزالي للخواطر تعريف القاشاني في اصطلاحات الصوفية (ص ١٥٨) قال: الخاطر ما يرد على القلب من الخطاب أو الوارد الذي لا تَعَمُّلَ للعبد فيه، وما كان خطاباً فهو على أربعة أقسام. . . . الخ. ثم ذكر نفس تقسيم الغزالي.

(٥) قال الإمام الغزالي: علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم: بدعة أو كبر، من كان محبّاً للدنيا أو مصرّاً على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً. . . وتابع الغزالي قائلاً: وهو علم الصديقين والمقربين، أعني علم المكاشفة، فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع بها من قبل أسمائها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامّات وبأفعاله وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي، ومعنى الوحي، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب. . . إلى أن قال: فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا. وإنما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله. (انظر إحياء علوم الدين، كتاب العلم: ج ١ ص ٣١ و ٣٢).

(١) رواه الغزالي في الإحياء (كتاب العلم، ج ١ ص ٣٢) وتمامه: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى، فلا تحقروا عالماً آتاه الله =

وعن عبد الواحد بن زيد[1] قال: سألت الحسن عن علم الباطن فقال: سألت حُذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال: سألت رسول الله عن علم الباطن فقال: «سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَنْ عِلْمِ البَاطِنِ فَقَالَ: سَأَلْتُ الله عَزَّ وجَلَّ عَنْ عِلْمِ البَاطِنِ فَقَالَ: هُوَ سِرٌّ مِنْ سِرِّي أَجْعَلُهُ فِي قَلْبِ عَبْدِي، لَا يَقِفُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِي»[2].

قال أبو الحسن بن أبي ذر في كتابه «منهاج الدين»: أنشدونا للشبلي:

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لا نَفَادَ لَهُ ... عِلْمٌ سَنِيٌّ سَمَاوِيٌّ رُبُوبِي
فِيهِ الفَوائِدُ لِلأَرْبَابِ يَعرِفُهَا ... أَهلُ الجَزَالَةِ والصُّنعِ الخُصُوصِي

ثم لكل مقام[3] بدء ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة، ولكل مقام علم، وإلى كل حال إشارة، ومع كل مقام إثبات ونفي، وليس كل ما نُفي في مقام كان منفيّاً فيما قبله، ولا كل ما أُثبت فيه كان مُثْبَتاً فيما دونه.

وهو كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ»[4].

= تعالى علماً منه، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه». قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(١) انظر ترجمته ص ٢٢ حاشية ١٠.

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (ج ١٠ ص ٤٥).

(٣) هناك اشتباه بين الحال والمقام لتشابههما وتداخلهما، وقد أطنب السهروردي في شرح الفرق بينهما في كتابه «عوارف المعارف» ومما قاله: «قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك، ووجود الاشتباه لمكان تشابههما في نفسهما وتداخلهما، فتراءى للبعض الشيء حالاً وتراءى للبعض مقاماً، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما؛ ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما. على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق، فالحال سمي حالاً لتحوّله، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره؛ وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول، فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال، ثم يحوّل الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم، ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه، فيصير عن مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة» (انظر عوارف المعارف: ص ٣٠٠ ـ ملحق بالجزء الخامس من إحياء علوم الدين للغزالي).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٣ / ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١) من حديث أنس بن مالك بلفظ: «لا =

فنفى إيمان الأمانة لا إيمان العقد[1]، والمخاطبون أدركوا ذلك، إذ كانوا قد حَلُّوا مقام الأمانة أو جاوزوه إلى ما فوقه، وكان عليه السلام مشرفاً على أحوالهم فصرَّح لهم.

وأما من لم يشرف على أحوال السامعين، وعبر عن مقامٍ فنَفَى فيه وأثبت، جاز أن يكون في السامعين من لم يحل ذلك المقام، وكان الذي نفاه القائل مثبتاً في مقام السامع، فيسبق إلى وهم السامع أنه نفى ما أثبته العلم، فخطَّأ قائله أو بَدَّعه وربما كفَّره.

فلما كان الأمر كذلك اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ في علومها تعارفوها بينهم ورمزوا بها، فأدركهُ صاحبه وخَفي على السامع الذي لم يحلَّ مقامه، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله ويرجع إلى نفسه فيحكم عليها بقصور فهمه عنه، أو بسوء ظنه به فيهوِّس[2] قائله وينسبه إلى الهذيان؛ وهذا أسلم له من رد حقٍّ وإنكاره.

قال بعض المتكلمين لأبي العباس بن عطاء: ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظاً أغْرَبْتُمْ بها على السامعين، وخرجتم عن اللسان المعتاد؟ هل هذا إلا طلبٌ للتَّمْويه أو ستر لعَوَارِ[3] المذهب؟ فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لِعزَّته علينا، كيلا يشربها غير طائفتنا. ثم اندفع يقول:

أحْسَنُ مَا أُظْهِرُهُ ونُظْهِرُهُ   بَادِىءَ حَقٍّ لِلقُلُوبِ نَشْعُرُهُ

= إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» ورواه بهذا اللفظ أيضاً الهيثمي في موارد الظمآن، والمنذري في الترغيب والترهيب، والمتقي الهندي في كنز العمال، ورواه بلفظ: «لا إيمان لمن لا أمان له ولا دين لمن لا صلاة له» المتقي الهندي في كنز العمال. وبلفظ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له» المنذري في الترغيب والترهيب، والطبراني في المعجم الصغير. وبلفظ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا وضوء له» المتقي الهندي في كنز العمال. وبلفظ: لا إيمان لمن لا أمانة له والمعتدي في الصدقة كمانعها» المتقي الهندي في كنز العمال، وابن خزيمة في صحيحه.

(١) أي العقيدة يعني أنه نفى عنه نوعاً من الإيمان هو إيمان الأمانة فقط، ولم ينفِ عنه الإيمان نفياً مطلقاً؛ بمعنى أن خائن الأمانة لا يطلق عليه اسم الكافر، والكافر هو فاقد الإيمان مطلقاً.

(١) أي ينسبه إلى الهَوَس، وهو كما جاء في لسان العرب طرفٌ من الجنون.

(٣) العوار (بفتح العين وقد تضمّ): العيب: (لسان العرب: مادة عور).

يُخْبِرُنِي عَنِّي وعَنْهُ أخْبِرَهْ ... أكْسُوهُ مِنْ رَوْنَقِهِ ما يَسْتُرُهْ
عَنْ جَاهِلٍ لا يَسْتَطِيعُ يَنْشُرُهْ ... يُفْسِدُ مَعْنَاهُ إذا ما يَعْبُرُهْ[1]
فَلا يُطِيقُ اللَّفْظَ بَلْ لا يَعْشُرُهْ[2] ... ثم يُوافي غَيْرَهُ فَيُخْبِرُهْ
فيُظْهِرُ الجَهْلَ وَتَبْدُو زُمَرُهْ ... وَيَدْرُسُ[3] العِلْمُ وَيَعْفُو أثَرُهْ

وأنشدونا أيضاً له:

إذا أهْلُ العِبَارَةِ سَاءَلُونَا ... أجَبْنَاهُمْ بِأعْلامِ الإشَارَهْ
نُشِيرُ بِهَا فَنَجْعَلُهَا غُمُوضاً ... تُقَصِّرُ عَنْهُ تَرْجَمَةُ العِبَارَهْ
وَنَشْهَدُهَا وتُشْهِدُنَا سُرُوراً ... لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ إثَارَهْ
تَرَى الأقْوَالَ فِي الأحْوَالِ أسْرَى ... كَأسْرِ العَارِفِينَ ذَوِي الخَسَارَهْ

الباب الثاني والثلاثون

في التَّصَوُّفِ ما هُوَ

سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسي يقول: «أرْكَانُ التَّصَوُّفِ عَشْرَةٌ: أوَّلُها تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ، ثم فَهْمُ السَّمَاعِ، وحُسْنُ العِشْرَةِ، وإيثَارُ الإيثَارِ، وتَرْكُ الاخْتِيَارِ، وسُرْعَةُ الوَجْدِ، والكَشْفُ عن الخَوَاطِرِ، وكَثْرَةُ الأسْفَارِ، وَتَرْكُ الاكْتِسَابِ، وتَحْرِيمُ الادِّخَارِ».

معنى تجريد التوحيد: أن لا يَشُوبَه خاطر تشبيهٍ أو تعطيل.

وفهم السماع: أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط.

وإيثار الإيثار: أن يُؤثر على نفسه بالإيثار ليكون فضل الإيثار لغيره.

وسرعة الوجد: أن لا يكون فارغ السر مما يثير الوجد، ولا ممتلىء السر مما

(١) يعبره: يفسره، يقال: عَبَرَ الرؤيا يَعْبُرُها عَبْراً وعبارةً وعَبَّرها. فسّرها وأخبر بما يؤول إليه أمرها، وفي التنزيل العزيز: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾

(٢) لا يعشره: لا يبلغ معشاره.

(٣) يدرس: ينمحي.

يمتنع من سماع زواجر الحق.

والكشف عن الخواطر: أن يبحث عن كل ما يخطر على سره فيتابع ما للحقّ ويدع ما ليس له.

وكثرة الأسفار: لشهود اعتبار في الآفاق والأقطار.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وقيل في قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: بضياء المعرفة لا بظلمة النكرة، ولقطع الأسباب، ورياضة النفوس، وترك الاكتساب لمطالبة النفوس بالتوكل، وتحريم الادّخار في حالة لا في واجب العلم.

كما قال النبي ﷺ في الذي مات من أهل الصُّفَّة وترك ديناراً، فقال رسول الله ﷺ: «كَيَّةٌ»[1].

الباب الثالث والثلاثون

في الكَشْفِ عن الخَوَاطِرِ

قال بعض الشيوخ: الخاطر على أربعة أوجه: خاطِرٌ من الله عز وجل، وخاطر من المَلَكِ، وخاطر من النَّفْسِ، وخاطر من العَدُوِّ.

فالذي من الله تنبيهٌ، والذي من المَلَكِ حَثٌّ على الطاعة، والَّذي من النفس مطالبةُ الشهوة، والذي من العدوِّ تزْيينُ المعصية.

فبنُور التوحيد يقبل من الله، وبنُور المعرفة يقبل من المَلَكِ، وبنُور الإيمان يَنْهَى النفس، وبنور الإسلام يردُّ على العدوِّ[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١ / ٤١٢، ٤٢١، ٤٥٧) من حديث عبد الله بن مسعود، ولفظه: أن رجلاً من أهل الصفّة مات فوجد في برده ديناران، فقال النبي ﷺ «كيَّتان». ولم أجده بلفظ «كيّة» بالإفراد.

(٢) انظر قول الغزالي والقاشاني في الخواطر الأربعة ص ١٠٥ حاشية رقم ٤ وفي عوارف المعارف للإمام =

الباب الرابع والثلاثون

في التَّصَوُّفِ والاسْتِرْسَالِ

قال الجُنَيْد: «التَّصَوُّفُ حِفْظُ الأَوْقَاتِ»(١) قال: «وهُوَ أَنْ لا يُطَالِعَ العَبْدُ غَيْرَ حَدِّهِ، ولا يُوافِقَ غَيْرَ رَبِّهِ، ولا يُقَارِنَ غَيْرَ وَقْتِهِ».

وقال ابن عطاء: «التَّصَوُّفُ الاسْتِرْسَالُ مَعَ الحَقِّ»(٢).

قال أبو يعقوب السوسي: «الصُّوفِيُّ هُو الَّذي لا يُزْعِجُهُ سَلْبٌ ولا يُتْعِبُهُ

= السهروردي (ص ٢٩٧) قال: سمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري بالبصرة يقول: الخواطر أربعة - خاطر من النفس، وخاطر من الحقّ، وخاطر من الشيطان، وخاطر من الملك. فأما الذي من النفس فيحسّ به من أرض القلب، والذي من الحق من فوق القلب، والذي من الملك عن يمين القلب، والذي من الشيطان عن يسار القلب.

قال السهروردي: وذُكر خاطر خامس، وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة، يكون مع النفس والعدوّ لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد ليدخل العبد في الشيء بوجود عقل، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب، وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختاراً ويستوجب به الثواب. وذكر خاطر سادس، وهو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزيد العلم؛ ولا يبعد أن يقال الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق، وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك وتارة من خاطر النفس وليس من العقل خاطر على الاستقلال لأن العقل كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعي النفس تارة وإلى دواعي المَلَك تارة وإلى دواعي الروح تارة وإلى دواعي الشيطان تارة، فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة، ورسول الله ﷺ لم يذكر غير اللمتين - [يعني قوله ﷺ «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة»] - وهاتان اللمتان هما الأصل والخاطران الآخران فرع عليهما.

(١) الوقت يعرفه ابن عربي بأنه عبارة عن حالك في زمن الحال لا تعلق له بالماضي والمستقبل. وعرفه القاشاني قال: ما حضرك في الحال، فإن كان من تصريف الحق فعليك الرضا والاستسلام حتى تكون بحكم الوقت ولا يخطر ببالك غيره. وإن كان مما يتعلق بكسبك فالزم ما أهمك فيه لا تعلق لك بالماضي والمستقبل، فإنّ تدارُك الماضي تضييع للوقت الحاضر، وكذلك الفكر فيما يستقبل فإنه عسى أن لا تبلغه وقد فاتك الوقت (اصطلاحات الصوفية: ص ٥٣).

(٢) وقريب منه تعريف رويم: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد. (عوارف المعارف: ص ٨١).

طَلَبٌ»[1].

قيل للجنيد: ما التصوف؟ قال: «لُحُوقُ السِّرِّ بالحَقِّ، ولا يُنَالُ ذلك إلا بفَنَاءِ النَّفْسِ عَنِ الأَسْبَابِ لقُوَّةِ الرُّوحِ والقيام مع الحَقِّ».

وسئل الشبليّ: لم سميت الصوفية صوفية؟ قال: «لأنَّهَا ارْتَسَمَتْ بوُجُودِ الرَّسْم وإثبات الوَصْفِ، ولو ارْتَسَمَتْ بمَحْوِ الرَّسْمِ لم يكن إلا الرَّسْم ومثبت الوَصْفِ»، فأحالهم على رسومهم، وأنكر أن يكون للمتحقق[2] رسم أو وصف.

قال أبو يزيد[3]: «الصُّوفِيَّةُ أَطْفَالٌ في حِجْرِ الحَقِّ».

قال أبو عبد الله النباجي: «مَثَلُ التصوُّفِ مَثَلُ عِلَّة البِرْسام في أولها هَذَيانٌ فإذا تَمَكَّنَتْ أَخْرَسَتْ»[4]، يعني أنه يعبر عن مقامه وينطق بعلم حاله، فإذا كُوشِفَ تحيَّر وسكت.

سمعت فارساً يقول: «متى تَظَاهَرَ في خَوَاطِرِ الهُجُوسِ على دواعي مُلِمَّاتِ النُّفُوسِ، وَجَدَ السَّبِيلَ إلى تَرْجِيحِ الأَوَّلِ فَيَقَعُ النَّشْرُ. وأما الوَصْلَةُ فإنَّمَا تَحْجُبُ مَوَادَّ الإِمْلاءِ، فيَكُونُ المَرْجِعُ إلى الخَرَسِ عن كلِّ نَفَسٍ».

سئل النُّوريُّ عن التصوف، فقال: «نَشْرُ مَقَامٍ واتِّصَالٌ بِقَوَامٍ».

قيل له: فما أخلاقهم؟

---

(١) هذا التعريف نسبه السهروردي في عوارف المعارف (ص ٨١) لذي النون المصري.

(٢) المتحقق في اصطلاح الصوفية متحقق بالحق ومتحقق بالحق والخلق. فالمتحقق بالحق من يشاهده تعالى في كل متعين بلا تعين به، فإنه تعالى وإن كان مشهوداً في كل متقيد باسم أو صفة أو اعتبار أو تعين أو حيثية، فإنه لا ينحصر فيه ولا يتقيّد به؛ فهو المطلق المقيد والمقيد المطلق المنزه عن التقيد واللاتقيد والإطلاق واللاإطلاق.

والمتحقق بالحق والخلق من يرى أن كل مطلق في الوجود له وجه التقييد، وكل مقيد له وجه الإطلاق، بل يرى كل الوجود حقيقة واحدة له وجه مطلق ووجه مقيد بكل قيد. ومن شاهد هذا المشهد ذوقاً كان متحققاً بالحق والخلق والفناء والبقاء (انظر اصطلاحات الصوفية للقاشاني: ص ٧٦).

(٣) أبو يزيد البسطامي. انظر ترجمته ص ٢٥ حاشية ٦

(٤) البرسام أو المرسام مرض دماغي، ذكر ابن سينا من عوارضه أنه يلازمه هذيان يفرط تارة وينقطع أخرى كراهة للكلام وكسلاً عنه. (انظر القانون في الطب: ج ٢ ص ٤٥ ـ دار صادر، بيروت)

قال: «إِدْخَالُ السُّرُورِ على غَيْرِهِمْ، والإِعْرَاضُ عَنْ أَذَاهُمْ؛ قال الله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

معنى «نشر مقام»: هو أن يعبِّر عن حاله إذا عَبَّرَ، لا عن حال غيره بلسان العلم.

ومعنى «اتصال بقوام»: هو أن يَحْمِلَهُ حالُهُ في حالِهِ عن حالِ غيره. وأنشدونا للنوريّ:

أَزْعَجْتَنِي عَنْ نُعُوتِ الحالِ بالحَالِ ... وكَيْفَ يُنْعَتُ من لا قَالَ بالقَالِ
ما كُلُّ مَنْ يَدَّعِي حالاً تُصَدِّقُهُ ... حَتَّى يُتَرْجِمَ عَنْهُ صَاحِبُ الحَالِ

* * *

ونريد أن نخبر الآن بعض المقامات على لسان القوم من غير بَسْطٍ كراهة الإطالة، ونحكي من مقالات المشايخ فيها ما قرب منها إلى الأفهام دون الرموز الخفية والإشاراة الدقيقة، ونبدأ بالتوبة.

الباب الخامس والثلاثون

قَوْلُهُمْ في التَّوْبَةِ

سئل الجنيد بن محمد عن التوبة ما هي؟ فقال: «هو نِسْيَانُ ذَنْبِكَ»، وسئل سهل عن التوبة، فقال: «هُوَ أَنْ لا تَنْسَى ذَنْبَكَ».

فمعنى قول الجنيد: أن تخرج حلاوة ذلك الفعل من قلبك خروجاً لا يبقى له في سرك أثر، حتى تكون بمنزلة من لا يعرف ذلك قطّ[1].

---

(١) هذا معنى قول الجنيد «هو نسيان ذنبك» أما قول سهل: «هو أن لا تنسى ذنبك» فمعناه ملازمة الندم. ويوضّح هذا ما قاله الغزالي في بيان حقيقة التوبة، قال: اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث. والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطّراد سنّة الله في الملك والملكوت. أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً، =

وقال رُوَيْم: «مَعْنَى التَّوْبَةِ أَنْ تَتُوبَ مِنَ التَّوْبَةِ»(١) معناه ما قالت رابعة(٢): «أَسْتَغْفِرُ اللَّه مِنْ قِلَّةِ صِدْقِي فِي قَوْلِي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

سئل الحسين المغازلي(٣) عن التوبة، فقال: تسألني عن توبة الإنابة أو توبة الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ قال: أن تخاف من الله من أجل قدرته

= فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال. أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان، بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر، فالعلم هو الأول وهو مطلع هده الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك. فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معانٍ مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخرة، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة» إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه، أعني ثمره ومثمره. وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ. (انظر إحياء علوم الدين، كتاب التوبة: ج ٤ ص ٤).

(١) يعني أن تنتهي عن الذنوب تماماً، فالتوبة لا تكون إلا من ذنب سلف. وهذا هو نفس معنى قول رابعة الآتي.

(٢) رابعة العدوية البصرية، قال الشعراني: كانت رضي الله عنها كثيرة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشي عليها زماناً، وكانت تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار؛ وكانت تردّ ما أعطاه الناس لها وتقول: ما لي حاجة بالدنيا، وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها شنّ بالٍ تكاد تسقط إذا مشت، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها وكان موضع سجودها وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها. (انظر طبقات الشعراني: ج ١ ص ٦٦؛ وانظر أيضا صفة الصفوة لابن الجوزي: ج ٤ ص ٢٣).

(٣) لم أجد اسم الحسين المغازلي فيما بين يدي من المراجع. ولعله أبو أحمد المغازلي ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (ج ٢ ص ٢٩٨) قال. جعفر الخلدي قال: سمعت أبا أحمد المغازلي يقول: كنت يوماً من الأيام قاعداً، فخطر على قلبي ذكر من الأذكار فقلت: إن كان ذكر يُمشى به على الماء فهو هذا، فقمت إلى الماء فوضعت قدمي على الماء فثبتتْ، ثم رفعت قدمي الأخرى لأضعها على الماء فخطر بقلبي كيفية ثبوت الأقدام على الماء فغاصتا جميعاً.

عليك. قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقربه منك.

قال ذو النون: «تَوْبَةُ العَامِّ مِنَ الذَّنْبِ، وتَوْبَةُ الخَاصِّ مِنَ الغَفْلَةِ، وتَوْبَةُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ رُؤْيَةِ عَجْزِهِمْ عَنْ بُلُوغِ ما نَالَهُ غَيْرُهُمْ»[1].

وقال النوري: «التَّوْبَةُ أَنْ تَتُوبَ مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللّٰهِ جَلَّ وعزَّ».

قال إبراهيم الدقاق: «التَّوْبَةُ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ وَجْهاً بلا قَفا كما كُنْتَ له قفا بِلا وَجْهٍ»[2] والله الموفق.

الباب السادس والثلاثون

قَوْلُهُمْ في الزُّهْدِ

قال الجُنَيْدُ: «الزُّهْدُ خُلُوُّ الأَيْدِي مِنَ الأَمْلَاكِ والقُلُوبِ مِنَ التَّتَبُّعِ».

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسُئل عن الزهد: ما كان؟ فقال: «هُوَ أَنْ لا تُبَالِيَ مَنْ أَكَلَ الدُّنْيَا مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ كَافِرٍ».

قال يَحْيَى[3]: «الزُّهْدُ تَرْكُ اليَدِ».

قال مسروق[4]: «الزَّاهِدُ الَّذِي لا يَمْلِكُهُ مَعَ اللّٰهِ سَبَبٌ».

سُئل الشبليّ عن الزاهد فقال: «وَيْلَكُمْ أَيُّ مِقْدَارٍ لأَقَلَّ مِنْ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ حَتَّى يُزْهَدَ فِيها؟».

---

(١) قوله «توبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم» لعلّه يريد بالنسبة من نبي إلى نبي آخر أعلى مرتبة منه. وإلا فإن أحداً من غير الأنبياء لم يبلغ ما بلغه أيّ من الأنبياء.

(٢) يعني أن يتجه إلى الله تعالى بالطاعة بعد أن كان معرضاً عنه.

(٣) يحيى بن معاذ الرازي أبو زكريا. انظر ترجمته صفحة ٢٩ حاشية ٥.

(٤) سُرق وهو صغير ثم وُجد فسمي مسروقاً؛ وأسلم أبوه الأجدع. ولقي مسروقاً عمر بن الخطاب فقال له: ما اسمك؟ فقال: مسروق بن الأجدع، فقال: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن. فثبت ذلك عليه. أسند مسروق عن عمر وعليّ وابن مسعود وخبّاب وزيد بن ثابت والمغيرة وعبد الله بن عمرو وعائشة، ولم يسند عن عثمان شيئاً ولكنه قد رآه ورأى أبا بكر أيضاً. وكان علي بن المديني يقول: لا أقدم على مسروق أحداً من أصحاب ابن مسعود. مات مسروق بالكوفة في سنة ثلاث وستين. (انظر صفة الصفوة: ج ٢ ص ١٦، وانظر أيضاً حلية الأولياء: ج ٢ ص ٩٥ - ٩٨).

قال أبو بكر الواسطي: «كَمْ تَصُولُ[1] بِتَرْكِ كَنِيفٍ[2] وإلى مَتَى تَصُولُ بإعْرَاضِكَ عَمَّا لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ!».

وسُئِل الشبلي عن الزهد، فقال: «لا زُهْدَ في الحَقِيقَةِ؛ لأَنَّهُ إمَّا أَنْ يَزْهَدَ فِيمَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِزُهْدٍ، أَوْ يَزْهَدَ فِيمَا هُوَ لَهُ، فَكَيْفَ يَزْهَدُ فِيهِ وَهُوَ مَعَهُ وَعِنْدَهُ! فَلَيْسَ إلَّا ظَلَفُ النَّفْسِ[3] وبَذْلٌ وَمُوَاسَاةٌ».

كأنه جعل الزهد تَرْكَ الشيء فيما ليس له وما ليس له لا يصح له تركه لأنه متروك وما هو له لا يمكنه تركه[4].

الباب السابع والثلاثون

قَوْلُهُمْ في الصَّبْرِ

قال سهل: «الصَّبْرُ انْتِظَارُ الفَرَجِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى»، قال: «وَهُوَ أَفْضَلُ الخِدْمَةِ وَأَعْلاهَا».

وقال غيره: «الصَّبْرُ أَنْ تَصْبِرَ في الصَّبْرِ»[5]. معناه أن لا تطالع فيه الفرج.

قال بعضهم:

صَابَرَ الصَّبْرَ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْـ ـرُ فَنَادَى الصَّبُورُ يَا صَبْرُ صَبْرا

قال سَهْلٌ في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاَةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أي اسْتَعِينُوا باللَّهِ واصْبِرُوا على أَمْرِ اللَّهِ، واصْبِرُوا على أَدَبِ الله سُبْحَانه.

---

(١) تصول: تسطو وتتطاول. والصؤول من الرجال: الذي يضرب الناس ويتطاول عليهم، (انظر اللسان: مادة صول).

(٢) الكنيف: الستر.

(٣) ظَلَفُ النفس: منعها عن هواها وشهواتها. ويقال: ظَلِفَت نفسي عن كذا، بالكسر، تَظْلَف ظَلَفاً أي كفّت. وفي حديث علي كرّم الله وجهه: «ظَلَفَ الزهدُ شهواته» أي كفّها ومنعها (لسان العرب: مادة ظلف).

(٤) عبارة الشبلي أكثر وضوحاً وارتباطاً.

(٥) معناه أن تتخطى الصبر من الحال المتغير إلى المقام الثابت فتدوم فيه بحيث لا تنتظر منه تحولاً. وهو معنى قول المصنف «ومعناه أن لا تطالع فيه الفرج».

قال سهل: «الصَّبْرُ مُقَدَّسٌ تُقَدَّسُ بِهِ الأَشْيَاءُ».

قال أبو عَمْرو الدمشقي[1] في قوله تعالى: ﴿مَسَّنِي الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] أي مَسَّنِي الضُّرُّ فصَبَّرني، لأَنَّكَ أَرْحَمُ الراحمين[2].

وقال غيره: مَسَّني الضُّرُّ الَّذِي تخصُّ به أنبياءَكَ وأَوْلِيَاءَكَ بلا استحقاقٍ مِني، لكنْ لأَنَّكَ أَرْحَمُ الراحمين.

وقال بعضهم: إنما جَزِعَ مِنْ أَجْلِهِ[3] لا من أَجْلِ نَفْسِهِ، وذلك أن الألم اسْتَوْلَى على بَدَنِهِ، فخاف زَوَالَ عقله؛ أنشدونا لأبي القاسم سَمْنُون[4]:

تَجَرَّعْتُ مِنْ حَالَيْهِ نُعْمَى وأَبْؤُسَا ... زَمَانٌ إذَا أَمْضَى عَزَالَيْهِ احْتَسَى
فَكَمْ غَمْرَةٍ قَدْ جَرَّعَتْني كُؤُوسَها ... فَجَرَّعْتُهَا مِنْ بَحْرِ صَبْرِي أَكْؤُسَا
تَدَرَّعْتُ صَبْرِي والتَحَفْتُ صُرُوفَهُ ... وَقُلْتُ لنَفْسِي الصَّبْر أَوْ فَاهْلِكِي أَسَى
خُطُوبٌ لَو أَنَّ الشُّمَّ زَاحَمْنَ خَطْبَها ... لَسَاخَتْ وَلَمْ تُدْرِكْ لَهَا الكَفُّ مَلْمَسا

(١) كان علماء الشام كلهم يذعنون إليه لا سيما في علوم الحقائق. صحب أبا عبد الله محمد بن الجلاء وأصحاب ذي النون. وله كتاب في الرد على من قال بقدم الأرواح. مات سنة ٣٢٠. ومن كلامه: إن الله تعالى افترض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتن بها الخلق، وأوجب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إظهارها بياناً وبرهاناً بالحق. وكان يقول: التصوّف غضّ الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزه عن كل نقص. وكان يقول: مقام الخطرات بعيد عن مقام الوطنات؛ لأن الخواطر تلمع ثم تخفى والوطنات تبدو ثم تثبت والدعاوى تتولد من الخواطر، وذلك لأن المدعي يظن أن ما لاح ثبت، ولا دعوى لصاحب الوطنات بحال. (انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ١٠١).

(٢) رأى إصابته بالضرّ رحمة من ربّ العالمين لأنها كانت أدعى له إلى الصبر.

(٣) مرجع الضمير هنا لا يبدو واضحاً.

(٤) سمنون بن حمزة، قال ابن الجوزي في صفة الصفوة: يكنى أبا القاسم. وقال الشعراني في الطبقات: أبو الحسن سمنون بن حمزة الخوّاص. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني: أبو الحسن، وقيل أبو بكر....
سمّى نفسه سمنون الكذاب، وكان سبب ذلك أبياته التي قال فيها:
فليس لي في سواك حظ ... فكيف ما شئت فامتحني
فحصر بوله من ساعته، فسمى نفسه سمنون الكذاب.
أصله من البصرة ولكنه سكن بغداد. وصحب سرياً السقطي وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصّاب في آخرين. توفي بعد الجُنيد. (حلية الأولياء: ١٠/٣٠٩ - ٣١٢، وصفة الصفوة. ٢/٢٧٦ - ٢٧٧ وطبقات الشعراني: ١/٨٩)

الباب الثامن والثلاثون

قَوْلُهُمْ في الفَقْرِ

قال أبو محمد الجريري: «الفَقْرُ أَنْ لا تَطْلُبَ المَعْدُومَ حَتَّى تَفْقِدَ المَوْجُودَ»، معناه: أن لا تطلب الأرزاق إلا عند خوف العجز عن القيام بالفرض.

قال ابن الجلاء[1]: الفَقْرُ أَنْ لا يَكُونَ لَكَ، فإذا كَانَ لَكَ لا يَكُونُ لَكَ؛ على معنى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قال أبو محمد رُوَيْم بن محمد: «الفَقْرُ عُدْمُ كُلِّ مَوْجُودٍ، وَتَرْكُ كُلِّ مَفْقُودٍ».

وقال الكِنَانيّ[2]: «إذا صَحَّ الافْتِقَارُ إلى اللَّهِ صَحَّ الغِنَى بالله؛ لأَنَّهما حَالانِ لا يَتِمُّ أَحَدُهُما إلاَّ بالآخرِ».

قال النُّوري: «نَعْتُ الفَقِيرِ[3] السُّكُونُ عند العُدْمِ والبَذْلُ والإيثَارُ عِنْدَ الوُجُودِ».

وقال بعض الكبراء: الفَقِيرُ هو المَحْرُومُ مِنَ الإِرْفَاقِ والمَحْرُومُ مِنَ السُّؤَالِ، لقولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»[4]، فدلَّ أنه لا يقسم.

قال الدراج: فتشت كَنَفَ[5] أستاذي أريد مكحلة، فوجدت فيه قطعة فضة،

---

(١) أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاّء؛ كذا ذكره في صفة الصفوة، وفي طبقات الشعراني: محمد بن يحيى ابن الجلاء، قال: ويقال أحمد وهو الأصح. من أهل بغداد، لكنه انتقل فسكن الشام. كان يقول: من بلغ بنفسه إلى رتبة سقط عنها ومن بُلغ به ثبت عليها. وكان إذا سئل عن المحبة قال: مالي وللمحبة أنا أريد أن أتعلم التوبة. توفي يوم السبت لاثنتي عشرة خلت من رجب سنة ٣٠٦. (صفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٨، وطبقات الشعراني: ج ١ ص ٨٧).

(٢) أبو بكر الكتاني الدينوري، انظر ترجمته ص ٢٦ حاشية ٦.

(٣) يعني صفته وحاله.

(٤) من حديث أنس بن مالك، أخرجه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد. ولفظه كما في صحيح مسلم (كتاب القسامة، حديث رقم ٢٤): أن أخت الربيع أم حارثة جرحت إنساناً، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «القصاص القصاص» فقالت أم الرَّبيع: يا رسول الله أيقتص من فلانة؟ والله لا يقتصّ منها! فقال النبي ﷺ: «سبحان الله يا أم الرَّبيع! القصاصُ كتاب الله» قالت: لا والله لا يقتصّ منها أبداً! قال: فما زالت حتى قبلوا الدية، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه».

(٥) الكنف: الجانب والناحية.

فتحيّرت، فلما جاء قلت إني وجدت في كَنَفِك قطعة.

قال: قد رأيْتَها؟ رُدَّها! ثم قال: خذها واشْتَرِ بها شيئاً.

فقلت له: ما كان من أمر هذه القطعة بحق معبودك؟

قال. ما رزقني الله من الدنيا صفراءَ ولا بيضاءَ غَيْرَها، فأردت أن أُوصي أن تُشـدَّ في كفني، فأَرُدَّها إلى الله عز وجل.

سمعت أبا القاسم البغدادي[1] يقول: سمعت الدُّوري يقول: كنا ليلة العيد مع أبي الحسن النُّوري في مسجد الشونيزي، فدخل علينا إنسان، فقال للنوري: أيها الشيخ، غداً العيد، ماذا أنت لابسه؟ فأنشأ يقول:

قَـالُوا غَـداً[2] العِيـدُ مـاذَا أَنْتَ لابِسُـهُ ... فَقُلْتُ خِـلْعَـةَ سَـاقٍ عَبْـدَه جُـرَعَـا

فَقْــرٌ وَصَبْـرٌ هُمَـا ثَــوْبَــاي تَحتَهُمَـا ... قَلْبٌ يَـرَى رَبَّـهُ الأَعْيَـادَ وَالجُمَـعَـا

أَحْرَى المَلابِسِ أَنْ تَلْقَى الحَبيبَ بِهـا ... يَـوْمَ التَّزَاوُرِ في الثَّـوْبِ الَّـذي خلَعَـا

الدَّهْرُ لي مَـأْتَـمٌ إنْ غِبْتَ يـا أَمَلي ... وَالعِيــدُ مَا دُمْتَ لِي مَـرْأًى وَمُسْتَمَعَا

سئل بعض الكبراء: ما الذي منع الأغنياء عن العود بفضول ما عندهم على هذه الطائفة؟

فقال: ثلاثة أشياء، أحدها أن الذي في أيديهم غير طَيِّب، وهؤلاء خالصة الله؛ وما اصطنع إلى أهل الله فمقبول، ولا يقبل اللّهُ تعالى إلاَّ الطيِّب. والثاني: أنهم مستحقّون فيحرم الآخرون بركة العَوْد عليهم والثواب فيهم. والثالث: أنهم مُرَادُون بالبلاء فيمنعهم الحقُّ عن العَوْدِ عليهم ليُتِمَّ مراده فيهم.

سمعت فارساً يقول: قلت لبعض الفقراء مرة ـ ورأيت عليه أثر الجوع والضر ـ: لِمَ لا تَسْأَلُ النَّاسَ فَيُطْعِمُوكَ؟

قال: أخاف أن أسألهم فيمنعوني فلا يُفْلِحُوا، وقد بَلَغَني عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) أبو القاسم البغدادي بكر بن شاذان. انظر ترجمته ص ٩٣ حاشية ٢.

(٢) الوزن غير مستقيم، ولعل الأصوب أن يقال «الغد».

«لَوْ صَدَقَ السائِلُ ما أَفْلَحَ مَنْ مَنَعَهُ»[1].

الباب التاسع والثلاثون

قَوْلُهُمْ في التَّوَاضُعِ[2]

سئل الجُنيد عن التواضع، فقال: «هو خَفْضُ الجَنَاحِ، وَكَسْرُ الجَانِبِ[3]».

قال رُوَيْم[4]: «التَّواضُعُ تَذَلُّلُ القُلُوبِ لِعَلَّامِ الغُيُوبِ».

قال سهل: «كَمَالُ ذِكْرِ اللَّهِ المُشَاهَدَةُ، وَكَمَالُ التَّواضُعِ الرِّضَا بِهِ».

وقال غيره: «التَّواضُعُ قَبُولُ الحَقِّ مِنَ الحَقِّ للحَقِّ».

وقال آخر: «التَّواضُعُ الافْتِخَارُ بالقِلَّةِ، والاعْتِنَاقُ للذِّلةِ، وَتَحَمُّلُ أَثْقَالِ أَهْلِ المِلَّةِ».

---

(١) أخرجه بلفظ «لو صدق السائل ما أفلح من ردّه» ابن عبد البر في التمهيد، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار، والسيوطي في اللآليء المصنوعة وفي الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، والعجلوني في كشف الخفاء، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة، والفتني في تذكرة الموضوعات، والمناوي في كنوز الحقائق.

(٢) نذكر فيما يلي أقوال بعض المتصوفة في التواضع. أما حدّه وحقيقته ونهايته فقد ذكره الإمام الغزالي في كتابه «روضة الطالبين» فقال: فأما حدّ التواضع فهو ضبط الأحوال الاختيارية عن التفريط والإفراط فلا تتكبر ولا تتخاسس. وأما حقيقته فهو الذل والإذعان والانقياد للحق بسهولة، والحق يطلق على الله تعالى وعلى أمره. وأما نهايته فهو أن لا يحس بالذل إذا مُدح ولا يتألم بالذم إذا ذُمّ، لعلمه بحكمة الله سبحانه وتعالى وتوحّده بالأفعال؛ لأن العبد لا يحس بالذلّ بين يدي سيده وهذه طريقة الموحدين، لأن المتواضع يرى لنفسه قدراً فيضعه والموحد لا يرى لنفسه قدراً حتى يضعه. فالمتواضع ضابط لأفعاله الاختيارية فلا يتكبر ولا يتخاسس، وإن جرى عليه ذل من غير اختياره، وطريقة الأولياء الرضا ووجدان اللذة لأنه جرى بقدر الله تعالى وعلمه وإرادته، فهو لا يحسّ بالذل لقصور نظره على حكم الله تعالى وجميل فعله، إنما يحس بالذل المتكبر الجاهل الغافل القاصر نظره على فعل الأفعال، وكلما كان أكثر ذلّاً كان أكثر كبراً؛ وأما العلماء بالله تعالى فلا يشهدون لغير الله فعلاً ولا يتهمونه في حكم من الأحكام بل يعرفون أن ذلك علامة كرامتهم. (روضة الطالبين وعمدة السالكين: ص ٩٩، ١٠٠ ـ ضمن رسائل الإمام الغزالي ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦).

(٣) في عوارف المعارف للسهروردي: ولين الجانب.

(٤) هو رويم بن محمد أو أحمد. انظر ترجمته ص ٢٧ حاشية ٤.

الباب الأربعون

قَوْلُهُمْ في الخَوْفِ(١)

قال أبو عمرو الدمشقي(٢): «الخَائِفُ مَنْ يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ أكْثَرَمما يَخَافُ مِنَ العَدُوِّ».

قال أحمد بن السيد حمدويه(٣): «الخائفُ الذي يخافُه المَخْلُوقَاتُ».

قال أبو عبد الله بن الجلاء(٤): «الخائفُ الذي تَأْمَنُهُ المخلوقاتُ».

قال ابن خبيق(٥): «الخائفُ الذي يكون بحُكْمِ كُلِّ وَقْتٍ، فَوَقْتٌ تَخَافُهُ المخلوقاتُ، ووَقْتٌ تأْمَنُهُ؛ الذي تَخَافُه المخلوقاتُ هو الذي غَلَبَ عليه الخَوْفُ فصَار خَوْفاً كُلُّهُ، فيَخَافُه كُلُّ شَيْءٍ، كما قيل: مَنْ خَافَ اللَّهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ. والذي أمِنَتْهُ المخاوفُ هُوَ الذي إذا طَرَقَتِ المَخَاوِفُ أذْكَارَهُ لم تُؤثِّرْ فيه لغَيْبَتِهِ عنها بخَوْفِ الله تعالى، ومَنْ غَابَ عن الأشياء غَابَتِ الأشْيَاءُ عنه».

أنشدونا:

يُحْـرَقُ بـالنَّـارِ مَنْ يُحِسُّ بـهـا ... فَـمَنْ هُـوَ النَّـارُ كَيْفَ يَحْتَـرِقُ

---

(١) قال الإمام الغزالي في الإحياء (ج ٤ ص ١٦٣) في بيان حقيقة الخوف: اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال... ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها؛ وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: «الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد»، وقال أيضاً: «إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف». وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود؛ وإنما دوام الشهود غاية المقامات.

(٢) راجع ترجمته ص ١١١ حاشية ١.

(٣) لم أجد له ترجمة.

(٤) راجع ترجمته ص ١١٢ حاشية ١.

(٥) راجع ترجمته ص ٢٩ حاشية ٣.

قال رُوَيْم: «الخائفُ الَّذي لا يَخَافُ غَيْرَ الله» معناه: لا يخافُه لنَفْسِهِ، وإنما يخافُهُ إجلالاً له، والخَوْفُ للنَّفْسِ خَوْفُ العُقُوبَةِ.

قال سهل: «الخَوْفُ ذَكَرٌ، والرَّجَاءُ أُنْثَى» معناه: مِنْهُمَا يَتَوَلَّدُ حَقَائِقُ الإيمانِ.

وقال: «إذا خَافَ العَبْدُ غَيْرَ الله وَرَجَا الله تعالى أَمَّنَ الله خَوْفَهُ، وهو مَحْجُوبٌ»(١).

الباب الحادي والأربعون

قَوْلُهُمْ في التَّقْوى

قال سهل: «التَّقْوى مُشَاهَدَةُ الأَحْوَالِ على قدم الانْفِرَادِ» معناه: أن يتقي مما سِوَى الله سُكُوناً إليه واسْتِحْلاءً(٢) لَهُ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] أي بجميع استطاعتكم. قال سهل: «ما اسْتَطَعْتُمْ إظْهَارَ الفقْرِ والفَاقَةِ إليه».

قال محمد بن سنجان: «التَّقْوَى تَرْكُ ما دُونَ اللَّهِ».

قال سهل، في قوله تعالى: ﴿وَلكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] قال: «هو التَّبَرِّي وَهُوَ الإخْلاصُ» قال غيره: «أَصْلُ التَّقْوَى مُجَانَبَةُ النُّهَى(٣) ومُبَايَنَةُ النَّفْسِ، فعلى قدر ما فاتهم مِنْ حُظوظ أنفسهم أدْرَكُوا اليَقِينَ». أنشدونا للنوري:

إنّي اتَّقَيْتُكَ لا مَهَابَةَ مِنْ مُحَاذَرَةِ المَصِيرْ
إنّي وكَيْفَ وأَنْتَ لي إلْفٌ يَسُوقُ مَدَى السَّمِيرْ
تُوقِي السَّرائِرَ سِرَّهَا وتَحُوطُ مَكْنُونَ الضَّمِيرْ
لكِنْ أُجِلُّكَ أَنْ أُجِلَّ بِسِوَاكَ لِلْخَطَرِ الحَقِيرْ

---

(١) أمّن الله تعالى خوفه ثواباً على رجائه. وحجبه عقاباً على خوفه غير الله.

(٢) كذا في الأصل بالحاء المهملة، ولعل الصواب «استجلاء» بالجيم

(٣) النُّهى: العقل، يكون واحدا وجمعا؛ وفي التنزيل العزيز: ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾

الباب الثاني والأربعون

قولهم في الإخْلاصِ

قال الجُنَيْدُ: «الإخْلاصُ ما أُرِيدَ به اللَّهُ مِنْ أيِّ عَمَلٍ كَانَ».

قال رُوَيْم: «الإخْلاصُ ارْتِفَاعُ رُؤْيَتِكَ مِنَ الفِعْلِ».

سمعت فارساً يقول: قدم على أبي بكر القحطبي قومٌ من الفقراء من أهل خُرَاسانَ، فقال لهم أبو بكر: بم يأمركم شيخكم؟ يعني أبا عثمان. فقالوا: يأمرنا بكثرة الطاعة مع التزام رؤية التقصير فيها. فقال: ويحه ألا يأمركم بالغيبة عنها برؤية مبديها؟

قيل لأبي العباس بن عطاء[1]: ما الخالصُ من الأعمال؟ قال: ما خلص من الآفات.

قال أبو يعقوب السُّوسي: «الخَالِصُ مِنَ الأعْمَالِ ما لم يَعْلم بِهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ، ولا عَدُوٌّ فيُفْسِدَهُ، ولا النَّفْسُ فَتَعْجَبَ بِهِ».

معناه انقطاع العبد إلى الله جل وعز، والرجوع إليه من فعله. والله الموفق.

الباب الثالث والأربعون

قَوْلُهُمْ في الشُّكْرِ

قال الحارث المحاسبي: «الشُّكْرُ زِيَادَةُ الله للشَّاكِرِينَ».

معناه: إذا شكر زاده الله توفيقاً فزاد شكراً.

قال أبو سعيد الخزّاز[3]: «الشُّكْرُ الاعْتِرافُ للمُنْعِمِ والإقْرَارُ بالرُّبُوبِيَّةِ».

قال أبو علي الروذباري[4]:

---

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء. مرت ترجمته ص ٢٧ حاشية ٤.

(٢) ذكره سابقاً باسم أبي يعقوب يوسف بن حمدان السوسي. ولم أجد ترجمة له.

(٣) أبو سعيد أحمد بن عيسى الخزاز. مرت ترجمته ص ٢٧ حاشية ٣.

(٤) انظر ترجمته ص ١٨ حاشية ٤.

لَـوْ كُـلُّ جَـارِحَـةٍ مِنِّي لـهـا لُغَـةٌ تُثْنِي عَلَيْـكَ بِـمـا أَوْلَيْـتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَـانَ مـا زَادَ شُكْـرِي إِذْ شَكَـرْتُ بِـهِ إِلَيْـكَ أَزْيَـدُ فِي الإِحْسَـانِ والمِنَنِ

قال بعض الكبراء: «الشُّكْرُ هو الغَيْبَةُ عَنِ الشُّكْرِ بِرُؤْيَةِ المُنْعِمِ»(١).

قال يحيى بن معاذ: «لَسْتَ بشَاكِرٍ ما دُمْتَ تَشْكُرُ، وغَايَةُ الشُّكْرِ التَّحَيُّرُ». وذلك أن الشّكر نعمة من الله يجب الشكر عليها، وهذا لا يتناهى.

أنشدونا لأبي الحسن النوري:

سـأَشْكُـرُ لا أَنِّي لا أُجـازِيـكَ مُنْعِمـاً بِشُكْـرِي ولَكِنْ كَيْ يُقَـالُ لَـهُ الشُّكْـرُ
وأَذْكُـرُ أَيَّـامي لَـدَيْـكَ وحُسْـنَـهـا وآخِـرُ مـا يَبْقَى على الشَّـاكِـرِ الـذِّكْـرُ

كان بعض الكبراء يقول في مناجاته: «اللهم إنك تعلم عَجْزي عن مَـواضِع شُكْرِكَ، فاشْكُرْ نَفْسَكَ عَنِّي».

الباب الرابع والأربعون

قَوْلُهُمْ في التَّوَكُّلِ(٢)

قال سَرِيُّ السَّقَطِيّ: «التَّوَكُّلُ الانْخِلاَعُ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ».

وقال ابن مسروق(٣): «التَّوَكُّلُ الاسْتِسْلامُ لجَرَيَانِ القَضَاءِ في الأَحْكَامِ».

---

(١) كأنه يريد أن أقصى درجات النّعم التي تستحق الشكر هي رؤية المنعم.

(٢) قال في الإحياء (ج ٤ ص ٢٧٦): التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكّل أمره إلى فلان أي فوّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمى المفوض إليه متكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً؛ فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق. قال الشعراني في الطبقات: من أفضل أهل طوس وسكن بغداد ومات بها سنة ٢٩٩. صحب الحارث المحاسبي والسريّ وغيرهما وكان من كبار مشايخ القوم وعلمائهم. (انظر طبقات الشعراني ج ١ ص ٩٣. وانظر أيضاً صفة الصفوة لابن الجوزي: ج ٤ ص ١١٥، وذكر فيه سنة وفاته ٢٩٨).

قال سهل: «التَّوَكُّلُ الاسْتِرْسَالُ بَيْنَ يَدَي الله تَعَالى».

قال أبو عبد الله القرشي[1]: «التَّوَكُّل تَرْكُ الإيواءِ إلاَّ إلى الله»[2].

قال أبو أيوب[3]: «التَّوَكُّلُ طَرْحُ البَدَنِ في العُبُوديَّةِ، وتَعَلُّقُ القَلْبِ بالرُّبوبِيَّةِ والطُّمأنِينَةُ إلى الكِفَايَةِ».

قال الجنيد: «حقيقةُ التَّوكُّلِ أنْ يَكُونَ للَّهِ تعالى كما لم يَكُنْ، فَيَكُونَ اللَّهُ له كما لم يَزَلْ».

قال أبو سعيد الخزاز: «قامَتِ الكِفَايَاتُ من السَّيِّدِ لأهْلِ مَمْلَكَتِهِ، فاسْتَغْنَوْا عَنْ مَقَامَاتِ التَّوكُّلِ عليه ليَكْفِيَهُمْ، فَمَا أَقْبَحَ التَّقَاضِي بأَهْلِ الصَّفَاءِ». جَعَلَ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ لأَهْلِ الكِفَايَةِ تَقَاضِي القِيَامِ بالكِفَايَةِ.

كما قال الشبلي: «التَّوَكُّلُ كُدْيَةٌ[4] حَسَنَةٌ».

قال سهل: «كُلُّ المُقَامَاتِ لها وَجْهٌ وقَفَا غَيْرَ التَّوكُّلِ، فإنَّهُ وَجْهٌ بلا قَفَا». يريد توكل العناية لا توكل الكفاية، وهو أن لا يطالبه بالأعواض.

وقال بعضهم: «التوكُّلُ سِرٌّ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ الله».

---

(١) ذكره صفحة ٢٨ باسم أبو عبد الله ميكائل القرشي. ولم أجد ترجمة له.

(٢) فلا عاصم من الله إلا الله. قال تعالى في سورة هود الآية ٤٣: ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ وقال في نفس السورة الآية ٨٠: ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾. ونقل الغزالي في الإحياء (ج ٤ ص ٢٨١) عن أبي عبد الله القرشي سئل عن التوكل فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال. فقال السائل: زدني! فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك.

(٣) قال في حلية الأولياء (ج ١٠ ص ١٣٧): أبو أيوب مولى بني هاشم. صحب الحكماء من العباد وأخذ عنهم عدة المنقلب والمعاد. كان يقول: احذر إيثار الدعة والميل إلى الهوينا، واعلم أن النصب نصبان: أحدهما التفكر المؤلم، وإن أنزلت نفسك منازل الخفض والدعة، وقد أجمع علماء الدنيا وعمال المعاد على بذل النصب في الدعة، فلا تشذن عن الفريقين، واعلم أن أولى الفريقين بك أن تكون به مقتدياً بأعمال المعاد.

(٤) قال في اللسان (مادة كدا): كَدَى الرجل يَكْدي وأكْدى. قلّ عطاءه، وقيل: بخل. وفي التنزيل العزيز: ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ قيل: أي وقطع القليل. قال الفراء: أكدى أمسك من العطية وقطع، وقال الزجاج: معنى أكدى قطع، وأصله من الحفر في البئر.

معناه، كما قال بعض الكبراء: «حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ تَرْكُ التَّوَكُّلِ، وهُوَ أنْ يَكُونَ الله لهم حَيْثُ كان لهم إذْ لم يَكُونُوا مَوْجُودِينَ».

قال بعض الكبار لإبراهيم الخوّاص[1]: «إلى ماذا أدّى بِكَ التَّصَوُّفُ؟

فقال: إلى التَّوكُّلِ.

فقال: وَيْحَكَ بَعْدَ أنْ تَسْعَى في عُمْرَانِ بَطْنِكَ!».

معناه: إن توكلك عليه لأجل نفسك احْترازٌ من مكروه يصيبها.

الباب الخامس والأربعون

قَوْلُهُمْ في الرِّضَا

قال الجنيد: «الرِّضَا تَرْكُ الاخْتِيَارِ»[2].

قال الحارث المحاسبي: «الرِّضَا سُكُونُ القَلْبِ تَحْتَ جَرَيَانِ الحُكْمِ».

قال ذو النون: «الرِّضَا سُرُورُ القَلْبِ بِمَرِّ القَضَاءِ».

قال رُوَيم: «الرِّضَا اسْتِقْبَالُ الأحْكَامِ[3] بالفَرَحِ».

قال ابن عطاء: «الرِّضَا نَظَرُ القَلْبِ إلى قَدِيمِ اخْتِيَارِ الله للعَبْدِ، فإنَّهُ اخْتَارَ لَهُ الأَفْضَلَ».

وقال سفيان عند رابعة: اللهم ارْضَ عَنّي! فقالت له: أما تستحي أن تطلب رضا من لستَ عنه براضٍ[4]؟!

قال سهل: «إذَا اتَّصَلَ الرِّضَا بالرِّضْوانِ اتَّصَلَتِ الطُّمَأْنِينَةُ، فطُوبَى لَهُمْ وحُسْنُ مآبٍ».

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخوّاص. مرت ترجمته ص ٢٨ حاشية ٥.

(٢) بالخضوع للمشيئة الإلهية خضوعاً تاماً.

(٣) يعني قضاء الله تعالى فيه.

(٤) تريد أن طلب الرضا من الله تعالى يستلزم الخضوع التام لقضائه فيه.

يريد قوله عز وجل: ﴿رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فمعناه: الرضا في الدنيا تحت مجاري الأحكام يورث الرضوان في الآخرة بما جرت به الأقلام.

قال الله تعالى: ﴿وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحقِّ وَقيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فهو قول الفريقين من أهل الجنة والنار من الموحدين من أهلها، فإن المشركين لا يؤذن لهم في الحمد، لأنهم محجوبون.

أنشدونا للنوري:

إنَّ الرِّضا لمرارَاتٌ تَجَرَّعُها ... عَنِ القُنُوعِ إذا ما اسْتَعْذَبَ الكَدَرُ
عَواقِبٌ أَشْهَدَتْ بَعْضَ الحُضُورِ فَما ... يَرْعَى التَّكَثُّرَ إلاَّ ناقَةٌ نَـزْرُ

الباب السادس والأربعون

قَوْلُهُمْ في اليَقِينِ

قال الجنيد: «اليَقِينُ ارْتِفَاعُ الشَّكِّ».

قال النوري: «اليَقِينُ هُوَ المُشَاهَدَةُ».

قال ابن عطاء: «اليَقِينُ ما زَالَتْ عَنْهُ المُعَارَضَةُ على دَوَامِ الوَقْتِ».

قال ذو النون: «كُلّ ما رَأَتْهُ العُيُونُ نُسِبَ إلى العِلْمِ، وما عَلِمَتْهُ القُلُوبُ نُسِبَ إلى اليَقِينِ».

وقال غيره: «اليَقِينُ عَيْنُ القَلْبِ»[1].

قال عبد الله: «اليَقِينُ اتِّصالُ البَيْنِ وانْفِصَالُ ما بَيْنَ البَيْن».

معناه قول حارثة: «كأَنّي أَنْظُرُ إلى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، اتَّصَلَتْ رُؤْيَتُهُ بالغَيْبِ، وارْتَفَعَ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الغَيْبِ مِنَ الْحُجُبِ».

---

(١) العين الجارحة قد تخطيء، وعين القلب لا ترى إلا الحقائق.

قال سهل: «اليَقِينُ المُكَاشَفَةُ»، كما قال: «لو كُشِفَ الغِطَاءُ ما ازْدَدْتُ يَقِيناً»[1]. وبالله التوفيق.

الباب السابع والأربعون

قَوْلُهُمْ في الذِّكْرِ

حقيقة الذكر أن تنسى ما سوى المذكور في الذكر، لقوله تعالى: ﴿واذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

يعني إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرتَ الله.

وقال النبي ﷺ: «سَبَقَ المُفْرِدُونَ» قيل: ومن المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذَّاكِرُونَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتُ»[2]، والمفرد الذي ليس معه غيره.

وقال بعض الكبار: «الذِّكْرُ طَرْدُ الغَفْلَةِ، فإِذَا ارْتَفَعَتِ الغَفْلَةُ فأَنْتَ ذَاكِرٌ وإِنْ سَكَتَّ».

وأنشدونا للجنيد:

ذَكَرْتُكَ لا أَنِّي نَسِيتُكَ لَمْحَةً ... وأَيْسَرُ ما في الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

سمعت أبا القاسم البغدادي[3] يقول: سألت بعض الكبار، فقلت: ما بَالُ نُفُوسِ العَارِفِينَ تَتَبَرَّمُ بالأَذْكَارِ، وتَسْتَرْوِحُ إِلى الأَفْكَارِ، ولَيْس يُفْضِي الفِكْرُ إِلى مَقَرّ، ولأَذْكَارِهَا أَعْوَاضٌ تُسَرّ؟ فقال: اسْتَصْغَرَتْ ثَمَرَاتِ الأَذْكَارِ فلم تَحْمِلْهَا عَنْ مُكَابَدَتِهَا، وَبَهَرَهَا شَرَفُ ما وَرَاءِ الأَفْكَارِ فَغَيَّبَهَا عنْ أَلَمِ مُجَاهَدَاتِهَا.

---

(١) وهذا أقصى درجات اليقين؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه».

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه الترمذي في الجامع الصحيح (كتاب الدعوات، باب ١٢٩، حديث رقم ٣٥٩٦) بلفظ: «سبق المفردون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «المستهترون في ذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة أخفافاً». ورواه الحاكم في المستدرك (ج ١ ص ٤٩٥) وفيه: «الذين يهترون في ذكر الله».

(٣) هو بكر بن شاذان، وقد مرت ترجمته ص ٩٣ حاشية ٢.

معنى قوله: «استصغرت ثمرات الأذكار»، لأنها كلها حظوظ النفس والعارفون قد أعرضوا عن النفوس وحظوظها؛ وأما أفكارهم فإنها تكون في جلال الله وهيبته ومنّته وإحسانه، فهي تفكر فيما لله تعالى عليها إجلالاً له وتُعرض عما لها عند الله حرمة له، في قوله عليه السلام خبراً عن الله عز وجل: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أفْضَلَ ما أُعْطِي السَّائِلينَ**»[1].

معناه: من شغله مشاهدة عظمتي عن ذكر لسانه؛ لأن ذكر اللسان كله مسألة.

وأخرى: أن مشاهدة العظمة تحيره فتقطعه عن الذكر له، كما قال النبي ﷺ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**»[2].

أنشدونا للنوري:

أُرِيدُ دَوَامَ الذِّكْرِ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ ... فيا عَجَباً مِنْ غَيْبَةِ الذِّكْرِ في الوَجْدِ
وأَعْجَبُ مِنْهُ غَيْبَةُ الوَجْدِ تَارَةً ... وغَيْبَةُ عَيْنِ الذِّكْرِ في القُرْبِ والبُعْدِ

قال الجنيد: «مَنْ قَالَ الله عَنْ غَيْرِ مُشَاهَدَةٍ فَهُوَ مُفْتَرٍ». يدل على صحة قوله قول الله تعالى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾، ثم قال: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

أكذبهم الله وإن كانت الكلمة صدقاً، لأنها لم تكن عن مشاهدة.

وقال غيره: «القَلْبُ للمُشَاهَدَةِ، واللِّسَانُ للعِبَارَةِ عَنِ المُشَاهَدَةِ، فَمَنْ عَبَّرَ عَنْ غَيْرِ مُشَاهَدَةٍ فهو شَاهِدُ زُورٍ».

أنشدونا لبعض الكبار:

---

(١) رواه الترمذي في ثواب القرآن باب ٢٥، والدارمي في فضائل القرآن باب ٦. وفيهما: «من شغله القرآن وذكري...».

(٢) رواه مسلم في الصلاة حديث ٢٢٢، وأبو داود في الصلاة باب ١٤٨ والوتر باب ٥، والنسائي في قيام الليل باب ٥١، والترمذي في الدعوات باب ٧٥ و١١٢، وابن ماجة في الدعاء باب ٣ والإقامة باب ١١٧، ومالك في الموطأ باب مسّ القرآن حديث ٣١، وأحمد في المسند (ج ١ ص ٩٦، ١١٨، ١٥٠، و ٦/ ٥٨).

أنْتَ المُسوَلِّـهُ لي لا الـذِّكْـرُ وَلَّهَني ... حَـاشَـا لِقَلْبِي أنْ يَعْـلَقْ بِـهِ ذِكْـرِي
الـذِّكْـرُ وَاسِطَةٌ يَحْجُبـكَ عَنْ نَـظَرِي ... إذَا تَـوَشَّحَهُ مِنْ خَـاطِـرِي فِكْـرِي

معناه: الذكر صفة الذاكر، فإن غبت في ذكري كانت غيبتي فيَّ، وإنما يحجب العبد عن مشاهدة مولاه أوصافه.

قال سريٌّ السقطي: صحبتُ زنجيّاً في البريَّة، فرأيته كلما ذكر الله تغير لَوْنُه وابيَضَّ، فقلت: يا هذا أرى عجباً، إنك كلما ذكرت الله حَالَتْ لِبْسَتُكَ[1] وتغيرت صِفَتُكَ! فقال: يا أخي أما إنـك لو ذكـرت الله حق ذكره لحالت لِبْسَتُك وتغيَّـرَتْ صِفَتُكَ. ثم أنشأ يقول:

ذَكَـرْنَـا ومـا كُنَّـا لِنَنْسَى فَنَـذْكُـرُ ... وَلَـكِنْ نَـسِيمُ القُـرْبِ يَبْـدو فَيَبْهَـرُ
فَـأفْنَى بِـهِ عَـنِّي وأبْـقَى بِـهِ لَـهُ ... إذِ الـحَـقُّ عَـنْـهُ مُـخْـبِـرٌ وَمُـعَـبِّـرُ

أنشدونا لابن عطاء:

أرَى الذِّكْرَ أصْنَـافاً مِنَ الـذِّكْرِ حَشْـوُها ... وِدَادٌ وشَـوْقٌ يَبْـعَـثَـانِ على الـذُّكْـرِ
فَـذِكْـرٌ ألِيفُ النَّفْسِ مُمْتَـزِجٌ بِـهَـا ... يَحِـلُّ مَحَلَّ الـرُّوحِ في طَرْفِهـا يَسْرِي
وذِكْـرٌ يُـعَـزِّي النَّـفْسَ عَنْـهَـا لأنَّـهُ ... لهـا مُتْلِفٌ مِنْ حَيْثُ تَدْرِي ولا تَـدْرِي
وذِكْــرٌ عَــلا مِنِّي المَفَــارِقَ والـذُّرَى ... يَجِـلُّ عَنِ الإدْرَاكِ بـالـوَهْمِ والفِكْـرِ
يَــرَاهُ لِحَــاظُ العَيْنِ بـالـقَلْبِ رُؤْيَـةً ... فَيَجْفُـو عَلَيْـهِ أنْ يُشَـاهِـدَ بـالـذُّكْـرِ

صنف الذكر أصنافاً، فالأول: ذكر القلب، وهو أن يكون المذكور غير منسيّ فيذكر. والثاني: ذكر أوصاف المذكور. والثالث: شهود المذكور فيفنى عن الذكر، لأن أوصاف المذكور تفنيك عن أوصافك فتفنى عن الذكر.

---

(١) اللِّبسة (بكسر اللام): الهيئة والحالة. (انظر لسان العرب: مادة لبس).

الباب الثامن والأربعون

قَوْلُهُمْ في الأُنْسِ

سئل الجُنَيْدُ عن الأنس ما هو؟ فقال: «الأُنْسُ ارْتِفَاعُ الحِشْمَةِ مَعَ وُجُودِ الهَيْبَةِ».

معنى ارتفاع الحشمة: أن يكون الرجاءُ أغْلَبَ عليه من الخوف.

وسئل ذو النون عن الأنس، فقال: «هو انْبِسَاطُ المُحِبِّ إلى المَحْبُوبِ».

معناه ما قال الخليل عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وما قال الكليم عليه السلام: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] شِبْه العذر، أي لا تطيق.

وسئل إبراهيم المارستاني[1] عن الأنس، فقال: «هُوَ فَرَحُ القَلْبِ بالمَحْبُوبِ».

وسئل الشبليّ عن الأنس، فقال: «هُوَ وَحْشَتُكَ مِنْهُ».

وقال ذو النون: «أَدْنَى مَقَامِ الأُنْسِ أَنْ يُلْقَى في النَّارِ فلا يُغَيِّبُهُ ذَلِكَ عَمَّنْ أَنِسَ بِهِ».

وقال بعضهم: «الأُنْسُ هُوَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ بالأَذْكَارِ فَيَغِيبَ عَنْ رُؤْيَةِ الأَغْيَارِ».

أنشدونا لرُوَيْم:

شَغَلْتَ قَلْبِي بِمَا لَدَيْكَ فَمَا ... يَنْفَكُّ طُولَ الحَيَاةِ مِنْ فِكْرِي
آنَسْتَنِي مِنْكَ بِالوِدَادِ وَقَدْ ... أَوْحَشْتَنِي مِنْ جَمِيعِ ذَا البَشَرِ
ذِكْرُكَ لي مُؤْنِسٌ يُعَارِضُنِي ... يُوعِدُنِي عَنْكَ مِنْكَ بِالظَّفَرِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتَ يَا مَدَى هِمَمِي ... فَأَنْتَ مِنِّي بِمَوْضِعِ النَّظَرِ

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/٣٣١) قال: ومنهم المعلم المفهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المارستاني، كان الجنيد له مؤاخياً وعليه حامياً وحانياً. . . . وروي عن إبراهيم المارستاني أنه قال: رأيت الخضر عليه السلام فعلمني عشر كلمات ـ وأحصاها بيده ـ: اللهم إني أسألك الإقبال عليك، والإصغاء إليك، والفهم عنك، والبصيرة في أمرك، والنفاذ في طاعتك، والمواظبة على إرادتك، والمبادرة في خدمتك، وحسن الأدب في معاملتك، والتسليم والتفويض إليك.

الباب التاسع والأربعون

قَوْلُهُمْ فِي القُرْبِ

سئل سريّ السقطي عن القرب، فقال: «هو الطّاعَةُ».

وقال غيره: القُربُ أنْ يَتَذَلَّلَ عَلَيْهِ ويَتَذَلَّلَ لـه، لقَوْلِهِ عَزّ وجل: ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

سئل رويم عن القرب فقال: «إزَالَةُ كُلِّ مُعْتَرِضٍ».

وسئل غيره عن القرب فقال: «هُوَ أنْ تُشَاهِدَ أفْعَالَهُ بِكَ».

معناه أن ترى صنائعه ومننه عليك وتغيب فيها عن رؤية أفعالك ومجاهداتك.

وأخرى أن لا تراك فاعلاً، لقوله عزوجل للنبي ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولَكِنَّ الله رَمَى﴾، وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ الله قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧].

وأنشدونا للنوري:

أرَانـي جَمْـعي فـي فَنَـائي تَـقَـرُّبـاً ... وهَيْهَـاتَ إلاَّ مِنْـكَ عَنْـكَ التَّقَـرُّبُ
فَمَـا عَنْـكَ لي صَبْـرٌ ولا فِيـكَ حِيلَةٌ ... ولا مِنْـكَ لي بُـدٌّ ولا عَنْـكَ مَهْـرَبُ
تَقَـرَّبَ قَـوْمٌ بـالـرَّجَـا فَـوَصَلْتَـهُمْ ... فما لي بَعِيداً مِنْكَ والكُـلُّ يَعْـطَبُ

معناه: أراني حالي أن جمعي بك وفنائي عما سواك تقربٌ إليك، والجمع والفناء صفتان، ولا يكون القرب منك بصفتي بل بك يكون القرب إليك منك. ثم قال[١]: تقرب إليك أقوام بأفعالهم وطاعاتهم، فوصلتهم تفضلاً منك، وليست لي أفعال أتقرب بها إليك وأنا أهْلِكُ شوقاً إلى القرب منك، ولا سبيل لي من حيث أنا.

أنشدونا للنوري أيضاً:

يـا مَنْ أُشَـاهِـدُهُ عَنِّـي فـأَحْسَبُـهُ ... مِنِّي قَـرِيبـاً وقَـدْ عَـزَّتْ مَـطَالِبُـهُ
إذَا سِـمْتُ نَـفْسِـي سَلْوَةً عَـنْـهُ رَدَّنـي ... إلَيْـهِ شُهُـودٌ لَيْسَ تَفْنَى عَـجَـائِبُـهُ

---

(١) تفسيراً للبيت الثالث. والبيت الثاني واضح المعنى.

معنى السلوة الإياس، يقول: كلما أيست من حيث أنا، ردني عن الإياس ما منه من الفضل الذي بدا به.

وقال الشبلي: «قَدْ تَحَيَّرْتُ فِيكَ، خُذْ بِيَدِي يا دَلِيلاً لمن تَحَيَّر فِيكَ».

الباب الخمسون

قَوْلُهُمْ فِي الاتِّصَالِ(١)

معنى الاتصال: أن ينفصل بسرِّه عما سوى الله، فلا يرى بسرِّه بمعنى التعظيم غيرَه، ولا يسمع إلا منه.

قال النوري: «الاتِّصَالُ مُكَاشَفَاتُ القُلُوبِ».

ومشاهدات الأسرار مكاشفات القلوب، كقول حارثة: «كأنيِّ أَنْظُرُ إلى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً».

ومشاهدات الأسرار، كقوله عليه السلام: «اعْبُدِ اللَّهَ كأنَّكَ تَرَاهُ»(٢). وكقول ابن عمر: «كُنَّا نَتَرَاءى الله في ذَلِكَ المَكَانِ».

وقال بعضهم: «الاتصَالُ وُصُولُ السِّرِّ إلى مَقَامِ الذُّهُولِ».

معناه: أن يشغله تعظيم الله عن تعظيم من سواه(٣).

وقال بعض الكبار: «الاتِّصَالُ أنْ لا يَشْهَدَ العَبْدُ غَيْرَ خَالِقِهِ، ولا يَتَّصِلَ بِسِرِّهِ خَاطِرٌ لغَيْرِ صَانِعِهِ».

---

(١) قال القاشاني في اصطلاحات الصوفية: «الاتصال هو ملاحظة العبد عينه متصلاً بالوجود الأحديّ بقطع النظر عن تقييد وجوده بعينه وإسقاط إضافته إليه، فيرى اتصال مدد الوجود ونفس الرحمن إليه على الدوام بلا انقطاع حتى يبقى موجوداً به.

(٢) رواه البخاري في الإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ١ و ٥ و ٧، والنسائي في الإيمان باب ٥ و ٦.

(٣) وهذا قريب من معنى الفناء عند الصوفية، وقوله فيما يلي. «أن لا يشهد العبد غير خالقه... الخ» يفيد معنى ذلك أيضاً.

قال سهل: «حُرِّكُوا بالبَلاءِ فَتَحَرَّكُوا، ولو سَكَنُوا اتَّصَلُوا»(١).

الباب الحادي والخمسون

قَوْلُهُمْ فِي المَحَبَّةِ

قال الجنيد: «المَحَبَّةُ مَيْلُ القُلُوبِ». معناه: أن يميل قلبه إلى الله وإلى ما لله من غير تكلّف.

وقال غيره: «المحَبَّةُ هي المُوافَقَةُ» معناه: الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدَّر (٢).

قال محمد بن علي الكتّانيّ(٣): «المَحَبَّةُ الإيثَارُ للمَحْبُوبِ».

قال غيره: «المَحَبَّة إيثَارُ ما تُحِبُّ لِمَنْ تُحِبُّ».

قال أبو عبد الله النباجي(٤): «المَحَبَّةُ لذَّةٌ في المَخْلُوقِ، واسْتِهْلاكٌ في الخَالِقِ».

معني الاستهلاك: أن لا يبقى لك حظ، ولا يكون لمحبتك علة، ولا تكون قائماً بعلّة.

قال سهل: «مَنْ أَحَبَّ الله فَهُوَ العَيْشُ، وَمَنْ أَحَبَّ فلا عَيْشَ لَهُ».

معنى هو العيش أنه يطيب عيشه، لأن المحب يتلذذ بكل ما يَرِدُ عليه من المحبوب من مكروه أو محبوب. ومعنى لا عيش له لأنه يطلب الوصول إليه ويخاف الانقطاع دونه فيذهب عيشه.

وقال بعض الكبار: «المَحَبَّةُ لَذَّةٌ، والحَقُّ لا يُتَلَذَّذُ بِهِ، لأنَّ مَوَاضِعَ الحَقِيقَةِ دَهَشٌ واسْتِيفَاءٌ وحَيْرَةٌ».

---

(١) يريد أن الانشغال بالحالات الدنيوية يمنع الاتصال.

(٢) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.

(٣) مرت ترجمته ص ٢٨ حاشية ٤.

(٤) مرت ترجمته ص ٧٤ حاشية ١.

فمحبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار، فلا يستجيز تعظيم سواه، ومحبة الله للعبد: هو أن يُبليه[1] به فلا يصلح لغيره.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤٣].

ومعنى «لا يصلح لغيره» أن لا يكون فيه فضل لمراقبة الأغيار ومراعاة الأحوال.

قال بعضهم: «المَحَبَّةُ على وَجْهَيْنِ: مَحَبَّةُ الإقْرارِ، وهُوَ للخَاصِّ والعَامِّ، ومَحَبَّةُ الوَجْدِ مِنْ طَرِيقِ الإصَابَةِ، فَلا يَكُونُ فِيهِ رُؤْيَةُ النَّفْسِ والخَلْقِ، ولا رُؤْيَةُ الأسْبَابِ والأحْوَالِ، بل يَكُونُ مُسْتَغْرِقاً في رُؤْيَةِ ما لله وما مِنْهُ».

أنشدونا لبعضهم[2]:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهَوَى ... وحُبّاً لأنَّكَ أهْلٌ لِذَاكَا
فأمَّا الَّذي هُوَ حُبُّ الهَوَى ... فشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَا[3]
وأمَّا الَّذِي أنْتَ أهْلٌ لَهُ ... فَلَسْتُ أرَى الكَوْنَ حَتَّى أرَاكَا[4]

---

(١) من أبلى الثوب إذا أخلقه. والمراد انهماك العبد بالفكر بالله حتى الإنهاك.

(٢) الأبيات لرابعة العدوية. وقد ذكر أبو نعيم في الحلية قصة متعلقة بهذه الأبيات: فروى عن سعيد بن عثمان قال: كنت مع ذي النون في تيه بني إسرائيل، فبينا نحن نسير إذا بشخص قد أقبل فقلت: أستاذ شخص، فقال لي: انظر فإنه لا يضع قدمه في هذا المكان إلا صديق. فنظرت فإذا امرأة، فقلت: إنها امرأة، فقال: صديقة وربِّ الكعبة. فابتدر إليها وسلم عليها، فردت السلام ثم قالت: ما للرجل ومخاطبة النساء؟ فقال لها: إني أخوك ذا النون ولست من أهل التهم، فقالت: مرحباً حيّاك الله بالسلام. فقال لها: ما حملك على الدخول إلى هذا الموضع؟ فقالت: آية في كتاب الله تعالى: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ فكلما دخلت إلى موضع يعص فيه لم يهنني القرار فيه بقلب قد أبهلته شدة محبته وهام بالشوق إلى رؤيته. فقال لها: صفي لي! فقالت: نعم، المحبة عندي لها أول وآخر، فأولهالهج القلب بذكر المحبوب والحزن الدائم والتشوق اللازم، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات. ثم أخذت في الزفير والشهيق وأنشأت تقول: أحبك حبين... الخ الأبيات.

ثم شهقت شهقة فإذا هي قد فارقت الدنيا. (انظر حلية الأولياء: ج ٩ ص ٣٤٨).

(٣) رواية الشطر الثاني في الحلية: «فذكرٌ شغلتُ به عن سواكا».

(٤) رواية الشطر الثاني في الحلية: «فكشفك للحجب حتى أراكا».

فما الحَمْدُ في ذَا ولا ذَاكَ لي ولَكِنْ لَكَ الحَمْدُ في ذَا وذَاكَا

قال ابن عبد الصمد(١): «المَحَبَّةُ هي الَّتي تُعْمي وتُصِمُّ، تُعْمِي عَمَّا سِوَى المَحْبُوبِ فلا يَشْهَدُ سِوَاهُ مَطْلُوباً».

قال النبي ﷺ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي ويُصِمُّ»(٢). وأنشد:

أصَمَّني الحُبُّ إلاَّ عَنْ تَسَامُرِهِ فَمَن رأى حُبَّ حُبٍّ يُورِثُ الصَّمَمَا
وكَفَّ طَرْفي إلاَّ عَنْ رِعَايَتِهِ والحُبُّ يُعمِي وفِيهِ القَتْلُ إنْ كُتِمَا

وأنشد أيضاً:

فَرْطُ المَحَبَّةِ حَالٌ لا يُقَاوِمُها رَأْيُ الأصِيلِ إذَا مَحْذُورَهُ قَهَرَا
يَلَذُّ إنْ عَذَلَتْ مِنْهُ قَوَارِعُهُ وإنْ تَزَيَّدَ في تَعْذِيلِهِ بَهَرَا

* * *

فصل

إن للقوم عبارات تفردوا بها، واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم، نخبر ببعض ما يحضر، ونكشف معانيها بقول وجيز.

وإنما نقصد في ذلك إلى معنى العبارة دون ما تتضمنه العبارة، فإن مضمونها لا يدخل تحت الإشارة فضلاً عن الكشف، وأما كُنْهُ أحوالهم فإن العبارة عنها مقصورة وهي لأربابها مشهورة.

---

(١) هو محمد بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن بن عبد الصمد مولى سعيد بن العاص القرشي، يكتى أبا الحسن ويلقب بحبش ويعرف بابن أبي الورد. توفي في رجب سنة ٢٦٣ هـ. من أقواله: هلاك الناس في حرفين: اشتغال بنافلة وتضييع فريضة وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه، وإنما منعوا الوصول بتضييع الأصول. وقال: أشكر الخلق لله عز وجل من لم ير أنه شكر الله عز وجل قطّ. وقال: من آداب الفقير في فقره ترك الملامة والتعيير لمن ابتلي بطلب الدنيا والرحمة والشفقة عليه والدعاء له ليريحه الله من تعبه فيها. (انظر صفة الصفوة: ج ٢ ص ٢٥٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (ج ٥ ص ٩٤ وج ٦ ص ٤٥٠)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب باب ١١٦.

الباب الثاني والخمسون

قَوْلُهُمْ فِي التَّجْرِيدِ والتَّفْرِيدِ

فمعنى التجريد: أن يتجرد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض؛ وهو ألا يأخذ من عَرَض الدنيا شيئاً، ولا يطلب على ما ترك منها عِوَضاً من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره ولا لسبب سواه، ويتجرد بسرّه عن ملاحظة المقامات التي يحلّها والأحوال التي ينازلها، بمعنى السكون إليها والاعتناق لها.

والتفريد: أن يتفرد عن الأشكال، وينفرد في الأحوال، ويتوحّد في الأفعال؛ وهو أن تكون أفعاله لله وحده، فلا يكون فيها رؤية نفس، ولا مراعاة خلق، ولا مطالعة عِوَض، ويتفرد في الأحوال عن الأحوال، فلا يرى لنفسه حالاً، بل يغيب برؤية محوّلها عنها، ويتفرد عن الأشكال، فلا يأنس بها، ولا يستوحش منها.

وقيل: التجريد أن لا يملِك، والتفريد أن لا يُملَك.

أنشدونا لعمرو بن عثمان المكيّ:

تَفَرَّدَ بِاللَّهِ الفَرِيدُ فَرِيدُ ... فَظَلَّ وَحِيداً والمَشُوقُ وَحِيدُ
وذَاكَ لأَنَّ المُفْرَدِينَ رَأَيْتُهُمْ ... عَلَى طَبَقَاتٍ والدُّنُوُّ بَعِيدُ
فَمِنْ مُفْرَدٍ يَسْمُو بِهِمَّةِ قَلْبِهِ ... عَنِ المُلْكِ جَمْعاً فَهْوَ عَنْهُ يَحِيدُ
وأَدْمَنَ سَيْراً في السُّمُوِّ تَوَحُّداً ... وكُلُّ وَحِيدٍ بِالبَلاءِ فَرِيدُ
وآخَرُ يَسْمُو في العُلُوِّ تَفَرُّداً ... عَنِ النَّفْسِ وَجْداً فَهيَ مِنْهُ تَبِيدُ
وآخَرُ مَفْكُوكٌ مِنَ الأَسْرِ بِالفَنَا ... فَأَصْبَحَ خِلْواً واجْتَبَاهُ وَدُودُ

فالذي أدمن سيراً في السمو متوحّدٌ بالبلاء؛ لأنه لا سبيل له إلى ما يطلب، ولا يساكن شيئاً دونه. والذي تفرّد عن النفس وجداً فلا يحس بالبلاء. والذي فُكَّ من أسر النفس بالفناء عنها هو المُجتبَى المقرّب المتفرّد بالحقيقة.

الباب الثالث والخمسون

قَوْلُهُمْ في الوَجْدِ

ومعنى الوَجْدِ: هو ما صادف القلب من فزع، أو غمّ، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل.

قالوا: وهو سَمْعُ القلوب وبصرُها، قال الله تعالى: ﴿فإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ولَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فمن ضعف وَجدُه تواجد، والتواجد ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره، ومن قوِيَ تمكَّنَ فسَكَنَ.

قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال النوري: «الوَجْدُ لَهِيبٌ يَنْشَأ في الأَسْرَارِ ويَسْنَحُ عَنِ الشَّوْقِ فَتَضْطَرِبُ الجَوَارِحُ طَرَباً أو حُزْناً عِنْدَ ذَلِكَ الوَارِدِ».

وقالوا: «الوَجْدُ مَقْرُونٌ بالزَّوَالِ، والمَعْرِفَةُ ثَابِتَةٌ بالله تعالى لا تَزُولُ».

أنشدونا للجُنَيْد:

الوَجْدُ يُطْرِبُ مَنْ في الوَجْدِ رَاحَتُهُ ... والوَجْدُ عِنْدَ حُضُورِ الحَقِّ مَفْقُودُ
قَدْ كَانَ يُطْرِبُنِي وَجْدي فأَشْغَلَني ... عَنْ رُؤْيَةِ الوَجْدِ ما في الوَجْدِ مَوْجُودُ

وأنشدونا لبعض الكبار:

أَبْدَى الحِجَابَ فَذَلَّ في سُلْطَانِهِ ... عِزُّ الرُّسُومِ وكُلُّ مَعْنًى يُحْضَرُ
هَيْهَاتَ يُدْرَكُ بالوُجُودِ وإِنَّمَا ... لَهَبُ التَّوَاجُدِ رَمْزُ عَجْزٍ يُقْهَرُ
لا الوَجْدُ يُدْرِكُ غَيْرَ رَسْمٍ دَاثِرٍ ... والوَجْدُ يَدْثُرُ [1] حِينَ يَبْدُو المَنْظَرُ

---

(١) الدثور: الدروس.

قَدْ كُنْتُ أَطْرَبُ للوُجُودِ مُرَوَّعاً ... طَوْراً يُغَيِّبُنِي وطَوْراً أَحْضُرُ
أَفْنَى الوُجُودَ بِشَاهِدٍ مَشْهُودُهُ ... أَفْنَى الوُجُودَ وكُلَّ مَعْنَى يُذْكَرُ

وقال بعضهم: «الوَجْدُ بِشَارَاتُ الحَقِّ بالتَّرَقِّي إلى مَقَامَاتِ مُشَاهَدَاتِهِ».

وأنشدونا لبعضهم:

مَنْ جَادَ بالوَجْدِ أَحْرَى أَنْ يَجُودَ بِمَا ... يُفْنِي الوُجُودَ مِنَ الأَفْضَالِ والمِنَنِ
أَيْقَنْتُ حِينَ بَدَا بالوَجْدِ يَبْعَثُنِي ... أَنَّ الجَوَادَ بِهِ يُوفِي عَلَى الحَسَنِ

وللشبليّ:

الوَجْدُ عِنْدِي جُحُودُ ... مَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شُهُودِي
وشَاهِدُ الحَقِّ عِنْدِي ... يُفْنِي[1] شُهُودَ الوُجُودِ

الباب الرابع والخمسون

قَوْلُهُم في الغَلَبَةِ

الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه ملاحظة السبب، ولا مراعاة الأدب، ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله؛ فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله، ويرجع على نفس صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده، ويكون الذي غلب خوف، أو هيبة، أو إجلال، أو حياء، أو بعض هذه الأحوال.

كما جاء في الحديث عن أبي لبابة بن المنذر، حين استشاره بنو قريظة، لما استنزلهم النبي ﷺ على حكم سعد بن معاذ، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، ثم ندم على ذلك، وعلم أنه قد خان الله ورسوله، فانطلق على وجهه حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت.

فهذا لما غلب عليه الخوف من الله عز وجل، حال بينه وبين أن يأتي رسول الله ﷺ، وكان هو الواجب عليه لقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ

---

(١) في رواية أخرى: «ينفي» وهي أشبه.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[1].

وليس في الشريعة ارتباط بالسواري والعمد[2].

وقال النبي ﷺ لما أن استبطأه: «**أَمَا لَوْ جَاءَنِي لاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ فَعَلَ مَا فَعَلَ فما أنا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ**». فلما علم الله صدقه وأن ذلك صدر عنه لغلبة الخوف عليه غفر له، فأنزل الله توبته فأطلقه النبيّ ﷺ[3].

فأبو لبابة رضي الله عنه لما أن غلب عليه الخوف لم يمكنه ملاحظة السبب، وهو استغفار الرسول ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤] الآية، ولم يمكنه مراعاة الأدب، والأدب: أن يعتذر إلى من أذنب إليه وهو الرسول ﷺ.

وكما غلب على عمر رضي الله عنه حمية الدين، حين اعترض على رسول الله ﷺ لما أراد أن يصالح المشركين عام الحديبية، فوثب عمر حتى أتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر أليس هذا برسول الله؟ قال: بلى. قال: ألسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله! فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله! ثم غلب عليه ما يجد، حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال له مثل ما قال لأبي بكر، وأجابه النبي ﷺ كما أجابه أبو بكر، حتى قال: «**أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي**».

فكان عمر يقول: فما زلت أصوم وأتصدّق وأعتق وأصلّي من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوتُ أن يكون خيراً[4].

وكاعتراضه على النبي ﷺ أيضاً، حين صلّى على عبد الله بن أبيٍّ، قال عمر: فتحوّلت حتى قمت في صدره، وقلت: يا رسول الله أتصلي على هذا وقد قال يوم كذا كذا! يعدد أياماً له، حتى قال له: «**أَخِّرْ عَنِّي يا عُمَرُ، إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ**» وصلّى

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٤. وتتمة الآية: ﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾.

(٢) يريد ليس من نصّ واضح في ذلك، وإلاّ فإن النبي ﷺ لم ينكر عليه ذلك.

(٣) القصة مذكورة في كتب السير في غزوة الخندق.

(٤) الحديث رواه البخاري وأبو داود وغيرهما مع اختلاف يسير في اللفظ.

عليه، فقال عمر: فعجب لي وجرأتي على رسول الله[1].

ومنه حديث أبي طيبة، حين حجم النبي ﷺ، فشرب دمه، وذلك محظور في الشريعة، ولكن فعله في حال الغلبة، فعذره النبي ﷺ، وقال: «لقد احْتَظَرْتَ[2] بِحَظَائِرَ مِنَ النَّارِ».

فهذه كلها وأمثالها كثيرة تدل على أن حالة الغلبة حالة صحيحة، ويجوز فيها ما لا يجوز في حال السكون، ويكون الساكن فيها بما هو أرفع منه في الحال أمْكَنَ وأتمَّ حالةً كما كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

الباب الخامس والخمسون

قَوْلُهُمْ فِي السُّكْرِ

وهو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء، وهو أن لا يميز بين مرافقه ومَلاذِّه وبين أضدادها في مرافقة الحق، فإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذّهُ.

كما رُوي في بعض الروايات في حديث حارثة أنه قال: «اسْتَوَى عِنْدِي حَجَرُهَا وَمَدَرُها، وذَهَبُها وفِضَّتُها».

وكما قال عبد الله بن مسعود: «ما أُبالي على أيِّ الحَالَيْنِ وَقَعْتُ: على غنًى أوْ فَقْرٍ، إنْ كَانَ فَقْراً فإنَّ فِيهِ الصَّبْر، وإنْ كَانَ غِنىً فإنَّ فِيهِ الشُّكْر».

ذهب عنه التمييز بين الأرفق وضدّه، وغلب عليه رؤية ما للحق من الصبر والشكر.

وأنشد بعضهم:

قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى قَلْبِي هَوَاكَ ... وَمَا لِي فِي فُؤادي مِنْ سِوَاكَ
فَلَوْ قَطَّعْتَنِي فِي الحُبِّ إرْباً ... لَمَا حَنَّ الفُؤَادُ إلى سِوَاكَ

والصَّحْوُ الذي هو عقيب السكر: وهو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذّ، فيختار المؤلم من موافقة الحق ولا يشهد الألم بل يجد لذة في المؤلم.

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود.

(٢) احتظرت: أي امتنعت بمانع وثيق. وأصل الحظر المنع.

كما جاء عن بعض الكبار أنه قال: «لو قَطَّعَني البَلاءُ إِرْباً إِرْباً ما ازْدَدْتُ لَكَ إلاَّ حُباً حُبّاً».

وعن أبي الدرداء أنه قال: «أُحِبُّ المَوْتَ اشْتِياقاً إلى رَبّي، وأُحِبُّ المَرَضَ تَكْفِيراً لخطِيئَتي، وأُحِبُّ الفُقَرَاءَ تَوَاضُعاً لرَبّي».

وعن بعض الصحابة أنه قال: «يا حَبَّذا المَكْرُوهَانِ: المَوتُ والفَقْرُ».

وهذه الحالة أتمّ لأن صاحب السكر يقع على المكروه من حيث لا يدري ويغيب عن وجود التكرّه، وهذا يختار الآلام على الملاذّ ثم يجد اللذة فيما يؤلمه، لغلبة شهود فاعله.

والصاحي الذي نَعْتُه قبل نَعْتِ السكر، ربما يختار الآلام على الملاذّ لرؤية ثواب أو مطالعة عِوَضٍ، وهو متألم في الآلام، ومتلذّذ في الملاذّ، فهو نعت الصحو والسكر.

وأنشدونا لبعض الكبار:

كَفَاكَ بأنَّ الصَّحْوَ أَوْجَدَ أَنَّني ... فَكَيْفَ بِحَالِ السُّكْرِ والسُّكْرُ أَجْدَرُ
فحَالاكَ لي حَالانِ صَحْوٌ وسَكْرَةٌ ... فَلا زِلْتُ في حَاليَّ أَصْحُو وأَسْكَرُ

معناه أن حالة التمييز إذا أسقط عني ما لي وأوجد ما لك، فكيف يكون حالة السكر وهو سقوط التمييز عني، ويكون الله هو الذي يصرفني في وظائفي ويراعيني في أحوالي. وهاتان تجريان عليّ، وهما لله تعالى لا لي، فلا زلت في هاتين الحالتين أبداً.

الباب السادس والخمسون

قَوْلُهُمْ في الغَيْبَةِ والشُّهُودِ

فمعنى الغيبة: أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها، وهي ـ أعني الحظوظ ـ قائمة معه موجودة فيه، غير أنه غائب عنها بشهود ما للحق.

كما قال أبو سليمان الداراني، وبلغه أنه قيل للأوزاعي[1]: رأينا جاريتك الزرقاء في السوق، فقال: أو زرقاء هي؟.

(١) عبد الرحمن بن عمرو أبو عمرو الأوزاعي. والأوزاع بطن من همدان، كذا ذكره محمد بن سعد. وقال =

فقال أبو سليمان: (١) انفتحت عيون قلوبهم، وانطبقت عيون رؤوسهم.

أخبر أن غيبته عن زرقتها كانت مع بقاء لذة الحَوَرِ فيه بقوله أو زرقاء هي(٢):

والشهود: أن يرى حظوظ نفسه بالله لا بنفسه(٣).

ومعنى ذلك: أن يأخذ ما يأخذ بحال العبودية وخضوع البشرية لا للّذة والشهوة.

وغيبة أخرى وراء هذه، وهي أن يغيب عن الفناء والفاني بشهود البقاء والباقي لا غير، كما أخبر حارثة عن نفسه، ويكون الشهود شهود عيان، ويكون غيبته عما غاب غيبة شهود الضر والنفع، لا غيبة استتار واحتجاب.

وأنشدونا للنوري:

شَهِدْتُ ولم أَشْهَدْ لِحاظاً لَحَظْتُه ... وحَسْبُ لِحَاظِ شَاهِدٍ غَيْرُ مُشْهَدِ
وغِبْتُ مَغِيباً غَابَ للغَيْبِ غَيْبُهُ ... فَلاحَ ظُهُورُ غَيْبِهِ غَيْرُ مُفْقَدِ

وعبر عن الشهود بعض مشائخنا فقال: الشهود أن تشهد ما تشهد مستصغراً له

= البخاري في تاريخه: الأوزاع قرية بدمشق إذا خرجت من باب الفراديس.
ولد سنة ثمان وثمانين وسكن بيروت وبها مات سنة ١٥١، كذا ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة تاريخ وفاته، وأشار الشعراني في طبقاته إلى أنه مات سنة ١٥٧، وقال: وكان مولده ببعلبك ومات في حمام بيروت، دخل الحمام فذهب الحمامي في جماعة وأغلق عليه الباب ثم جاء فوجده ميتاً متوسداً بيمينه مستقبل القبلة.
كان رحمه الله من مدرسة الحديث الفقهية ينبذ الأخذ بالرأي. رحل إلى مالك وأخذ كلٌ منهما عن الآخر. وقد ظهر مذهبه في الشام ثم انتشر بالأندلس بعد دمشق حتى منتصف القرن الثالث الهجري فتغلب عليه مذهب مالك بالمغرب ومذهب الشافعي بالشام.
(انظر ترجمته في طبقات الشعراني: ١/٤٥، وصفة الصفوة: ٤/٢١٥، وحلية الأولياء: ٦/١٣٥).

(١) في الأصل «فقال سليمان» والصواب ما أثبتناه. وهو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبسي أو العنسي الداراني. مرت ترجمته صفحة ٢٤ حاشية ١.

(٢) لعله يريد أن غيبته عن زرقتها الظاهرة الآنية كان بسبب وجود لذة مشاهدة الحور الدائمة في قلبه، فكأنه يرى كل شيء بعين بصيرته فيستغني بذلك عن رؤية الأشياء ببصره.

(٣) قال القاشاني في اصطلاحات الصوفية (ص ١٥٣). الشهود رؤية الحق بالحق.

معدوم الصفة لما غلب عليك من شاهد الحق، كما جاء:

أَلا كُـلُّ شيءٍ مـا خَـلا اللهَ بَـاطِـلُ ... وكُـلُّ نَـعِيـمٍ لا مَـحَـالَـةَ زَائِـلُ

وكما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] رأى السامري معدوم الصفة في شهود الحق. وأنشدونا للنوري:

تَسَتَّـرْتُ عَنْ دَهْـرِي بِسَتْـرِ هُمُـومِـهِ ... مُحَيِّرَةٌ فِي قَـدْرِ مَنْ جَـلَّ عَنْ قَـدْرِي

فَـلا الدَّهْرُ يَـدْرِي أَنَّنِي عَنْـهُ غَـائِبٌ ... ولا أَنَـا أَدْرِي بِـالخُـطُوبِ إِذَا تَجْـرِي

إِذَا كَـانَ كُـلِّي قَـائِـمـاً بِـوَفَـائِـهِ ... فَلَسْتُ أُبَالِي مـا حَيِيتُ يَـدَ الـدَّهْـرِ

الباب السابع والخمسون

قَوْلُهُمْ في الجَمْعِ والتَّفْرِقَةِ

أول الجمع جمع الهمة، وهو أن تكون الهموم كلها همّاً واحداً.

وفي الحديث: «مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ هَمّاً واحِداً هَمَّ المَعَادِ، كَفَاهُ اللهُ سَائِرَ هُمُومِهِ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُومُ لَمْ يُبَالِ اللهُ في أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ»[١].

وهذه حال المجاهدة والرياضة.

والجمع الذي يعنيه أهله[٢] هو أن يصير ذلك حالاً له، وهو أن لا تتفرق همومه فيجمعها تكلّف العبد، بل تجتمع الهموم فتصير بشهود الجامع لها همّاً واحداً ويحصل الجمع، إذ كان بالله وحده دون غيره.

والتفرقة التي هي عقيب الجمع: هو أن يفرق بين العبد وبين همومه في حظوظه

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ؛ وفي هذا المعنى حديث: «من أصبح وهمه الدنيا شتّت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة». قال العراقي: هذا الحديث رواه ابن ماجة من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه.

(٢) قال القاشاني في اصطلاحات الصوفية: الجمع شهود الحق بلا خلق. وهذا التعريف يتشابه مع تعريف ابن عربي بأنه إشارة إلى حق لا خلق.

وبين طلب مرافقه وملاذه، فيكون مفرقاً بينه وبين نفسه، فلا تكون حركاته لها[1]. وقد يكون المجموع ناظراً إلى حظوظه في بعض الأحوال غير أنه ممنوع منها قد حِيلَ بينه وبينها، لا يتأتّى له منها شيء، وهو غير كاره لذلك، بل مريد له، لعلمه بأنه فعل الحق به واختصاصه له، وجَذْبِهِ إياه مما دونه.

سئل بعض الكبار عن الجمع: ما هو؟ فقال: «جَمْعُ الأسْرَارِ بما لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ وقَهْرُها فِيهِ، إذْ لا شِبْهَ لَهُ ولا ضِدّ».

وقال غيره: «جَمَعَهُمْ بِهِ حِينَ وَصَلَهُمْ بالقُصُورِ عَنْهُ، وفَرَّقَهُمْ عَنْهُ حِينَ طَلَبُوهُ بما مِنْهُمْ، فَسَنَحَ التَّشْتِيتُ لارْتِيَادِهِ بالأسْبَابِ، وحَصَلَ الجَمْعُ حِينَ شَاهَدُوهُ في كُلِّ بَابٍ».

فالتفرقة التي عبر عنها هي التي قبل الجمع. معناه: أن التقرب إليه بالأعمال تفرقة، وإذا شاهدوه مقرباً لهم فهو الجمع.

أنشدونا لبعض الكبار:

الجَمْعُ أفْقَدَهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ قِدَماً ... والفَرْقُ أوْجَدَهُمْ حِيناً بلا أثَرِ
فَاتَتْ نُفُوسُهُمْ والفَوْتُ فَقْدُهُمُ ... في شَاهِدٍ جُمِعُوا فِيهِ عَنِ البَشَرِ
وجَمْعُهُمْ عَنْ نُعُوتِ الرَّسْمِ مَحْوُهُمُ ... عمما يُؤَثِّرُهُ التَّلْوِينُ بالغِيَرِ
والحَيْنُ حَالٌ تَلاشَتْ في قَدِيمِهِمُ ... عَنْ شَاهِدِ الجَمْعِ إضْمارٌ بلا صُوَرِ
حَتَّى تُوَافي لَهُمْ في الفَرْقِ ما عَطَفَتْ ... عَلَيْهِمُ مِنْهُ حِينَ الوَقْتِ في الحَضَرِ
فالْجَمْعُ غَيْبَتُهُمْ والفَرْقُ حَضْرَتُهُمْ ... والوَجْدُ والفَقْدُ في هَذَيْنِ بالنَّظَرِ

معنى قوله: «الجمع أفقدهم من حيث هم»: أي علمهم بوجودهم للحق في علمه بهم أفقدهم من الحين الذي صاروا موجودين له؛ فجعل الجمع حالة العدم، حيث لم يكن إلا علم الحق بهم. والفرق: حالة ما أخرجهم من العدم إلى الوجود.

قوله: «فاتت نفوسهم»: أي رأوها حين الوجود كما كانوا إذْ هم فقود؛ لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا يتغير علم الله فيهم.

---

(١) الفرق بتعريف القاشاني هو الاحتجاب بالخلق عن الحق وبقاء الرسوم الخلقية بحالها. (انظر اصطلاحات الصوفية: ص ١٣٦).

وجمعهم: هو أن يمحوهم عن نعوت الرسم، وهي أفعالهم وأوصافهم، في أنها لا تؤثر أثر تلوين وتغيير، بل تكون على ما علم الله جل وعز وقدر وحكم، فتلاشت حالهم حين وجودهم في قديم العلم إذ كانوا معدمين لا موجودين مصوّرين، وإذا أوجدهم أجرى عليهم ما سبق لهم منه.

فالجمع: أن يغيبوا عن حضورهم وشهودهم إياهم متصرفين.

والفرق: أن يشهدوا أحوالهم وأفعالهم.

والوجد والفقد: حالتان متغايرتان لهم لا للحق تعالى.

قال أبو سعيد الخزاز: «مَعْنَى الجَمْعِ أنّهُ أوْجَدَهُمْ نَفْسَهُ في أَنْفُسِهِمْ، بَلْ أَعْدَمَهُمْ وُجُودَهُمْ لأنْفُسِهِمْ عِنْدَ وُجودِهِمْ لَهُ»[1].

معناه قوله: «كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وبَصَراً ويَداً فَبي يَسْمَعُ وبي يُبْصِرُ» الخبر[2].

وذلك أنهم كانوا يتصرفون بأنفسهم لا لأنفسهم، فصاروا متصرفين للحق بالحق.

الباب الثامن والخمسون

قَوْلُهُمْ في التَّجَلِّي والاسْتِتَارِ[3]

قال سهل: «التَّجَلِّي على ثَلاثَةِ أحْوَالٍ: تَجَلِّي ذَاتٍ وهي المُكَاشَفَةُ، وَتَجَلِّي صِفَاتِ الذَّاتِ، وهِيَ مَوْضِعُ النُّورِ، وَتَجَلِّي حُكْمِ الذَّاتِ وهِيَ الآخِرَةُ وَمَا فِيهَا».

معنى قوله: «تجلّي ذات وهي المكاشفة»: كشوف القلب في الدنيا، كقول عبد الله بن عمر: «كُنَّا نَتَرَاءى اللَّهَ في ذَلِكَ المَكَانِ»، يعني في الطواف؛ وقال النبي ﷺ:

---

(١) وهذا قريب من معنى الفناء عند الصوفية.

(٢) حديث قدسي.

(٣) التجلي في مصطلح الصوفية: ما يظهر للقلوب من أنوار الغيوب. والستر: كل ما يحجبك عما يعنيك، كغطاء الكون والوقوف مع العادات والأعمال. (انظر اصطلاحات الصوفية للقاشاني: ص ١٥٥ و ٩٩).

«اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[1]، وكشوف العيان في الآخرة.

ومعنى قوله: «تجلّي صفات الذات، وهي موضع النور»: هو أن تتجلّى له قدرته عليه فلا يخاف، وكفايتُه له فلا يرجو سواه. وكذلك جميع الصفات، كما قال حارثة: «وكأنّي أَنْظُرُ إلى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً» كأنَّهُ تجلّى له كلامه في أخباره فصار الخبر له كالمعاينة.

وتجلّي حكم الذات يكون في الآخرة، فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال بعض الكبار: «عَلامَةُ تَجَلِّي الحَقِّ للأَسْرارِ هُوَ أَنْ يَشْهَدَ السِّرُّ ما يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ التَّعْبِيرُ أو يَحْوِيهِ الفَهْمُ، فَمَنْ عَبَّرَ أو فَهِمَ فَهُوَ خَاطِرُ اسْتِدْلالٍ لا نَاظِرُ إجْلالٍ».

معناه: أن يشهد ما لا يمكنه العبارة عنه، أي التعبير عنه؛ لأنه لا يشهد إلا تعظيماً وهيبة، فيمنعه ذلك عن تحصيل ما شاهد من الحال. وأنشدونا لبعضهم:

إذَا مَا بَدَتْ لي تَعَاظَمْتُهَا ... فَأَصْدُر في حَالِ مَنْ لَمْ يَرِدْ
أُجِدْهُ إذَا غِبْتُ عَنِّي بِهِ ... وأَشْهَدُ وَجْدِي له قَدْ فُقِدْ
فَلا الوُصُولُ يُشْهِدُنِي غَيْرَهُ ... ولا أَنَا أَشْهَدُهُ مُنْفَرِدْ
جُمِعْتُ وفُرِّقْتُ عَنِّي بِهِ ... فَفَرْدُ التَّوَاصُلِ مَثْنَى العَدَدْ

معناه: إذا بدت الحقيقة غلب عليّ التعظيم، فأغيب في شاهد التعظيم عن شهود التحصيل، فأكون كمن لم يَبْدُ له، وإنما يكون وجودي له إذا غبْتُ عني، وإذا غبتُ فُقِد وجودي؛ فحالة الوصل هو فنائي عني، لا يُشهدني غيره، وحالة الانفراد وقيامي بصفتي يغيبني عن شهوده، فكأن جمعي به فرّقني عني، فيكون حالة الوصل: هو أن يكون الله عز وجل مُصرِّفي؛ فلا أكون أنا في أفعالي، فهو الله تعالى، لا أنا.

كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) جزء من أحاديث طويلة أطولها حديث جبريل في الإيمان والإسلام. وفي الصحيحين: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه».

وهذا لسان الحال؛ ولسانُ العلم: أن الله مصرِّفي، وأنا به متصرِّف، فيكون المعبود والعبد.

وقال بعضهم: «التَّجلِّي رَفْعُ حُجْبَةِ البَشَرِيَّةِ، لا أنْ تَتلَوَّنَ ذَاتُ الحَقِّ جَلَّ وعزّ عن ذَلِكَ وَعلا».

والاستتار: أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب.

ومعنى رفع حجبة البشرية: أن يكون الله تعالى يُقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب، لأن البشرية لا تقاوم أحوالَ الغيب.

والاستتار الذي يعقب التجلّي هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشاهدها، كقول عبد الله بن عمر للذي سلم عليه وهو في الطواف فلم يرد عليه فشكاه فقال: «إنَّا كُنَّا نَتَرَاءَى اللَّهَ في ذَلِكَ المَكَانِ»، أخبر عن تجلّي الحقّ له بقوله: «كُنَّا نَتَرَاءَى الله» وأخبر عن الاستتار بغيبته عن التسليم عليه.

وأنشدونا لبعض الكبار:

سَـرَائـرُ الحَقِّ لا تَـبْـدُو لمُـحْتَجِب ... أَخْفَـاهُ عَنْـكَ فَـلا تُعْـرَضْ لمُخْفِيـهِ
لا تُغْنِ نَفْسَـكَ فِيمَـا لَسْتَ تُـدْرِكُـهُ ... حَـاشَـا الحَقِيقَـة أنْ تَبْـدُو فَتُؤوِيـهِ

الباب التاسع والخمسون

قَوْلُهُمْ في الفَنَاءِ والبَقَاءِ

فالفناء: هو أنْ يَفْنَى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظٌّ، ويسقط عنه التمييز، فناءً عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: «ما أبالي امْرأةً رَأيْتُ أمْ حائِطاً».

والحق يتولّى تصريفه، فيصرّفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظاً فيما لله عليه، مأخوذاً عمّا له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل، وهو العصمة؛ وذلك معنى قوله ﷺ «كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وبَصَراً»[1] الخبر.

---

(١) جزء من حديث قدسي رواه البخاري في الرقائق باب التواضع أوله: «من عادى لي ولياً فقد آذنته»

والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله.

قال بعض الكبار: «البَقَاءُ مَقامُ النَّبِيِّينَ أُلْبِسُوا السَّكِينةَ، لا يَمْنَعُهُمْ ما حَلَّ بِهِمْ عَنْ فَرْضِهِ ولا عَنْ فَضْلِهِ».

﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

والباقي هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانياً عن المخالفات، باقياً في الموافقات.

وليس معنى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً أن تصير المخالفات له موافقات فيكون ما نَهَى عنه كما أمر به، ولكن على معنى: أن لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى، دون ما يكرهه، ويفعل ما يفعل لله لا لحظٍّ له فيه في عاجل أو آجل.

وهذا معنى قولهم: «يكون فانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق»، لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له، لأنه لا يجر به نفعاً ولا يدفع به ضرّاً، تعالى الله عن ذلك، وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرّهم.

فالباقي بالحقّ الفاني عن نفسه، يفعل الأشياء لا لجر منفعة إلى نفسه ولا لدفع مضرّة عنها، بل على معنى أنه لا يقصد في فعله جَرَّ المنفعة ودَفْعَ المضرّة، قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها، بمعنى القصد والنية، ولا بمعنى أنه لا يجد حظّاً فيما يعمل مما لله عليه يفعله لله، لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب، وهما - أعني الخوف والطمع - باقيان معه قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى، لأنه رغب فيه وأمر أن يُسأل ذلك منه، ولا يفعله للذّة نفسه ويخاف عقابه إجلالاً له وموافقة له؛ لأنه خوّف عباده، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه، كما قيل: المؤمن يأكل بشهوة عياله.

أنشدونا لبعضهم:

= بالحرب، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها».

ـناهُ عَنْ حَـظِّهِ فِيمَـا أَلَـمَّ بِـهِ   فَـظَلَّ يُبْقِيـهِ فِي رَسْـمٍ لِيُبْـدِيـهِ
يـأخُـذَ الـرَّسْمَ عَنْ رَسْمٍ يُكَـاشِفُـهُ   والـسِّـرُّ يَـصْطَفِـحُ عَنْ حَـقٍّ يُـرَاعِيـهِ

فجملة الفناء والبقاء: أن يَفْنَى عن حظوظه، ويبقى بحظوظ غيره.

فمن الفناء فناءٌ عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزماً، وبقاء في شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلاً، وفناء عن تعظيم ما سوى الله، وبقاء في تعظيم الله تعالى.

ومن فناء تعظيم ما سوى الله، حديث أبي حازم حيث قال: «ما الدنيا! أما ما مضى فأحلام، وأما ما بقي فأمان وغرور، وما الشيطان حتى يهاب منه؟ لقد أُطِيعَ فما نفع، وعُصِيَ فما ضرّ، فكان كأنه لا دنيا عنده ولا شيطان».

ومن فناء الحظوظ، حديث عبد الله بن مسعود حيث قال: «ما علمت أن في أصحاب رسول الله ﷺ من يريد الدنيا حتى قال الله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ومِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢]»، فكان فانياً عن إرادة الدنيا.

ومن ذلك حديث حارثة قال: «عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدنْيَا، فكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، فَنِيَ عَنِ العَاجِلَةِ بالآجِلَةِ، وعَنِ الأَغْيَارِ بالجَبَّارِ».

وحديث عبد الله بن عمر، سلم عليه إنسان وهو في الطواف، فلم يرد عليه، وشكاه إلى بعض أصحابه، فقال عبد الله: «إنَّا كُنَّا نَتَراءَى اللَّهَ في ذَلِكَ المَكَانِ».

ومنها حديث عامر بن عبد القيس قال: لأَنْ تَخْتَلِفَ فِيَّ الأَسِنَّةُ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَجِدَ ما تَذْكُرونَ - يعني في الصلاة - حتى قال الحسن: ما اصطنع الله ذلك عندنا.

وفناءٌ هو الغيبة عن الأشياء رأساً.

كما كان فناء موسى عليه السلام، حين تجلَّى ربُّه للجبل فخر موسى صَعِقاً، فلم يخبر في الثاني من حاله عن حاله، ولا أخبر عنه مغيبة به عنها.

وقال أبو سعيد الخرّاز: «علامةُ الفَاني ذَهَابُ حَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ إلاَّ مِنَ الله تعالى، ثم يَبْدُو بَادٍ مِنْ قُدْرَةِ الله تعالى فَيُريه ذَهَابَ حَظِّهِ مِنَ الله تعالى إجلالاً لله، ثم يَبْدُو لَهُ بَادٍ مِنَ الله تعالى فَيُريه ذَهَابَ حَظِّهِ مِنْ رُؤْيَةِ ذَهَابِ حَظِّهِ، وَيَبْقَى رُؤْيَةُ ما كَانَ

مِنَ الله لله، ويَتَفَرَّدُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ في أَحَدِيَّتِهِ، فلا يَكُونُ لغَيْرِ الله مَعَ الله فَنَاءٌ ولا بَقَاءٌ».

معنى ذهاب حظه من الدنيا مطالبة الأعراض، ومن الآخرة مطالبة الأعواض؛ فيبقى حظه من الله، وهو رضاه عنه وقربه منه، ثم يَرِدُ عليه حالة من إجلال الله تعالى أن يقرب مثله أو يرضى عن مثله استحقاراً لنفسه وإجلالاً لربه، ثم تَرِدُ عليه حالة فيستوفيه حقّ الله تعالى فيغيبه عن رؤية صفته التي هي رؤية ذهاب حظه فلا يبقى فيه إلا ما من الله إليه، ويفنى عنه ما منه إلى الله، فيكون كما كان إذْ كان في علم الله تعالى قبل أن يوجده، وسبق له منه ما سبق من غير فعلٍ كان منه.

وعبارة أخرى عن الفناء: أن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية بالحمل المولَّه من نعوت الإلهية، وهو أن يفنى عنه أوصاف البشرية التي هي الجهل والظلم، لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ومن أوصافه الكُنُود والكُفور، وكل صفة ذميمة تفنى عنه، بمعنى أن يغلب عِلْمُه جَهْلَه وعدلُه ظُلْمَه وشكرُه كفرانَهُ وأمثالها.

قال أبو القاسم فارس: «الفَنَاءُ حَالُ مَنْ لا يَشْهَدُ صِفَتَهُ، بل يَشْهَدُها مَغْمُورَةً بمُغَيِّبِها».

وقال: «فَنَاءُ البَشَرِيَّةِ لَيْسَ على مَعْنَى عَدَمِهَا، بل على مَعْنَى أَنْ تُغَمَّدَ بلَذَّةٍ تُوفِي على رُؤْيَةِ الأَلَمِ، واللَّذة الجَارِيَةُ على العَبْدِ في الحَالِ كَصَوَاحِبَاتِ يُوسُفَ عَلَيهِ السلام: قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ لفَنَاءِ أَوْصَافِهِنَّ، ولِمَا وَرَدَ على أَسْرَارِهِنَّ مِنْ لَذَّةِ النَّظَرِ إلى يُوسُفَ، ممَّا غَيَّبَهُنَّ عَنْ أَلَمِ مَا دَخَلَ عَلَيْهِنَّ مِنْ قَطْعِ أَيْدِيهِنَّ».

ولبعض أهل العصر:

غَابَتْ صِفَاتُ القَاطِعَاتِ أَكُفَّهَا ... في شَاهِدٍ هُوَ في البَرِيَّةِ أَبْدَعُ
فَفَنَيْنَ عَنْ أَوْصَافِهِنَّ فَلَمْ يَكُنْ ... مِنْ نَعْتِهِنَّ تَلَذُّذٌ وَتَوَجُّعُ
وقِيَامُ امْرَأَةِ العَزِيزِ بيُوسُفٍ ... يَدُ نَفْسِهِ مَا كَانَ يُوسُفُ يَقْطَعُ

وأنشدونا في الفناء:

ذَكَـرْنَـا ومـا كُنَّـا لِنَنْسَى فَنَـذْكُـرُ   وَلكِنْ نَسِيمُ القُـرْبِ يَبْـدُو فَيَبْهَـرُ
فَـأَفْنَى بِـهِ عَنِّي وأُبْقَى بِهِ لَـهُ   إذَا الـحَقُّ عَنْـهُ مُخْبِـرٌ ومُعَـبِّـرُ

ومنهم من جعل هذه الأحوال كلها حالاً واحدة وإن اختلفت عباراتها، فجعل الفناء بقاء والجمع تفرقة، وكذلك الغيبة والشهود والسكر والصحو.

وذلك أن الفاني عما له باقٍ بما للحق، والباقي بما للحق فانٍ عما له، والمفارق مجموع لأنه لا يشهد إلا للحق، والمجموع مفارق لأنه لا يشهد إيّاه ولا الخلق، وهو باقٍ لدوامه مع الحق، وهو جامعه به، وهو فانٍ عما سواه مفارق لهم، وهو غائب سكران لزوال التمييز عنه. ومعنى زوال التمييز عنه هو ما قلناه بين الآلام والملاذّ، وبمعنى أن الأشياء تتوحّد له فلا يشهد مخالفة، إذ لا يصرّفه إلا الحق في موافقاته، وإنما تميزٌ بين الشيء وغيره، فإذا صارت الأشياء شيئاً واحداً سقط التمييز.

وعبّر جماعة عن الفناء بأن قالوا: يؤخذ العبد من كل رسم كان له وعن كل مرسوم، فيبقى في وقته بلا بقاء يعلمه، ولا فناء يشعر به، ولا وقت يقف عليه، بل يكون خالقه عالماً ببقائه وفنائه ووقته، وهو حافظ له عن كل مفهوم.

واختلفوا في الفاني، هل يُرَدُّ إلى بقاء الأوصاف أم لا؟

قال بعضهم: يرد الفاني إلى بقاء الأوصاف، وحالة الفناء لا تكون على الدوام لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركاتها في أمور معاشها ومَعَادِهَا.

ولأبي العباس بن عطاء في ذلك كتاب سماه: «كتابُ عودة الصفات وبَدْئها».

وأما الكبار منهم والمحققون فلم يَرَوْا ردَّ الفاني إلى بقاء الأوصاف، منهم الجنيد والخزاز والنوري، وغيرهم.

فالفناء: فضلٌ من الله عز وجل، وموهبة للعبد، وإكرام منه له، واختصاص له به.

وليس هو من الأفعال المكتسبة، وإنما هو شيء يفعله الله عز وجل بمن اختصه لنفسه واصطنعه له، فلو ردّه إلى صفته كان في ذلك سلب ما أعْطَى، واسترجاع ما

وَهَب؛ وهذا غير لائق بالله عز وجل. أو يكون من جهة البَدَاءِ[1]، والبداءُ صفةُ من استفاد العلم، وهذا من الله عز وجل منفي .أو يكون ذلك غروراً وخداعاً، والله تعالى لا يوصف بالغرور، ولا يخادع المؤمنين، وإنما يخادع المنافقين والكافرين.

وليس مقامُ الفناء يُدْرَكُ بالاكتساب فيجوز أن يكتسب ضدّه، فإن عورض بالإيمان والرجوع عنه، وهو أفضل المراتب، وبه يدرك جميع المقامات، أجيب عنه أن الإيمان الذي يجوز الرجوع عنه هو الذي اكتسبه العبد من إقرار لسانه والعمل بأركانه، ولم يخامر الإيمان حقيقة سره، لا من قِبَلِ الشهود، ولا من صحة العقود، لكنه أقرّ بشيء، ولا يدري حقيقة ما أقر به، كما جاء في الحديث: «**إنَّ المَلَكَ لَيَأْتِي العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ فَيَقُولُ: ما قَوْلُكَ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فَقُلْتُهُ**»[2].

فهذا شاكٌ غير متيقن.

أو يكون أقرّ بلسانه وانطوى على تكذيبه، كالمنافق الذي أقر بلسانه وكذبه بقلبه وأضمر خلافه، ولكنه أقرّ بلسانه ولم يكذبه بقلبه[3] ولا أضمر خلافه، ولكن لم يقع له صحة ما أقرّ به اكتساباً ولا مشاهدة، ولم يكتسب تحقيقه من جهة العلم فتقوم له الدلائل على صحته، ولا شاهد بقلبه حالاً أزال عنه الشكوك، وقد سبق له من الله الشقاء، فاعترضت له شبهة من خاطر ناظر ففتنته فانتقل عنه إلى ضده.

فأما من سبق له من الله الحسنى، فإن الشبهات لا تقع له، والعوارض تزول عنه إما اكتساباً من علم الكتاب والسنة ودلائل العقل فيزيل خواطر السوء عنه وترد شبهات الناظر له، إذ لا يجوز أن يكون لما خالف الحق دلائل الحق، فهذا لا تعترضه الشكوك.

أو يكون ممن قد وقع له صحة الإيمان، ويردُّ الله تعالى عنه خواطر السوء باعتصامه بالجملة، ويرد عنه الله الناظر المشكك له لطفاً به، فلا يقابله فيسلم له صحةُ إيمانه وإن لم يكن عنده من البيان ما يحتاج ناظره ولا ما يزيل خاطره.

---

(١) البداء: ظهور الرأي بعد أن لم يكن. وهذا على الله تعالى محال.

(٢) جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الإيمان.

(٣) العبارة غير مستقيمة، ولعلها: أو أقرّ بلسانه . . . . الخ.

أو يكون ممن وقع له صحة ما أقرّ به شهوداً أو كشوفاً، كما أخبر حارثة عن نفسه من شهوده ما أقر به، حتى حلّ ما غاب عنه من ذلك محلّ ما حضر وأكثر؛ لأنه أخبر أنه عزف عن الشاهد فصار الغيب له شهوداً والشاهد غائباً، كما قال الداراني: «انْفَتَحَتْ عُيُونُ قُلُوبِهِمْ، فَانْطَبَقَتْ عُيُونُ رُؤُوسِهِمْ».

فمن وقع له صحة ما أقرّ به من هذه الجهة لم يرجع عن الأخرة إلى الدنيا، ولا ترك الأولى للأدنى.

وهذا كله أسباب العصمة من الله له، وتصديق ما وعد بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فقد صح أن المؤمن الحقيقي لا ينتقل عن الإيمان؛ لأنه موهبة له من الله جل وعز، وعطاء وفضل واختصاص، وحاشا الحق عز وجل أن يرجع فيما وهب، أو يستردّ ما أعطى.

وصورة الإيمان الحقيقي والرسمي(١) في الظاهر صورة واحدة وحقائقها مختلفة.

فأما الفناء وغيره من مقامات الاختصاص، فإن صُوَرَهَا مختلفة وحقائقها واحدة؛ لأنها ليست من جهة الاكتساب، لكن من جهة الفضل.

وقول من قال: إن الفاني يُردُّ إلى أوصافه، محال؛ لأن القائل إذا أقرَّ بأن الله تعالى اختصَّ عبداً واصطنعه لنفسه، ثم قال: إنه يردّه، فكأنه قال: يختصّ ما لا يختصّ، ويصطنع ما لا يصطنع، وهذا محالٌ.

وجوازه من جهة التربية والحفظ عن الفتنة لا يصلح أيضاً؛ لأن الله تعالى لا يحفظ على العبد ما آتاه من جهة السلب، ولا بأن يردّه إلى الأوضع عن الأرفع، ولو جاز هذا جاز أن لا يحفظ مواضع الفتن من الأنبياء بأن يردّهم من رتبة النبوة إلى رتبة الولاية أو ما دونها، وهذا غير جائز.

ولطائف الله تعالى في عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقع

---

(١) الرسمي: أي الظاهري، من الرسم وهو الصورة.

تحت الإحصاء والعدّ، وقدرته أتمّ من أن تُحْصَرَ على فعل دون غيره.

فإن عورض بالذي آتاه آياته ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] لم يعترض؛ لأن الذي انسلخ لم يكن قطُّ شاهدَ حالاً، ولا وجدَ مقاماً، ولا كان مختصّاً قط، ولا مُصْطَنَعاً، بل كان مستدرَجاً مخدوعاً ممكوراً به.

وإنما أُجري على ظاهره من أعلام المختصّين، وهو في الحقيقة من المردودين، وإنما حلّى ظاهره بالوظائف الحسنة، والأوراد الزكية، وهو أعمى القلب محجوب السرّ، لم يجد قط طعم الخصوص، ولا ذاق لذة الإيمان، ولا عرف الله قط من جهة الشهود، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وكما أخبر عن إبليس بقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(١).

قال الجنيد: «إنّ إبْلِيسَ لَمْ يَنَلْ مُشَاهَدَتَهُ في طَاعَتِهِ، وآدَمَ لَمْ يَفْقِدْ مُشَاهَدَتَهُ في مَعْصِيَتِهِ».

وقال أبو سليمان(٢): «واللّهِ ما رَجِعَ مَنْ رَجِعَ إلاّ مِنَ الطَّرِيقِ، ولو وَصَلُوا إِلَيْهِ ما رَجِعُوا عَنْهُ».

والفاني يكون محفوظاً في وظائف الحقّ كما قال الجنيد، وقيل له: إن أبا الحسين النوري قائم في مسجد الشونيزي منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وهو يقول: الله، الله، ويصلّي الصلوات لأوقاتها، فقال بعض من حضره إنه صاح؛ فقال الجنيد: لا، ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدي الله في مواجيدهم، فإن رُدَّ الفاني إلى الأوصاف لم يُرَدَّ إلى أوصاف نفسه، ولكن يُقام مقام البقاء بأوصاف الحق.

وليس الفاني بالصَّعِقِ(٣) ولا المعتوه، ولا الزائل عنه أوصاف البشرية فيصير مَلَكاً أو روحانياً، ولكنه ممن فني عن شهود حظوظه، كما أخبرنا قبل.

---

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة، وهي: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

(٢) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وقد مرت ترجمته ص ٢٤ حاشية ١

(٣) الصَّعَقُ في تعريف القاشاني: هو الفناء في الحقّ بالتجلّي للذات (اصطلاحات الصوفية: ص ١٤٠).

والفاني أحد عينين[1]: إما عين لم ينصب إماماً ولا قدوة فيجوز أن يكون فناؤه غيبة عن أوصافه، فيُرى بعين العتاهة وزوال العقل، لزوال تمييزه في مرافق نفسه وطلب حظوظه، وهو على ذلك محفوظ في وظائف الحق عليه؛ وقد كان في الأمة منهم كثير.

منهم بلال الحبشي، عبدٌ كان للمغيرة بن شعبة في حياة النبي ﷺ، نبّه عنه النبي ﷺ.

وأُوَيْس القَرَني في أيام عمر بن الخطاب نبّه عليه عمر وعليّ رضي الله عنهما وخلق كثير.

إلى أن كان عليان المجنون[2]، وسعدون[3]، وغيرهما.

أو يكون إماماً يُقْتَدى به ويربط به غيره ممن يسوسه، فأقيم مقام السياسة والتأديب، فهذا ينقل إلى حالة البقاء فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه.

والمتصرف بأوصاف الحق هو ما ذكرناه قبل.

وسئل الجنيد عن الفراسة فقال: «هي مُصَادَفَةُ الإِصَابَةِ». فقيل له: هي للمتفرس في وقت المصادفة أو على الأوقات؟ قال: «لا، بَلْ على الأَوْقَات، لأَنَّها مَوْهِبَةٌ، فهِي مَعَه كَائِنَةٌ دَائِمَةٌ».

---

(١) العين هنا بمعنى الذات.

(٢) لم أجد ترجمة له.

(٣) سعدون المجنون من عقلاء المجانين ببغداد؛ قال الشعراني: كان يجن ستة أشهر ويفيق ستة أشهر، وكان إذا هاج صعد السطح ونادى بالليل بصوت رفيع يا نيام انتبهوا من رقدة الغفلة قبل انقطاع المهلة فإن الموت يأتيكم بغتة. وذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة عن الفتح بن شخرف قال: كان سعدون صاحب محبة لله، صام ستين سنة حتى خفّ دماغه فسماه الناس مجنوناً لتردد قوله في المحبة، فغاب عنا زماناً، فبينا أنا قائم على حلقة ذي النون رأيته عليه جبة صوف وعليها مكتوب: لا تباع ولا تشترى؛ فسمع كلام ذي النون وأنشأ يقول:

ولا خير في شكوى إلى غير مشتكى ... ولا بدّ من سلوى إذا لم يكن صبر

(انظر طبقات الشعراني: ١/٦٨، وصفة الصفوة: ٢/٣٣٠).

فأخبر أن المواهب تكون دائمة.

ومن يتبع كتب القوم وفهم إشاراتهم، علم أن قولهم ما حكيناه عنهم، فإن هذه المسألة وأمثالها ليست بمنصوصات ولا مفردات، بل يُعْرَف ذلك من قولهم بفهم رموزهم ودرك إشاراتهم. والله أعلم.

الباب الستون

قَوْلُهُمْ في حَقَائِقِ المَعْرِفَةِ

قال بعض الشيوخ: «المَعْرِفَةُ مَعْرِفَتَانِ: مَعْرِفَةُ حَقٍّ، ومَعْرِفَةُ حَقِيقَةٍ. فَمَعْرِفَةُ الحَقِّ: إثْبَاتُ وَحْدَانِيَّةِ الله تعالى عَلَى ما أَبْرَزَ مِنَ الصِّفَاتِ. والحَقِيقَةُ: على أَنْ لا سبيلَ إِلَيْها، لامْتِنَاعِ الصَّمَدِيَّةِ وتَحَقُّقِ الرُّبُوبِيَّةِ عَنِ الإحَاطَةِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠]؛ لأنَّ الصَّمَدَ هو الَّذي لا تُدْرَكُ حَقَائِقُ نُعُوتِهِ وصِفَاتِهِ».

وقال بعض الكبراء: «المَعْرِفَةُ إِحْضَارُ السِّرِّ بِصُنُوفِ الفِكْرِ في مُرَاعَاةِ مَوَاجِيدِ الأَذْكَارِ على حَسَبِ تَوَالي أَعْلامِ الكُشُوفِ».

ومعناه: أن يشاهد السرُّ من عظمة الله وتعظيم حقِّه وإجلال قدره ما تعجز عنه العبارة.

سئل الجنيد عن المعرفة فقال: «هي تَرَدُّدُ السِّرِّ بَيْنَ تَعْظِيمِ الحَقِّ عَنِ الإحَاطَةِ وإِجْلَالِهِ عَنِ الدَّرَكِ»[1].

وقد سئل عن المعرفة فقال: «أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ما تَصَوَّرَ في قَلْبِكَ فالحَقُّ بِخِلافِهِ، فيا لها حَيْرَةً! لا لَهُ حَظٌّ من أَحَدٍ، ولا لأَحَدٍ مِنْهُ حَظٌّ، وإنَّما وُجُودٌ يَتَرَدَّدُ في العَدَمِ، لا تَتَهَيَّأُ العِبَارَةُ عَنْهُ، لأنَّ المَخْلُوقَ مَسْبُوقٌ، والمَسْبُوقُ غَيْرُ مُحِيطٍ بالسَّابِقِ».

معنى: «هو وجود يتردد في العدم»: يعني صاحب الحال يقول: هو موجود عياناً وشخصاً، وكأنه معدوم صفة ونعتاً.

---

(١) الدرك: اللحاق.

وعن الجنيد أيضاً قال: «المَعْرِفَةُ هي شُهُودُ الخَاطِرِ بعَوَاقِبِ المَصيرِ، وأنْ لا يَتَصَرَّفَ العَارِفُ بسَرَفٍ ولا تَقْصيرٍ».

ومعناه: أن لا يشهد حاله، وأن يشهد سابق علم الحق فيه، وأن مصيره إلى ما سبق له منه، ويكون مصرَّفاً في الخدمة والتقصير.

وقال بعضهم: «المَعْرِفَةُ إذا وَرَدَتْ على السِّرِّ ضَاقَ السِّرُّ عَنْ حَمْلِها، كالشَّمْسِ يَمْنَعُ شُعَاعُها عَنْ إدْرَاكِ نِهَايَتِها وجَوْهَرِهَا».

قال ابن الفرغاني[1]: «مَنْ عَرَفَ الرَّسْمَ تَجَبَّرَ، ومَنْ عَرَفَ الوَسْمَ تَحَيَّرَ، ومَنْ عَرَفَ السَّبْقَ تَعَطَّلَ، ومَنْ عَرَفَ الحَقَّ تَمَكَّنَ، ومَنْ عَرَفَ المُتَوَلِّي تَذَلَّلَ».

معناه: من شاهد نفسه قائماً بوظائف الحق أُعْجِبَ، ومن شاهد ما سبق له من الخير تحيّر؛ لأنه لا يدري ما علم الحق فيه وبماذا جرى القلم به. ومن عرف أن ما سبق له من القسمة لا يتقدم ولا يتأخر تعطل عن الطلب، ومن عرف الله بالقدرة عليه والكفاية له تمكن فلا يضطرب عند المخوفات ولا عند الحاجات. ومن عرف أن الله متولي أموره تذلّل له في أحكامه وأقضيته.

وقال بعض الكبار: «إذَا عَرَّفَهُ الحَقُّ إيَّاهُ أوْقَفَ المَعْرِفَةَ حَيْثُ لا يَشْهَدُ مَحَبَّةً ولا خَوْفاً ولا رَجاءً ولا فَقْراً ولا غنى، لأنَّهَا دُونَ الغَايَاتِ والحَقُّ وَرَاءَ النِّهَايَاتِ».

معناه: أن لا يشهد هذه الأحوال لأنها أوصافه، وأوصافه أقصر من أن تبلغ ما يستحقه الحق من ذلك.

أنشدونا لبعض الكبار:

رَاعَيْتَني بالحِفَاظِ حَتَّى ... حُمِيتُ عَنْ مَرْتَعٍ وَبِيٍّ[2].

---

(١) هو أبو بكر بن إسماعيل الفرغاني؛ قال ابن الجوزي في صفة الصفوة (١٤٩/٤) عن محمد بن داود قال: ما رأيت في الفقراء أحسن من أبي بكر بن إسماعيل الفرغاني، وكان ممن يظهر الغنى في الفقر، يلبس قيمصين أبيضين ورداءً وسراويل ونعلاً لطيفة وعمامة، وفي يده مفتاح كبير حسن، وليس له بيت، ينطرح في المساجد ويطوي الخمس والستّ دائماً.

(٢) الوبيّ: الوبيء، الضارّ.

فَـأَنْتَ عِنْـدَ الـخِصَـامِ عُـذْرِي وفـي ظِـمَـائـي فـأَنْـتَ رِيِّـي
إِذَا امْـتَـطَى الـعَـارِفُ الـمُـعَـلَّى سِرّاً إلـى مَـنْـظَـرٍ عَـلـيٍّ
وغَـاصَ فـي أَبْـحُـرٍ غـزَارٍ تَـفِـيضُ بـالـخَـاطِـرِ الوَحِيِّ(١)
فَضَّ خِـتَـامَ الـغُـيُـوبِ عَـمَّـا يُـخْـيِـي فُؤادَ الـشَّـجِـي الـوَلِـيِّ
مَـنْ حَـارَ فـي دَهْـشَـةِ الـتَّـلاقـي أَبْـصَـرْتَـهُ مَـيِّـتـاً كَـحَـيِّ

يعني من حيرته دهشة ما يبدو له من الله من شاهد تعظيم الله وإجلاله أبصرته حيّاً، كميت يفنى عن رؤية ما منه ولا يجد له متقدماً ولا متأخراً.

الباب الحادي والستون

قَوْلُهُمْ في التَّوْحِيدِ

أركان التوحيد سبعة: إفراد القدم عن الحدث، وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له، وترك التساوي بين النعوت، وإزالة العلّة عن الربوبية، وإجلال الحق عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلوّنه، وتنزيهه عن التمييز والتأمل، وتبرئته عن القياس.

قال محمد بن موسى الواسطي: جُمْلَةُ التَّوْحِيدِ أَنَّ كُلَّ ما يَتَّسِعُ بِهِ اللِّسَانُ أو يُشِيرُ إِلَيْهِ البَيَانُ مِنْ تَعظِيمٍ، أوتَجْرِيدٍ، أو تَفْرِيدٍ، فَهُوَ مَعْلُولٌ، والحَقِيقَةُ وَرَاءَ ذَلِكَ.

معناه: أن كل ذلك من أوصافك وصفاتك محدثة معلولة مثلك، وحقيقة الحق هو وصفه له.

وقال بعض الكبراء: «التَّوْحِيدُ إِفْرَادُكَ مُتَوَحِّداً، وهُوَ أَنْ لا يُشْهِدَكَ الحَقُّ إِيَّاكَ».

قال فارس: «لا يَصِحُّ التَّوْحِيدُ ما بَقِيَتْ عَلَيْكَ عَلقَةٌ مِنَ التَّجْرِيدِ، والمُوَحِّدُ بالقَوْلِ لا يَشْهَدُ السِّرَّ مُنْفَرِداً بِهِ، والمُوَحِّدُ بالحَالِ غَائِبٌ بِحَالِهِ عَنِ الأَقْوَالِ، ورُؤْيَةُ الحَقِّ حالٌ لا يَشْهَدُهُ إِلَّا كُلُّ مَا لَهُ، ولا سَبِيلَ إِلى تَوْحِيدِهِ بلا قَالٍ ولا حَالٍ».

وقال بعضهم: «التَّوْحِيدُ هُوَ الخُرُوجُ عَنْ جَمِيعِكَ بِشَرْطِ اسْتِيفَاءِ ما عَلَيْكَ وأَنْ لا يَعُودَ عَلَيْكَ ما يَقْطَعُكَ عَنْهُ».

---

(١) الوحيّ: العجل المسرع. قاله في القاموس المحيط.

معناه: تبذل مجهودك في أداء حق الله، ثم تتبرأ من رؤية أداء حقه ويستوفيك التوحيد عن أوصافك، فلا يعود عليك منها شيء، فإنه قاطع لك عنه.

قال الشبلي: «لا يَتَحَقَّقُ العَبْدُ بالتَّوْحِيدِ حَتَّى يَسْتَوْحِشَ مِنْ سِرِّهِ وَحْشَةً لظُهورِ الحَقِّ عَلَيْهِ».

وقال بعضهم: «الموحِّدُ مَنْ حَالَ اللَّهُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الدَّارَيْن جميعاً، لأنَّ الحَقَّ يَحْمِي حَرِيمَهُ. قال جل وعز: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١] فلا نردُّكُمْ إلى مَعْنًى سِوَانا في الدُّنْيا والآخِرَةِ. وعَلامةُ المُوَحِّدِ: أن لا يَجْرِي عليه ذِكْرُ إخْطَارِ ما لا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ الحَقِّ؛ فالشَّواهِدُ عَنْ سِرِّهِ مَصْروفَةٌ، والأعْوَاضُ عَنْ قَلْبِهِ مَطْرُودَةٌ، فلا شَاهِدَ يَشْهَدُهُ، ولا عِوَضَ يَعْبُدُهُ، ولا سِرَّ يُطَالِعُهُ، ولا بِرَّ يلاحِظُه، هو في حَقِّهِ عَنِ حَقِّهِ مَحْجُوبٌ، وفي حَظِّهِ عن حَظِّهِ مَسْلُوبٌ، فلا نَصيبَ له في نَصيبٍ، وهو مَأْسُورٌ في أَوْفَرِ النَّصِيبِ، والحَقُّ أَوْفَرُ نَصيب، مَنْ فَاتَهُ الحَقُّ فَلَيْسَ له شَيْءٌ وإنْ مَلَكَ الكَوْنَ، ومَنْ وَجَدَ الحَقَّ فَلَهُ كُلُّ شَيْء وإنْ لَمْ يَمْلِكْ ذَرَّةً».

معناه: هو قائم بحقه محجوب عن رؤية قيامه بحقه، وهو مسلوب عن حظوظه وهو يرى نفسه قائمة بحظوظها، ونصيبه من الحق وجود الحق وهو فيه مأسور وليس له متقدم ولا متأخر.

وأنشدونا لبعضهم:

مَوَاجِيدُ حَقٍّ أَوْجَدَ الحَقُّ كُلَّهَا ... وإنْ عَجَزَتْ عَنْهَا فُهُومُ الأكابِرِ

الباب الثاني والستون

قَوْلُهُمْ في صِفَةِ العَارِفِ

سئل الحسن بن علي بن يزدانيار[1]: متى يكون العارف بمشهد الحق؟ قال:

---

(١) مرت ترجمته ص ٢٦ حاشية ١٠.

«إِذَا بَدَا الشَّاهِدُ، وفَنِيَ الشَّواهِدُ، وذَهَبَ الحَوَاسُّ، واضْمَحَلَّ الإِخْلاصُ».

معنى بدا الشاهد: يعني شاهد الحق، وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك من برّه لك وإكرامه إياك بمعرفته وتوحيده والإيمان به، تُفْني رؤية ذلك منك رؤية أفعالك وبِرّك وطاعتك، فترى كَثِير ما منك مستغرقاً في قليلٍ ما منه، وإن كان ما منه ليس بقليل وما منك ليس بكثير.

وفناء الشواهد: بسقوط رؤية الخلق عنك بمعنى الضر والنفع والذم والمدح.

وذهاب الحواس هو معنى قوله: «فَبِي يَنْطِقُ وَبِي يُبْصِرُ»، الحديث.

ومعنى اضمحل الإخلاص: أن لا يراك مخلصاً وما خَلَصَ من أفعالك إن خلص، ولن يَخْلُصَ أبداً إذ رأيت صفتك، فإن أوصافك معلولة مثلك.

سئل ذو النون عن نهاية العارف فقال: «إِذَا كَانَ كما كَانَ حَيْثُ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ».

معناه: أن يشاهد الله وأفعاله دون شاهده وأفعاله.

قال بعضهم: «أَعْرَفُ الخَلْقِ بالله أَشَدُّ تَحَيُّراً فيهِ».

قيل لذي النون: ما أول درجة يرقاها العارف؟ فقال: «التَّحَيُّرُ، ثمَّ الافْتِقَارُ، ثمَّ الاتِّصَالُ، ثمَّ التَّحَيُّرُ».

الحيرة الأولى في أفعاله به ونعمه عنده، فلا يرى شكره يوازي نعمه، وهو يعلم أنه مطالب بشكرها، وإن شكر كان شكره نعمة يجب عليه شكرها، ولا يرى أفعاله أهلاً أن يقابله بها استحقاراً لها، ويراها واجبة عليه لا يجوز له التخلف عنها.

وقيل: قام الشبلي يوماً يصلي، فبقي طويلاً، ثم صلّى، فلما انفتل عن صلاته قال: «يا وَيْلاهُ إنْ صَلَّيْتُ جَحَدْتُ، وإنْ لَمْ أُصَلِّ كَفَرْتُ».

أي جحدت عظم النعمة وكمال الفضل، حيث قابلت ذلك بفعلي شكراً له مع حقارته.

ثم أنشد:

الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنَّنِي كَضِفْدَعٍ يَسْكُنُ فِي اليَمِّ
إِنْ هِيَ فَاهَتْ[1] مَلأَتْ فَمَهَا أَوْ سَكَتَتْ مَاتَتْ مِنَ الغَمِّ

والحيرة الأخيرة: أن يتحير في متاهات التوحيد، فيضلّ فهمه ويخنس[2] عقله في عظم قدرة الله تعالى وهيبته وجلاله.

وقد قيل: دون التوحيد متاهات تضل فيها الأفكار.

سأل أبو السوداء بعض الكبار فقال: هل للعارف وقت؟ قال: لا. فقال: لِمَ؟ قال: لأن الوقت فرجة تنفّس عن الكربة، والمعرفة أمواج تغطّ وترفع وتحطّ، فالعارف وقته أسود مظلم.

ثم قال:

شَرْطُ المَعَارِفِ مَحْوُ الكُلِّ مِنْكَ إِذَا بَدَا المُرِيدُ بِلَحْظٍ غَيْرِ مُطَّلِعِ

قال فارس: «العَارِفُ مَنْ كَانَ عِلْمُهُ حَالَةً، وكَانَتْ حَرَكَاتُهُ غَلَبَةً عَلَيْهِ».

سئل الجنيد عن العارف فقال: «لَوْنُ المَاءِ لَوْنُ الإِنَاءِ».

يعني أنه يكون في كل حال بما هو أَوْلى فيختلف أحواله، ولذلك قيل: هو ابنُ وقته.

سئل ذو النون عن العارف فقال: «كَانَ هَا هُنَا فَذَهَبَ».

يعني أنك لا تراه في وقتين بحالة واحدة، لأن مُصَرِّفَه غيرُه.

وأنشدونا لابن عطاء:

وَلَوْ نَطَقَتْ فِي أَلْسُنِ الدَّهْرِ خَبَّرَتْ بِأَنِّي فِي ثَوْبِ الصَّبَابَةِ أَرْفُلُ
ومَا إِنْ لهَا عِلْمٌ بِقَدْرِي وَمَوْضِعِي ومَا ذَاكَ مَوْهُومٌ لأنِّي أَنْقُلُ

---

(١) فاهت: فتحت فمها.

(٢) الخنوس: الانقباض والاستخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿من شرّ الوسواس الخنّاس﴾، ومنه الخُنَّس: مأوى الظباء، والخُنَّس: الظباء نفسها. (لسان العرب مادة خنس).

وقال سهل بن عبد الله: «أَوَّلُ مَقَامٍ فِي المَعْرِفَةِ أَنْ يُعْطَى العَبْدُ يَقِيناً فِي سِرِّهِ تَسْكُنُ به جَوَارِحُهُ، وتَوكُّلاً في جَوَارِحِهِ يَسْلَمُ بِهِ فِي دُنْيَاهُ، وحَيَاةً فِي قَلْبِهِ يَفُوزُ بها في عُقْبَاهُ».

قلنا: العارف هو الذي بذل مجهوده فيما لله، وتحقق معرفته بما مَنَّ الله، وصح رجوعه من الأشياء إلى الله.

قال الله تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

يجوز أن يكون ما عرفوا من الله من برّه وإحسانه بقَصْده إليهم وإقباله عليهم واختصاصه إياهم من بين ذويهم.

كما قال أبيّ بن كعب حين قال له النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ». فقال: يا رسول الله أَوَ ذُكِرْتُ هناك؟ قال: «نَعَمْ». فبكى أبيّ[(١)].

لم ير حالاً يقابله بها، ولا شكراً يوازي نعمه، ولا ذكراً كما يستحقه، فانقطع، فبكى.

وقال النبي ﷺ لحارثة: «عَرَفْتَ فَالْزَمْ»[(٢)]. نسبه إلى المعرفة وألزمه إياها ولم يدلّه على عمل.

سئل ذو النون عن العارف فقال: «هُوَ رَجُلٌ مَعَهُمْ، بَايَنَ عَنْهُمْ».

---

(١) الحديث رواه البخاري في تفسير سورة ٩٨، وفي مناقب الأنصار باب ١٦. ورواه مسلم في فضائل الصحابة حديث ١٢٢ و١٢٣، رفي صلاة المسافرين وقصرها حديث ٢٤٥ و٢٤٦. والترمذي في المناقب باب ٣٢، والإمام أحمد في المسند (ج ٣ ص ١٣٠، ١٣٧، ١٨٥، ٢١٨، ٢٣٣، ٢٧٣، ٢٨٤).

(٢) في حلية الأولياء (ج ١ ص ٢٤٢) أنه ﷺ قال ذلك لمعاذ بن جبل. وروى الحديث عن أنس بن مالك أن معاذ بن جبل رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ فقال: «كيف أصبحت يا معاذ؟» قال: أصبحت مؤمناً بالله تعالى. قال: «إن لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟»، قال: يا نبي الله ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى؛ وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيّها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة. قال: «عرفت فالزم».

قال سهل: «أَهْلُ المَعْرِفَةِ بالله كأَصْحَابِ الأَعْرَافِ، يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، أَقَامَهُمْ مَقَاماً أَشْرَف بِهِمْ على الدَّارَيْنِ، وعَرَّفَهُمْ المُلْكَيْنِ».

أنشدونا لبعضهم:

يَا لَهْفَ نَفْسِي على قَوْمٍ مَضَوْا فَقَضَوْا ... لم أَقْضِ مِنْهُمْ وإنْ طَاوَلْتُهُمْ وَطَرِي
هُمُ المَخَافِيتُ في كِبْسِ المُلُوكِ إذَا ... أَبْصَرْتَهُمْ قُلْتَ أَضْمَارٌ بِلا صُوَرِ

الباب الثالث والستون

قَوْلُهُمْ في المُرِيدِ والمُرَادِ

المريد مراد في الحقيقة، والمراد مريد؛ لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله عز وجل تقدمت له. قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٧].

فكانت إرادتُه لهم سببَ إرادتهم له، إذ علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد، فجعل المريد مراداً والمراد مريداً؛ غير أن المريد هو الذي سبق اجتهادُه كشوفَه، والمراد هو الذي سبق كشوفُه اجتهادَه.

فالمريد هو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهو الذي يريده الله تعالى، فيقبل بقلبه، ويحدث فيه لطفاً يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له، ثم يكاشفه الأحوال.

كما قال حارثة: «عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وأَسْهَرْتُ لَيْلِي» ثم قال: «وكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً».

فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا.

والمراد: هو الذي يجذبه الحق جذبة القدرة، ويكاشفه بالأحوال، فيثير قوة الشهود منه اجتهاداً فيه وإقبالاً عليه وتحملاً لأثقاله.

كسحرة فرعون: لما كوشفوا بالحال في الوقت، سهل عليهم تحمل ما توعدهم

به فرعون فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ على ما جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فاقْضِ ما أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

وكما فعل بعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أقبل يريد قتل رسول الله، فأَسَرَهُ الحقُّ في سبيله.

وكقصة إبراهيم بن أدهم: خرج يطلب الصيد متلهّياً، فنودي: ما لهذا خُلقتَ، ولا بهذا أُمرتَ ـ مرتين ـ ونودي في الثالثة من قَرَبُوسِ[1] سَرْجه، فقال: واللَّهِ لا عصيتُ الله بعد يومي هذا ما عصمني ربّي.

هذه جذبة القدرة: كوشفوا بالأحوال، فأسقطوا عن النفوس والأموال.

أنشدني الفقيه أبو عبد الله البرقي لنفسه:

مُـريـدٌ صَـفَـا مِـنْـهُ سِـرٌّ الـفُـؤا دِ فَـهَـامَ بِـهِ الـسِّـرُّ فـي كُـلِّ وادْ
فَـفـي أيِّ وَادٍ سَـعَـى لَـمْ يَـجِـدْ لَـهُ مَـلْجَـأً غَـيْـرَ مَـوْلَى الـعِـبَـادْ
صَـفَـا بـالـوَفَـاءِ وفَى بـالـصَّـفَـا ونُـورُ الـصَّـفـاءِ سِـرَاجُ الـفُـؤادْ
أَرَادَ وَمَـا كَـانَ حَـتَّـى أُرِيـد فَـطُـوبَـى لَـهُ مِـنْ مُـرِيـدٍ مُـرَادْ

الباب الرابع والستون

قَوْلُهُمْ في المُجَاهَدَاتِ والمُعَامَلاتِ

قال بعض الكبراء: «التَّعَبُّدُ إِتْيَانُ ما وَظَّفَ اللَّهُ عَلَى شَرْطِ الوَاجِبِ».

وشرط الواجب: الإتيان به على غير مطالبة عوض وإن شهدته فضلاً، بل يستوفيك عن رؤية الفضل.

والعوض: ما لله عليك في العمل في قوله: ﴿إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، قال: ليعبدوه بالرق لا بالطمع.

---

(١) القَرَبُوس: حِنْوُ السرج، والقُرْبُوس لغة فيه. (انظر اللسان: مادة قربس).

قيل لأبي بكر الواسطي: بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركات ما يسعى؟

قال: بشاهد الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره.

قال أبو عبد الله النباجي: «اسْتِحْلاءُ الطَّاعَةِ ثَمَرَةُ الوَحْشَةِ عَنِ الحَقِّ جَلَّ وَعَزَّ، إذ لا يُوَاصِلُ الحَقُّ بها ولا يُفَاصِلُ، ولا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا اعْتِمَادَ مُعَوِّلٍ، ولا يَتْرُكُها تَرْكَ مُعَانِدٍ، بَلْ يُقِيمُ وَظَائفَ الحَقِّ رِقّاً وعُبُودِيَّةً، ويَكُونُ الاعْتِمَادُ عَلى ما في الأَزَلِ».

يريد باستحلاء الطاعة رؤيتها من نفسك، دون مشاهدة فضل الله عليك في التوفيق في قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] قال: أكبر من أن تبلغه أفهامكم، وتحويه عقولكم، ويجري على ألسنتكم.

وحقيقة الذكر هو نسيان ما سواه فيه، لقوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[1] [الكهف: ٢٥]، وفي قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] أي الخالية عن ذكر الله، لتعلموا أنكم بفضله نلتم لا بأعمالكم.

قال أبو بكر القحطبي: «نُفُوسُ المُوَحِّدِينَ نُفُوسٌ سَئِمَتْ مِنْ جَمِيعِ ما ظَهَرَ مِنْ نُعُوتِهَا وَصِفَاتِهَا، وَاسْتَقْبَحَتْ كُلَّ بَادٍ بَدَا مِنْها، وَانْقَطَعَتْ عَنِ الشَّوَاهِدِ والعَوَائِدِ والفَوَائِدِ، وعَجِزَتْ عَنْ إِظْهارِ الدَّعْوَى بَيْنَ يَدَيْهِ لَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠].

الشواهدُ الخلقُ، والعوائدُ الأعواضُ، والفوائدُ الأعراضُ.

قال أبو بكر الواسطي: «مَعْنَى التَّكْبِيرِ في الصَّلاةِ كَأَنَّكَ تَقُولُ جَلَلْتَ عَنْ أَنْ تُوَاصِلَ بها، أَوْ تُفَاصِلَ بِتَرْكِهَا، إِذِ الفَصْلُ والوَصْلُ لَيْسَ بِحَرَكَاتٍ بَلْ هُوَ بما سَبَقَ في الأزَلِ».

قال الجنيد: «لا يَكُونَنَّ هَمُّكَ في صَلاتِكَ إِقَامَتَها دُونَ الفَرَحِ والسُّرُورِ بالاتِّصَالِ بِمَنْ لا وَسِيلَةَ إِلَيْهِ إِلاَّ بِهِ».

---

(١) الاستشهاد بهذه الآية الكريمة لا يتفق مع ما يرمي إليه المصنف.

قال ابن عطاء: «لَا يَكُونَنَّ هَمُّكَ فِي صَلاتِكَ إِقَامَتَها دُونَ الهَيْبَةِ والإجْلَالِ لِمَنْ رآكَ فِيهَا».

وقال غيره: «مَعْنَى الصَّلاة التَّجْرِيدُ عَنِ العَلائِقِ والتَّفْرِيدُ بالحَقَائِقِ».

والعلائق: ما سوى الله، والحقائق: مَا لله ومِنَ الله.

وقال آخر: «الصَّلاةُ وَصْلٌ».

قال: سمعت فارساً يقول: مَعْنَى الصَّوْمِ الغَيْبَةُ عَنْ رُؤْيَةِ الخَلْقِ برُؤْيَةِ الحَقِّ عَزَّ وجَل، لقوله تعالى في قصة مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ للرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنْسِيّاً﴾[1] [مريم: ٢٦].

قال: لغيبتي عنهم برؤية الحق، فلا أستجيز في صومي أن يشغلني عنه شاغل أو يقطعني قاطع.

يدل على قول النبي ﷺ: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»، أي حجاب عما دون الله في قوله تعالى: الصَّوْمُ لي وأَنَا أَجْزِي بِهِ»[2].

قال بعض الكبار: أي أنا الجزاء به.

وقال أبو الحسن بن أبي ذر: أي معرفتي هي الجزاء له به؛ قال: وحسبه ذلك جزاء فما يبلغها شيء ولا يدانيها.

سمعت أبا الحسن الحسني الهمداني يقول: معنى قوله: «الصَّوْمُ لي»، كي ينقطع الأطماع عنه: طمع العدو أن يفسده؛ لأن ما لله فلا يطمع فيه العدو. وطمع النفس أن تعجب به، فإنها إنما تعجب بما لها. وطمع الخصوم في الآخرة فإنهم يأخذون ما للعبد دون ما لله. هذا معنى ما فهمت من قوله.

قال بعضهم: «جَهْدُ البَلاءِ النَّظَرُ إلى النُّفُوسِ، والاعْتِمَادُ على الأَفْعَالِ؛ فإنْ وُكِلَ إِلَيْها فَهُو دَرَكُ الشَّقَاءِ، وفي دَرَكِ الشَّقَاءِ شَمَاتَةُ الأعْدَاءِ».

---

(١) الاستشهاد بهذه الآية الكريمة فيه بعض التكلف.

(٢) حديث قدسي طويل في الصحيحين وفي مسند أحمد وغيرها بأسانيد وروايات مختلفة.

أنشدونا للنوري :

أَقُـولُ أَكَـادُ الـيَـوْمَ أَنْ أَبْلُغَ المَـدَى ... فَـيَـبْـعُـدُ عَنِّي ما أَقُـولُ أَكَـادُ
فَمـا لِي بِجِـهـادٌ غَيْـرَ أَنِّي مُقَصِّـرٌ ... وَعَجْـزِيَ عَنْ طُـولِ الجِهَـادِ جِهَـادُ
وإِنَّ رَجَـائي عَـوْدَةٌ مِنْـكَ بـالـرِّضـا ... وإِلَّا فَـحَـظِّيَ فـي الـمَـعَـادِ بِـعَـادُ

وأنشدونا لغيره :

هَبْنِي أُرَاعِيكَ بـالأَذْكَـارِ مُلْتَمِسـاً ... مـا يَبْتَغِيـهِ ذَوُو التَّلْوِينِ بـالغِيَرِ
فَكَيفَ لِي بِشُهُـودٍ مِنْـكَ يَحْمِلُنـي ... عَنْ فِتْنَةِ الوَقْتِ بَلْ عَنْ حَجْبَةِ الأَثَرِ

يقول : إن طالعت في أفعالي ومجاهداتي ثوابك عليها، وهو الذي يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات، فكيف أطالع شهود ما يحملني عن خوف العاقبة من تغيير الأحوال والأوقات وعن النظر إلى حركاتي ومجاهداتي وهي التي تحجبني عنك؟

الباب الخامس والستون

حَالُهُمْ في الكَلامِ على النَاسِ (١)

قيل للنوري : متى يستحق الإنسان الكلام على الناس؟

قال : «إِذَا فَهِمَ عَنِ الله جَلَّ جَلالُهُ صَلُحَ أَنْ يُفَهِّمَ عباد الله، وإِذَا لم يَفْهَمْ عَنِ الله كانَ بَلاؤُهُ عَامّاً في بِلادِهِ وعلى عِبَادِهِ»

قال السريُّ السقطيّ : «إِنِّي أَذْكُرُ مَجِيءَ النَّاسِ إليَّ، فأقُولُ اللّهُمَّ هَبْ لَهُمْ مِنَ العِلْمِ مَا يَشْغَلُهُمْ عَنّي، فإِنّي لا أُحِبُّ مَجِيئَهُمْ إِليَّ».

قال سهل بن عبد الله : «أَنا مُنْذُ ثَلاثِينَ سَنَةً أُكَلِّمُ اللَّهَ، والنَّاسُ يَتَوَهَّمُونَ أَنّي أُكَلِّمُهُمْ».

قال الجنيد للشبلي : نحن حَبَّرْنا هذا العلم تَحْبِيراً، ثم خبأناه في السراديب،

---

(١) يعني بالكلام على الناس تدريس العلم لهم ودعوتهم إلى الله تعالى.

فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ.

فقال: أنا أقول، وأنا أسمع، فهل في الدَّارَيْن غيري؟[1].

وقال بعض الكبار للجنيد وهو يتكلم على الناس: يا أبا القاسم إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانك وإلا فانزل.

فقام الجنيد ولم يتكلم على الناس شهرين، ثم خرج فقال: لولا أنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَكُونُ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْذَلَهُمْ» ما خَرجتُ إليكم.

وقال الجنيد: «مَا تَكَلَّمْتُ على النَّاسِ حَتَّى أَشَارَ إِلَيَّ وعليَّ ثَلاثُونَ مِنَ البُدَلاءِ[2]: إِنَّكَ تَصْلُحُ أَنْ تَدْعُوَ إلى الله عزّ وجل».

وقيل لبعض الكبار: لم لا تتكلم؟

فقال: هذا علم قد أدبر وتولَّى، والمقبل على المدبرِ أَدْبَرُ من المدبر.

قال أبو منصور البنجخيني لأبي القاسم الحكيم: بأي نية أتكلم على الناس؟

فقال: لا أعلم للمعصية نية غير الترك.

واستأذن أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازي، أبا حفص الحداد، وكان تلميذه، في الكلام على الناس، فقال له أبو حفص: وما يدعوك إليه؟

فقال أبو عثمان: الشفقة عليهم، والنصيحة لهم.

فقال: وما بلغ من شفقتك عليهم؟

فقال: لو علمت أن الله يعذبني بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة، وجدت من قلبي الرضا به.

---

(١) هذا والذي قبله يندرج في دائرة الشطح.

(٢) قال القاشاني: البدلاء هم سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك فيه جسداً على صورته بحيث لا يعرف أحد أنه فقد؛ وذلك معنى البدل لا غير، وهم على قلب إبراهيم عليه السلام. (انظر اصطلاحات الصوفية: ص ٣٦).

فأذن له، وشهد أبو حفص مجلسه، فلما قضى أبو عثمان كلامه، قام سائل، فسبق أبو عثمان، فأعطاه ثوباً كان عليه.

فقال أبو حفص: يا كذاب، إياك أن تتكلم على الناس وفيك هذا الشيء!

فقال أبو عثمان: وما ذاك يا أستاذ؟

قال: أما كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم على نفسك بثواب السبق، ثم تتلوهم؟

سمعت فارساً يقول، سمعت أبا عمرو الأنماطي يقول: كنا عند الجنيد، إذ مرّ به النوري، فسلم، فقال له الجنيد وعليك السلام يا أمير القلوب، تكلم!

فقال النوري: يا أبا القاسم غششتَهُم فأجلسوك على المنابر ونصحتُهم فرموني في المزابل.

فقال الجنيد: ما رأيت قلبي أحزن منه في ذلك الوقت.

ثم خرج علينا في الجمعة الأخرى فقال: إذا رأيتم الصوفي يتكلم على الناس فاعلموا أنه فارغ.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ [النساء: ٦٣]، قال: على مقدار فهومهم ومبلغ عقولهم.

وقال غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]، أي لو نطق بالمواجيد على أهل الرسوم[١]، يدل عليه قوله: ﴿بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولم يقل بلّغ ما تعرفنا به إليك.

رأى الحسين المغازلي رويم بن محمد وهو يتكلم على الناس في الفقر، فوقف عليه وقال:

وَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَّالاً

---

(١) هذا التفسير متكلف لا علاقة له بالسياق.

ألا ابْتَغَيْتَ بِمَا حَلَّيْتَ هَذَا السَّيْفَ خُلْخَالاَ

عبّر بعبارته عن حال ليس هو فيها.

قال بعض الكبار: من تكلم عن غير معناه فقد تحمَّر في دعواه، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥].

الباب السادس والستون

في تَوَقِّي القَوْمِ ومُجَاهَدَاتِهِمْ

ورث حارث المحاسبي من أبيه أكثر من ثلاثين ألف دينار، فلم يأخذ منه شيئاً، وقال: إنه كان يرى القَدَر.

قال أبو عثمان: كنّا في دار أبي بكر بن أبي حنيفة مع أبي حفص، فجرى ذكر صديق غائب عنّا، فقال أبو حفص: لو كان عندنا كاغِدٌ[1] كتبنا إليه. فقلت: ها هنا كاغدٌ. وكان أبو بكر قد خرج إلى السوق. فقال أبو حفص: لعل أبا بكر قد مات ولم نعلم وصار الكاغد للورثة. فترك الكتاب.

وقال أبو عثمان: كنت عند أبي حفص وبين يديه زبيب، فأخذت زبيبة ووضعتها في فمي، فأخذ بحلقي وقال: يا خائن، تأكل زبيبتي؟ فقلت: لثقتي بزهادتك في الدنيا وعلمي بإيثارك أخذت الزبيبة، فقال: يا جاهل تثق بقلب لا يملكه صاحبه؟!

سمعت كثيراً من مشايخنا يقولون: كان الشيوخ يهجرون الفقير لثلاث:

إذا حج عن غيره بمال، وإذا أتى خُرَاسان، وإذا دخل اليمن.

فقالوا: من أتى خراسان لم يأته إلا للرفق وليس بها مباح، فيطيب مطعمه.

وأما اليمن: ففيه طرق إلى الفسق كثيرة.

وكان أبو المغيث لا يستند ولا ينام على جنبه، وكان يقوم الليل، وإذا غلبته عينه

(١) الكاغد (بفتح الغين وبكسرها): القرطاس، معرّب.

قعد ووضع جبينه على ركبته فيخفو غفوة. فقيل له: ارفق بنفسك! فقال: والله ما رفق الرفيق بي رفقاً فرحت به، أما سمعت سيد المرسلين يقول: «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَل**»[1]؟

قالوا: إن أبا عمرو الزجاجي أقام بمكة سنين كثيرة لم يحدث في الحرم، كان يخرج من الحرم للحدث، ثم يعود إليه وهو على الطهارة.

قال: سمعت فارساً يقول: كان أبو عبد الله المعروف بشكتل لا يكلم الناس، وكان يأوي إلى الخرابات في سواد الكوفة، وكان لا يأكل إلا المباح والقمامات، فلقيته يوماً فتعلقت به، وقلت: سألتك بالله ألا أخبرتني ما الذي منعك عن الكلام.

فقال: يا هذا، الكون توهم في الحقيقة ولا تصح العبارة عما لا حقيقة له والحق تقصر عنه الأقوال دونه، فما وجه الكلام؟ وتركني ومرّ.

قال: وسمعته يقول: سمعت الحسين المغازلي يقول: رأيت عبد الله القشّاع ليلة قائماً على شط دجلة، وهو يقول: يا سيدي أنا عطشان، يا سيدي أنا عطشان! حتى أصبح فلما أصبح قال: يا ويلتى، تُبيح لي شيئاً وتَحُولُ بيني وبينه، وتحظر عليّ شيئاً وتخلّي بيني وبينه، فأيش أصنع؟ ورجع ولم يشرب منه.

وسمعته يقول: سمعت بعض الفقراء قال: كنت سنة الهَبِيرِ[2] مع الناس، فانفلتُّ ثم رجعتُ، فكنتُ أطوف بين الجرحى، قال: فرأيت أبا محمد الجريري، وكان قد نيّف على المائة، فقلت: يا شيخ، ألا تدعو فيكشف ما ترى؟

قال: قد فعلتُ، قال: إني أفعل ما أشاء. فأعدت عليه، فقال: يا أخي ليس هذا وقتُ الدعاء، هذا وقتُ الرضا والتسليم.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد باب ٥٧، وابن ماجة في الفتن باب ٢٣، والدارمي في الرقاق باب ٦٧، والإمام أحمد في المسند (١/١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥).

(٢) الهبير: رمل زرود في طريق مكة كان عنده وقعة ابن أبي سعيد الجنّابي القرمطي بالحاج يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ٣١٢، قتلهم وسباهم وأخذ أموالهم. (معجم البلدان: ج ٥ ص ٤٥٠).

فقلت: ألك حاجة؟

فقال: أنا عطشان.

فجئته بماء، فأخذه وأراد أن يشرب، فنظر إليّ فقال: هؤلاء عطاش وأنا أشرب! هذا شَرَهٌ، فردّه عليّ ومات من ساعته.

قال: وسمعته يقول: سمعت بعض أصحاب الجريري يقول: مكثت عشرين سنة لا يخطر لي ذكر طعام حتى يحضر، ومكثت عشرين سنة أصلّي الفجر على طهور العشاء الآخرة، ومكثت عشرين سنة لا أعقد مع الله عقداً مخافة أن يكذبني على لساني، ومكثت عشرين سنة لا يسمع لساني إلا من قلبي، ثم حالت الحال، فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبي إلا من لساني.

معنى قوله: «لا يسمع لساني إلا من قلبي»، أي لا أقول إلا من حقيقة ما أنا عليه، وقوله: «لا يسمع قلبي إلا من لساني»، أي حفظ عليّ لساني، لما قال[1]: «**فَبِي يَسْمَعُ وبِي يُبْصِرُ وبِي يَنْطِقُ**».

قال: وسمعت بعض مشايخنا يقول: سمعت محمد بن سعدان يقول: خدمت أبا المغيث عشرين سنة، فما رأيته أسف على شيء فاته أو طلب شيئاً فقده.

وقيل: إن أبا السوداء وقف ستين وقفة.

وجعفر بن محمد الخلدي وقف خمسين وقفة.

وكان بعض المشايخ ـ وأكثر ظنّي أنه أبو حمزة الخراساني[2] ـ حج عشر حجج عن النبي ﷺ، وحج عن العشرة من أصحاب النبي ﷺ عشر حجج، ثم حج عن نفسه حجة، يتوسل بتلك الحجج إلى الله في قبول حجته.

---

(١) سبحانه وتعالى في الحديث القدسي. وقد مرّ.

(٢) قال الشعراني: يقال إن أصله من نيسابور من محلّة ملقاباذ. صحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد، وسافر مع أبي تراب النخشبي وأبي سعيد الخراز. وكان من أفتى المشايخ وأديبهم وأورعهم. مات سنة ٣٠٩.

الباب السابع والستون

في لَطَائِفِ الله للقَوْم وَتَنْبِيهِهِ إِيَّاهُمْ بالهَاتِف

قال أبو سعيد الخزاز: «بَيْنا أَنَا عَشِيَّةَ عَرَفَة، قَطَعَنِي قُرْبُ الله عز وجل عَنْ سُؤَالِ الله، ثم نَازَعَتْنِي نَفْسِي بِأَنْ أَسْأَلَ الله تعالى، فَسَمِعْتُ هَاتِفاً يقول: أَبَعْد وُجُودِ الله تَسْأَلُ الله غَيْرَ الله[1]!

قال أبو حمزة الخراساني: حججت سَنَةً مِنَ السّنين، فكنت أمشي، فوقعت في بئر، فنازَعَتْني نفسي بأن أستغيث، فقلت: لا والله لا أَسْتَغِيثُ! فما اسْتَتَمَمْتُ هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نطمّ[2] رأس هذا البئر من الطريق. فأتوا بقصب وبارية، وهممتُ أن أصيح، ثم قلت: يا من هو أقرب إليّ منهما! وسكت حتى طَمّوا ومضوا، فإذا أنا بشيء قد تدلّى برجليه في البئر وهو يقول: تعلّق بي! فتعلقتُ به، فإذا هو سبع، وإذا هاتف يهتف بي ويقول لي: يا أبا حمزة، هذا حسن، نجيناك من التلف في البئر بالسبع!

قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: قال أبو الوليد السقّاء: قدّم إليّ أصحابنا يوماً لبناً، فقلت: هذا يضرّني. فلما كان يوم من الأيام دعوت الله تعالى، فقلت: اللهم اغفر لي، فإنك تعلم أني ما أشركت بك طرفة عين! فسمعتُ هاتفاً يهتف بي ويقول: ولا ليلة اللبن؟.

قال أبو سعيد الخزاز: كنت في البادية، فنالني جوع شديد، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعاماً، فقلت: ليس هذا من فعل المتوكّلين، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله صبراً، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يقول:

وَيَــزْعَــمُ أَنَّــهُ مِــنَّــا قَــرِيــبٌ   وأَنَّــا لا نُــضَــيِّــعُ مَــنْ أَتَــانَــا

---

(١) قال تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾.

(٢) أي ندفن.

وَيَسْأَلُنَا القُوَى عَجْزاً وَضَعْفاً كَأَنَّا لا نَرَاهُ ولا يَرَانَا

ويشهد لصحة حال الهاتف، ما حدثنا محمد بن محمد بن محمود قال: حا[1] نصر بن زكريا، حا عمار بن الحسن، حا سلمة بن الفضل، حا محمد بن إسحاق، عن يحيى ابن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عن عائشة قالت: «لما أرادوا غسل النبي ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري أنجرّد رسول الله من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا، ألقى الله عليهم السِّنَةَ[2]، حتى ما بقي منهم أحد إلا وذقنه في صدره. ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغْسِلُوا النبيَّ وعليه ثيابه»[3].

الباب الثامن والستون

تَنْبِيهُهُ إياهُمْ بالفِرَاسَاتِ

قال العباس بن المهتدي[4]: كنت في البادية، فرأيت رجلاً يمشي بين يدي حافي القدم حاسر الرأس، ليس معه ركوة، فقلت في نفسي: كيف يصلّي هذا الرجل؟ ما لهذا طهارة ولا صلاة! قال: فالتَفَتَ إليَّ فقال: ﴿يَعْلَمُ ما في أَنْفُسِكُمْ فاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، قال: فسقطتُ مغشياً عليّ، قال: فلما أفقت استغفرت الله من تلك الرؤية التي نظرت بها إليه، فبينا أنا أمشي في بعض الطريق، فإذا هو بين يدي، فلما رأيته هِبْتُهُ وتوقفت، فالتفت إليّ ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، قال: ثم غاب فما رأيته بعد ذلك. أو كما قال.

سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: قال لي أبو الحسن المزين[5]: دخلت البادية وحدي على التجريد، فلما بلغت العمق، قعدت على شفير البركة، فحدثتني

---

(١) رمز عن حدثنا.

(٢) السِّنة: النعاس.

(٣) رواه أبو داود في سننه باب ستر الميت عند غسله بسنده إلى عائشة.

(٤) قال ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/٣٠١): عباس بن المهتدي من بغداد، كنيته أبو الفضل. يرجع إلى فتوة ظاهرة وفراسة حادة وحبٍّ للفقراء وميل إليهم. دخل مصر وصحب فيها أبا سعيد الخراز.

(٥) أبو الحسن علي بن محمد المزين. أصله من بغداد ولكنه أقام بمكة. صحب الجنيد وسهل بن عبد الله، وأقام بمكة مجاوراً حتى توفي بها سنة ٣٢٨. (صفة الصفوة: ٢/١٧٥)

نفسي بقطعها البادية على التجريد ودخلها شيء من العجب، فإذا أنا بالكتّاني ـ أو غيره، الشك مني ـ من وراء البركة، فناداني: يا حجّام، إلى كم تحدثك نفسك بالأباطيل؟.

ويروى أنه قال له: يا حجام احفظ قلبك ولا تحدث نفسك الأباطيل.

وقال ذو النون: رأيت فتًى عليه أطمار رثة فتقذّرَتْهُ نفسي وشهد له قلبي بالولاية، فبقيتُ بين نفسي وقلبي أتفكر، فاطّلع الفتى على سرّي، فنظر إليَّ فقال: يا ذا النون، لا تبصرني لكي ترى خِلقي، وإنما الدّر داخل الصدف! ثم ولّى وهو يقول:

تِهْتُ عَلَى أَهْلِ ذَا الزَّمَانِ فَمَا أَرْفَعُ مِنْهُمْ لِوَاجِدٍ رَاسَا
ذَاكَ لأنّي فَتًى أَخُو فِطَنٍ أَعْرِفُ نَفْسِي وأَعْرِفُ النَّاسَا
فَصِرْتُ حُرّاً مُمَلَّكاً مَلِكاً مُدَّرِعاً بِالقُنُوعِ لِبَاسَا

ويشهد لصحة الفراسة ما حدثنا أحمد بن علي قال: حا ثواب بن يزيد الموصلي، حا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حا أبو صالح كاتب الليث، حا معاوية بن صالح عن راشد بن سعيد، عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله»[1].

الباب التاسع والستون

تَنْبِيهُهُ إِيَّاهُمْ بِالخَوَاطِرِ

قال أبو بكر بن مجاهد المقرىء: قدم أبو عمرو بن العلاء يوماً ليصلّي بالناس وما كان يؤم فيقدم اضطراراً، فلما تقدم قال للناس: استووا! فغشي عليه، فلم يفق إلا بالغد، فقيل له في ذلك، فقال: وقت ما قلت لكم استووا، وقع في قلبي خاطر من الله تعالى كأنه يقول لي: يا عبدي، هل استويتَ لي قط طرفة عين حتى تقول لخلقي استووا؟

قال الجنيد: «مَرِضْتُ مَرْضَةً فَسَأَلْتُ الله أَنْ يُعَافِيَنِي، فقال لي في سِرّي: لا تَدْخلْ بيني وبين نفسك».

---

(١) رواه من حديث أبي سعيد الخدري الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ١٦، حديث رقم ٣١٢٧.

قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: سمعت محمد بن سعدان يقول: سمعت بعض الكبراء يقول: «رُبَّمَا أغْفُو غَفْوَةً فأُنَادَى: أتنام عنّي؟ إنْ نِمْتَ عَنّي لأَضْرِبَنَّكَ بالسِّيَاط».

الباب السبعون

تَنْبِيهُهُ إيَّاهُمْ في الرُّؤيَا وَلَطَائِفِهَا

قال: سمعت أبا بكر محمد بن غالب يقول: سمعت محمد بن خفيف يقول: سمعت أبا بكر محمد بن علي الكتاني يقول: رأيت رسول الله في عادتي - فكانت العادة قد جرت له أنه كان يرى النبي ﷺ كل ليلة اثنين وخميس، فيسأله مسائل، فيجيبه عنها - قال: فرأيته قد أقبل عليّ، ومعه أربعة نفر، فقال لي: يا أبا بكر، أتعرف من هذا؟ قلت: نعم، هو أبو بكر. ثم قال لي: أتعرف هذا؟ قلت: نعم، هو عمر. ثم قال: أتعرف هذا؟ قلت: نعم، هو عثمان. ثم قال لي: أتعرف هذا الرابع؟ فتوقفت ولم أجب، فأعاد عليّ ثانياً، فتوقفت، فأعاد عليّ ثالثاً، فتوقفت، وكأنّ في قلبي منه غيرة، قال: فجمع كفه وأشار بها إليّ، ثم بسطها وضرب بها صدري، وقال لي: يا أبا بكر، قل: هذا عليّ بن أبي طالب. فقلت: يا رسول الله، هذا عليّ بن أبي طالب. قال: فآخى عليه السلام بيني وبين علي رضي الله عنه. قال: ثم أخذ عليّ رضي الله عنه بيدي، وقال لي: يا أبا بكر، قم حتى تخرج إلى الصفا! فخرجت معه إلى الصفا، وكنت نائماً في حجرتي، فاستيقظت، فإذا أنا على الصفا.

قال: سمعت منصور بن عبد الله قال: سمعت أبا عبد الله بن الجلاّء يقول: دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبي شيء من الفاقة، فتقدمت إلى القبر وسلمت على النبي ﷺ وعلى ضجيعيه: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم قلت: يا رسول الله بي فاقة، وأنا ضيفك الليلة! ثم تنحيت ونمت بين القبر والمنبر، فإذا أنا بالنبي عليه السلام جاءني ودفع إليّ رغيفاً، فأكلت نصفه، فانتبهت، فإذا في يدي نصف الرغيف.

قال يوسف بن الحسين: كان عندنا شاب من أهل الإرادة أقبل على الحديث وقصر في قراءة القرآن، فأُتي في منامه، فقيل له: إن لم تكن بي جافياً فلم هجرت كتابي، أما تدبرت ما فيه من لطيف خطابي؟

يشهد بصحة الرؤيا ما حدثنا علي بن الحسين بن أحمد السرخسي إمام جامعها، حا أبو الوليد محمد بن إدريس السلمي، حا سويد، حا محمد بن عمرو بن صالح بن مسعود الكلاعي، عن الحسن البصري قال: دخلت مسجد البصرة، فإذا رهط من أصحابنا جلوس، فجلست إليهم، فإذا هم يذكرون رجلاً يغتابونه، فنهيتهم عن ذكره، وحدثتهم بأحاديث في الغيبة بلغتني عن رسول الله ﷺ وعن عيسى ابن مريم عليه السلام، فأمسك القوم وأخذوا في حديث آخر. ثم عرض ذكر ذلك الرجل، فتناولوه وتناولته معهم، فانصرفوا إلى رحالهم وانصرفت إلى رَحْلي، فنمت، فأتاني آت في منامي أَسْوَدُ في يده طبق من خلاف[1]، وعليه قطعة من لحم خنزير، فقال لي: كُلْ! قلت: لا آكل، هذا لحم خنزير. قال: كُلْ! قلت: لا آكل، هذا لحم خنزير، هذا حرام. قال: لتأكلنّه! فأبيت عليه، ففكّ لحييّ[2] ووضعها في فمي، فجعلت ألوكها وهو قائم بين يدي، فجعلت أخاف أن ألقيها وأخاف أن أَسْتَرِطَها[3]، فاستيقظت على تلك الحال، فوالله لقد لبثت ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة ما ينفعني طعام أطعمه ولا شراب أشربه إلا وجدت طعمها في فمي وريحها في منخري!

الباب الحادي والسبعون

لَطَائِفُ الحَقِّ بِهِمْ في غِيرَتِهِ عَلَيْهِمْ

دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى، فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلّتي سبباً، غير أني عُرِضَتْ عليَّ الجنة، فملت بقلبي إليها، فأحسب أن

---

(١) الخلاف: الصفصاف.

(٢) اللحي منبت اللحية، وهما لحيان، يريد أنه فتح فمه بالقوّة.

(٣) أبتلعها.

مولاي غار علي، فعاتبني، فله العُتْبى.

قال الجنيد: دخلت على السريّ السقطي فرأيت عنده خزف كوز مكسور فقلت: ما هذا؟ قال: جاءتني الصبية البارحة بكوز فيه ماء، فقالت لي: يا أبت، هذا الكوز معلق ههنا فإذا برد فاشربه فإنها ليلة غمة! فغلبتني عيني، فرأيت جارية من أحسن الجواري دخلت عليّ، فقلت: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، وضربت بيدها إلى الكوز، فانكسر وهو الذي ترى، فما زال الخزف مكانه لم يحركه حتى ستره الغبار.

قال المزيّن: أقمت في بعض المنازل بالبادية سبعة أيام لم أطعم شيئاً، فأضافني رجل في منزله، فقدم إلي تمراً وخبزاً، فلم أقدر على أكله، فلما كان الليل اشتهيته، فأخذت نواة أعالج بها فتح فمي، فضربت النواة سنّي، فقالت صبية من البيت: يا أبي كم يأكل ضيفنا الليلة؟ فقلت: يا سيدي جوع سبعة أيام، ثم تنغّص عليّ، وعزتك لا ذقتُه!!

قال أحمد بن السمين: كنت أمشي في طريق مكة، فإذا أنا برجل يصيح أغثني يا رجل، الله، الله!

قلت: ما لك، ما لك؟

قال: خذ مني هذه الدراهم، فإني ما أقدر أن أذكر الله وهي معي! فأخذتها منه، فصاح: لبيك اللهم لبيك! وكانت أربعة عشر درهماً.

قيل لأبي الخير الأقطع: ما كان سبب قطع يدك؟ قال: كنت في جبل لكام - أو لبنان - ومعي رفيق لي، فجاء رجل من بني السلاطين ومعه دنانير يفرقها، فناولني منها ديناراً، فمددت إليه ظهر كفي فوضع عليها ديناراً، فقلبته يدي في حجر رفيقي وقمت، فلما كان بعد ساعة إذا أنا بأصحاب السلطان يطلبون لصوصاً، فأخذوني فقطعوا يدي.

يشهد لهذا المعنى ما حدثنا به أحمد بن حيان التميمي قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، حا قتيبة بن سعيد، حا يعقوب بن عبد الرحمن الإسكندراني

عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كما تَحْمُونَ مَرْضَاكُمْ»[1].

الباب الثاني والسبعون

لَطَائِفُهُ بِهِمْ فِيمَا يُحَمِّلُهُمْ

سمعت فارساً يقول: سمعت أبا الحسن العلوي تلميذ إبراهيم الخواص يقول: رأيت الخواص بالدِّينَوَرِ[2] في جامعها، وهو جالس في وسطه والثلج يقع عليه، فأدركني الإشفاق عليه، فقلت له: لو تحولت إلى السكن!

فقال: لا! ثم أنشأ يقول:

لَقَدْ وَضَحَ الطَّرِيقُ إِلَيْكَ قَصْداً ... فَمَا أَحَدٌ أَرَادَكَ يَسْتَدِلُّ
فَإِنْ وَرَدَ الشِّتَاءُ فَفِيكَ صَيْفٌ ... وَإِنْ وَرَدَ المَصِيفُ فَفِيكَ ظِلُّ

ثم قال لي: هاتِ يَدَكَ! فناولته يدي، فأدخلها تحت خرقته، فإذا هو يتصبب عرقاً.

قال: سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: كنت في بعض الوادي فأصابني عرق شديد حتى تعبت عن المشي من الضعف، وكنت سمعت أن العطشان تقطر عيناه قبل أن يموت، قال: فقعدت وأنا أنتظر تقطر عينيّ إذ سمعت حِسّاً، فنظرت فإذا هي حية بيضاء كأنها الفضة الصافية تبرق وقد قصدتني مسرعة، فهالتني، فقمت فزعاً، ودخلتني قوة من الفزع، فجعلت أمشي على ضعف وهي خلفي تنفث، فلم أزل أمشي وهي خلفي حتى بلغت ماء وسكن الحسُّ، فالتفتُّ فلم أرها، وشربت الماء، فنجوت، قال: وربما يكون بي غم أو علة، فأراها في النوم، فتكون بشارة لي بفرج غمّي وزوال علّتي.

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث محمود بن لبيد. ورواه عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد الخدري الحاكم في المستدرك (٤/٢٠٨) بلفظ: «إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه».

(٢) الدينور (بكسر الدال وفتح النون والواو): مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين (معجم البلدان: ٦١٦/٢).

الباب الثالث والسبعون

لَطَائِفُهُ بِهِمْ في المَوْتِ وَبَعْدَهُ

قال أبو الحسن المعروف بالقزّاز: كنا في الفَجِّ، فأتانا شاب حسن الوجه عليه طِمْران[1]، فسلم علينا وقال: ههنا موضع أموت فيه نظيف؟ قال: فتعجبنا وقلنا له: نعم. فدللنا على عين بالقرب منا، فذهب فتوضأ وصلّى ما شاء الله، ثم انتظرناه ساعة، فلم يجئنا، فأتيناه، فإذا هو ميت.

قال أصحاب سهل بن عبد الله: كان سهل على التُّخْتِ[2] يغسل وسبابته من يده اليمنى منتصبة يشير بها.

قال أبو عمرو الإصطخري: رأيت أبا تراب النخشبي في البادية قائماً، ميتاً، لا يمسكه شيء.

قال إبراهيم بن شيبان[3]: وافاني بعض المريدين، فاعتلّ عندي أياماً فمات، فلما أن أدخل في قبره أردت أن أكشف خدَّه وأضعه على التراب تذلّلاً لعلّ الله يرحمه، فتبسم في وجهي وقال لي: تذللني بين يدي من يدللني؟ قال: قلت: لا يا حبيبي، أحياة بعد الموت؟ فأجاب: أما علمت أن أحبَّاءه لا يموتون، ولكن ينقلون من دار إلى دار؟

وقال إبراهيم بن شيبان أيضاً: كان عندي في القرية شابٌ من أهلها متنسكاً ملازماً للمسجد، وكنت مشغوفاً به، فاعتلّ، فأتيت في بعض الجمعات البلد للصلاة، وكنت إذا جئت البلد أقيم عند إخواني بقية يومي وليلتي، فوقع عليَّ الانزعاج بعد العصر، فأتيت القرية بعد العتمة، فسألت عن الفتى، قالوا: نظنه متوجعاً، فأتيته

---

(١) تثنية طِمْر، وهو الثوب الخلق.

(٢) التخت: وعاء تصان به الثياب (المعجم الوسيط: ص ٨٢).

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني كان شيخ الجبل في وقته. صحب أبا عبد الله المغربي وإبراهيم الخوّاص، وكان شديداً على المدعين متمسكاً بالكتاب والسنة ملازماً لطريقة الأئمة والمشايخ. (انظر طبقات الشعراني: ١/١١٣، وحلية الأولياء: ١٠/٣٦١).

لمست عليه وصافحته، فخرجت رُوحُهُ مع المصافحة، فتوليت غسله، فغلطت في صب الماء، أردت أن أصب على يمينه صببت على يساره ويدُه في يدي، فانتزع يده من يديّ حتى ذهب ما كان عليه من السِّدْر، فغشي على من كان معي، ثم فتح عينيه فيّ، ففزعت، وصلّيت عليه، ودخلت القبر أواريه، وكشفت عن وجهه، ففتح عينيه وتبسم حتى بدت نواجذه وثناياه؛ فسوينا عليه، وحَثَيْنا عليه التراب.

يشهد لصحة ذلك ما حدثنا أبو الحسن علي بن إسماعيل الفارسي، حا نصر بن أحمد البغدادي، حا الوليد بن شجاع السكوني، عن خالد، عن نافع الأشعري، عن حفص بن يزيد بن مسعود بن خراش: أن الربيع بن خراش كان حلف أن لا يضحك حتى يعلم أهو في الجنة أم في النار، فمكث لا يراه أحد يضحك حتى مات ـ فيما يروون ـ فأغمضوه، وسجوه، وبعثوا إلى قبره ليحفر، وبعثوا إلى كفنه، فأتي به. فقال ربعي بن خراش: رحم الله أخي، كان أقومنا في الليل الطويل، وأصومنا في اليوم الحار! قال: فإنهم لجلوس حوله، إذ طرح الثوب عن وجهه، فاستقبلهم وهو يضحك. فقال له أخوه ربعي: أبعد الموت حياة؟ قال: نعم! إني لقيت ربي، وإنه تلقاني بِرَوْحٍ وريحان وربٍّ غير غضبان، وإنه قد كساني سندساً وحريراً، ألا وإني وجدت الأمر أيسر مما ترون، فلا تغترّوا، فإن خليلي محمداً ﷺ ينتظرني ليصلي عليَّ، الوَحَى الوَحَى[1]! ثم خرجت نفسه في آخر ذلك، كأنها حصاة قذفت في ماء[2]. فبلغ ذلك عائشة أم المؤمنين، فقالت: أخو بني عبس! رحمه الله، سمعت رسول الله يقول: «يَتَكَلَّمُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتي بَعْدَ المَوْتِ مِنْ خَيْرِ التَّابِعِينَ».

---

(١) أي عجّلوا وأسْرِعوا.

(٢) روى ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/٢٣) قصة أخي ربعي بن خراش ولم يسمّه، قال: عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن خراش قال: كنا إخوة ثلاثة، وكان أعبدنا وأصومنا وافضلنا الأوسط منا، فغبت غيبة إلى السواد، ثم قدمت على أهلي فقالوا: أدرك أخاك فإنه في الموت! فخرجت أسعى إليه فانتهيت إليه وقد قضى وسجي بثوب، فقعدت عند رأسه أبكيه، فرفع يده فكشف الثوب عن وجهه وقال: السلام عليكم! قلت: أي أخي أحياة بعد الموت؟ قال: نعم! إني لقيت ربي فلقيني بروح وريحان وربّ غير غضبان، وإنه كساني ثياباً خضراً من سندس وإستبرق، وإني وجدت الأمر أيسر مما تحسبون ـ ثلاثاً ـ وإني لقيت رسول الله ﷺ فأقسم أن لا أبرح حتى آتيه، فعجّلوا جهازي! ثم طفىء، فكأنه أسرع من حصاة لو ألقيت في ماء.

الباب الرابع والسبعون

مِنْ لَطَائِفِ ما جَرَى عَلَيْهِمْ

قال أبو بكر القحطبي: كنت في مجلس سمنون[1]، فوقف عليه رجل، فسأله عن المحبة، فقال: لا أعرف اليوم من أتكلم عليه يعلم هذه المسألة. فسقط على رأسه طائر، فوقع على ركبته، فقال: إن كان فهذا، ثم جعل يقول ـ ويشير إلى الطير ـ: بلغ من أحوال القوم كذا وكذا، فشاهَدُوا كذا وكذا، وكانوا في حال كذا وكذا. فلم يزل يتكلم عليه حتى سقط الطير عن ركبته ميتاً.

قال أبو بكر بن مجاهد: سمعت أحمد بن سنان العطار يقول: سمعت بعض أصحابنا يقول: خرجت يوماً إلى نيل واسط[2]، فإذا أنا بطير أبيض في وسط الماء، وهو يقول: سبحان الله! على غفلة الناس.

قال جعفر: سمعت الجنيد يقول: لقيت شاباً من المُريدينَ في البادية جالساً عند شجرة، فقلت: يا غلام، ما الذي أجلسك ههنا؟ فقال: ضالٌ افتقدته، فمضيت وتركته، فلما انصرفت إذا أنا به قد انتقل إلى موقع قريب مني، فقلت له: فما جلوسك الساعة ههنا؟ قال: وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع فلزمته.

فقال الجنيد: فلا أدري أي حاليه أشرف، لزومه لافتقاد حاله، أو لزومه الموضع الذي نال فيه مراده.

قال أبو عبد الله محمد بن سعدان: سمعت بعض الكبار يقول: كنت يوماً جالساً

---

(١) سمنون بن حمزة الخواص، ذكر الشعراني كنيته أبا الحسن، وقال ابن الجوزي: يكنى أبا القاسم. أصله من البصرة ولكنه سكن بغداد. توفي بعد الجنيد. سمى نفسه سمنوناً الكذاب، وصحب السري السقطي وغيره. (انظر صفة الصفوة: ٢/٢٧٦، وطبقات الشعراني: ١/٨٩).

(٢) لم أجد بنيل واسط، ولكن قال ياقوت في معجم البلدان (٥/٣٨٥): النيل في مواضع: أحدها بليدة في سواد الكوفة قرب حلّة بني مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير حفره الحجاج بن يوسف وسماه بنيل مصر. وقيل إن النيل هذا يستمد من صراة جاماسب . . . والنيل أيضاً: نهر من أنهار الرقة حفره الرشيد على ضفة نهر الرقة.

بحذاء البيت، فسمعت أنيناً من البيت: يا جدر، تَنَحَّ عن طريق أوليائي وأحبائي، فمن زارك بك طاف حولك، ومن زارني بي طاف عندي.

الباب الخامس والسبعون

في السَّمَاع

السماع: استجمامٌ من تعب الوقت، وتنفّسٌ لأرباب الأحوال، واستحضارٌ الأسرار لذوي الأشغال.

وإنما اختير على غيره مما يستروح إليه الطباع، لبعد النفوس عن التشبث به والسكون إليه، فإنه من القضاء يبدو، وإلى القضاء يعود.

وأرباب الكشوف والمشاهدات استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم تنزه أسرارهم في ميدان الكشوف.

سمعت فارساً يقول: كنت عند قوطة الموصلي، وكان لزم سارية في جامع بغداد أربعين سنة، قلنا له: ههنا قوال طيّب، ندعوه لك؟ قال: أنا أجلُّ من أن يستقطعني شخص أو ينفذ فيّ قول، أنا ردم كله.

فالسماع إذا قرع الأسماع أثار كوامن أسرارها، فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد، ومن بين متمكن بقوة الحال.

قال أبو محمد رُويم: إن القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣] فكمن ذلك في أسرارهم كما كمن كون ذلك في عقولهم، فلما سمعوا الذكر ظهرت كوامن أسرارهم، فانزعجوا، كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عن ذلك، فصدقوا.

سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: السماع على ضربين، فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة، وهذا لا يسمع إلا بالتمييز وحضور القلب. وطائفة سمعت النغمة، وهو قُوت الروح، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة.

قال أبو عبد الله النباجي: السماع ما أثار فكرة واكتسب عبرة، وما سواه فتنة.

قال الجنيد: الرحمة تنزل على الفقير في ثلاثة مواضع: عند الأكل فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة، وعند الكلام فإنه لا يتكلم إلا للضرورة، وعند السماع فإنه لا يسمع إلا عند الوجد.

تم الكتاب بحمد الله


الفهارس

فهرس المصطلحات

ـ أ ـ

- ث -

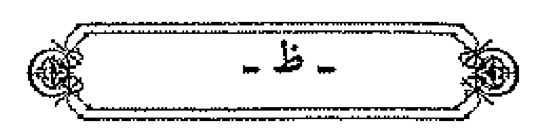
- ج -



- ح -

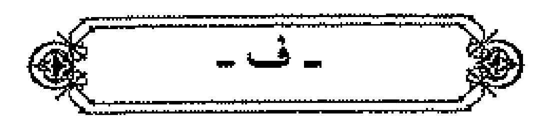


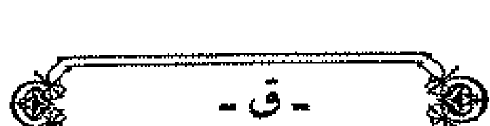
- د -

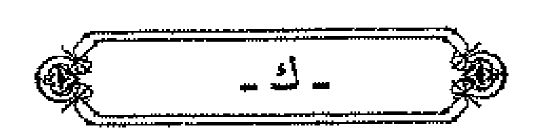

- ظ -


- ع -


ـ غ ـ


ـ ف ـ



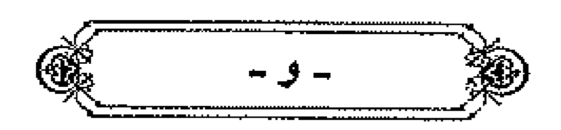


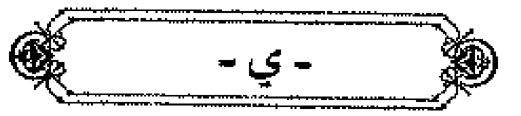
- ل -

- م -

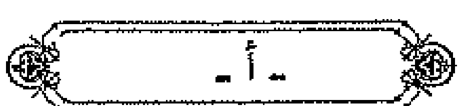
ـ ن ـ


ـ هـ ـ

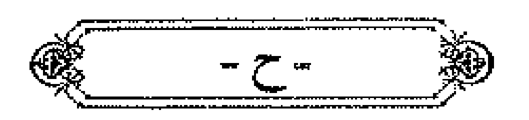

ـ و ـ

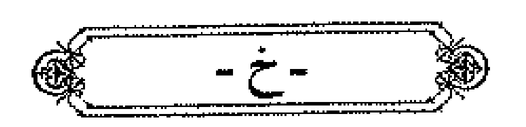

ـ ي ـ

فهرس الأعلام

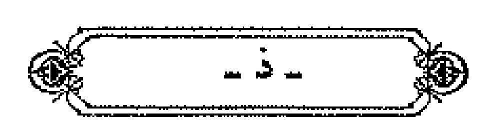


ـ أ ـ


- ح -

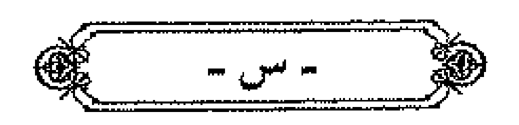

- خ -

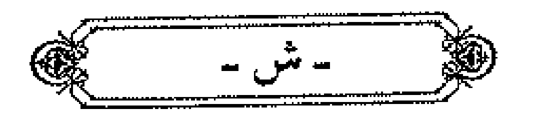

ـ د ـ

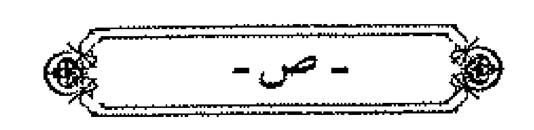

ـ ذ ـ

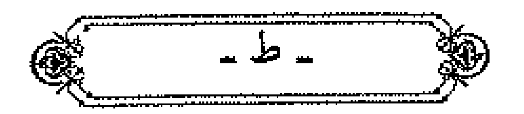

ـ ر ـ


- ز -

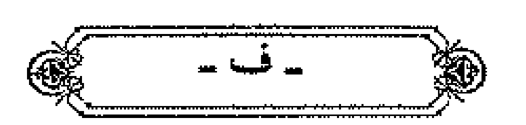

- س -


- ش -

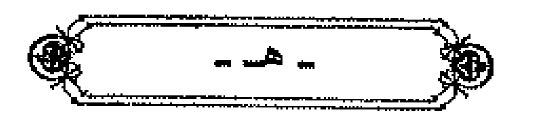

- ص -


- ط -

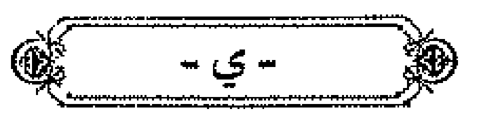

- ع -



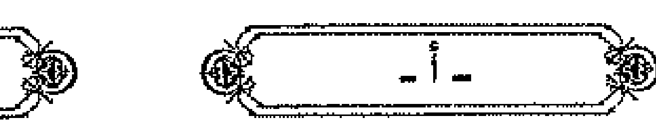








فهرس الأعلام المترجم لهم في الحواشي



- أ -

- ب -



- ج -



- ح -







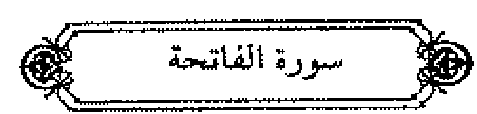
- ز -

- س -

- ع -



فهرس الآيات القرآنية



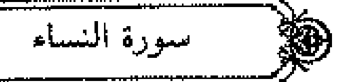
سورة الفاتحة



سورة البقرة



سورة آل عمران

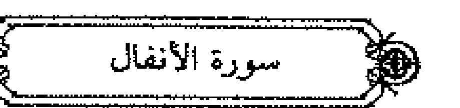


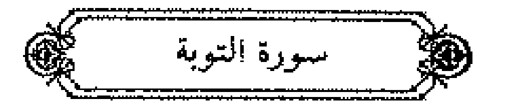
سورة النساء

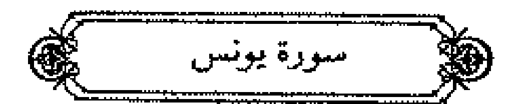
سورة المائدة

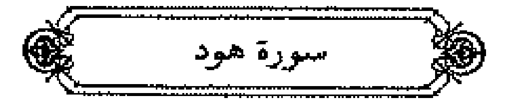
سورة الأنعام

سورة الأعراف

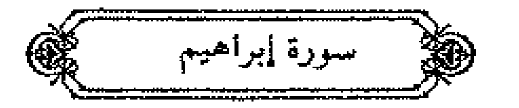


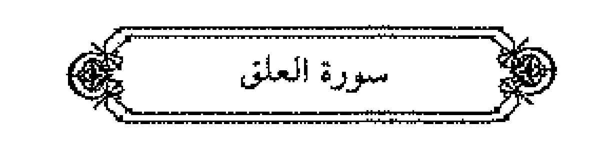












الآية [٩]: ١٢٦

سورة الفلق

الآية [٢]: ٤٩

فهرس الأحاديث النبوية



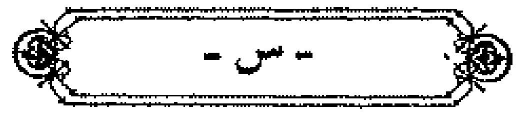
ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ح ـ

ـ ذ ـ



- س -

- ش -

- ص -

- ع -

- ف -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ



- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس القوافي

قافية الباء

قافية الدال

قافية الراء

قافية السين

قافية العين

قافية القاف

قافية الكاف

قافية اللام

قافية الميم

قافية النون

وَيَزْعمُ	أتَانَا	-	(٢)	١٦٨
ذَكَرْتُكَ	لِسَاني	الجنيد	(١)	١٢٢
لم يَبْقَ	بُرهاني	بعض الكبراء	(٩)	٧٠
لَوْ كُلُّ	حَسَنِ	أبو علي الروذباري	(٢)	١١٨
مَنْ جَادَ	والمِنَنِ	-	(٢)	١٣٣

قافية الهاء

مَنْ رَامَهُ	يَلْهُو	بعض الكبار	(٢)	٦٩
أَفْنَاهُ	لِيُبْدِيهِ	-	(٢)	١٤٤
سَرَائرُ	لمُخْفِيهِ	بعض الكبار	(٢)	١٤٢

قافية الياء

رَاعَيْتَني	وَبِيٌّ	بعض الكبار	(٦)	١٥٢
أفناهُ	ليُبْديهِ	-	(٢)	١٤٤
سرائرُ	لمُخْفيهِ	بعض الكبار	(٢)	١٤٢

المحتويات

التعرف
لمذهب أهل التصوف

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Tel & Fax:+961.1.366135 - 364398
+961.1.378541 - 378542
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon
Riad el Solh Beirut 1107 2290
e-mail:sales@al-ilmiyah.com
info@alilmiyah.com
www.al-ilmiyah.com

ISBN 2-7451-0538-8
9782745105387 90000>

طبع في مطابع دار الكتب العلمية
Designed by R. Sesdik